رجال عرفتهم

عباس محمود العقاد

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم اللہ الرحمن الرحیم

تقـــديم

فى الصفحات التالية تعليقات متفرقة على سير طائفة من الأعلام الذين كنا نسميهم بالشيوخ أو الأقطاب حين بدأت حياتى الصحفية قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات ، ومنهم من لم يكن من الشيوخ والأقطاب فى تلك الفترة ، ولكنهم لحقوا بهم فى الطريق وعرفناهم كما عرفنا الأولين ، ووصفنا معرفتنا بهم كما وصفت معرفتنا بأولئك الشيوخ والأقطاب ، من زاوية خاصة تتيح لنا أن نقول عنهم ما ليس فى التاريخ العام الذى يقال فى كل تعليق أو تقدير .

وأكثر هؤلاء الأعلام من الصحفيين أو الذين كانت لهم مشاركة موجهة فى الكتابة الصحفية ، ونسمى كتابتنا عنهم بالتعليقات ولا نسميها بالسير أو التراجم أو التحليلات لأننا لم نكتبها لنستقصى الحوادث أو نحص «الشخصيات» من وجهتها العامة ، ولكننا كتبناها لنبدى لهم رسومًا قريبة من الزاوية التى اتفقت لنا معرفتهم فيها ، وتوخينا فى هذه الرسوم أن تكون كصور السائحة التى يلتقطها صاحب الصورة الشمسية لبعض المناظر أو بعض الشخوص حيثما مرت به فى رحلاته ، فليست هى أطلسًا جغرافيًا للمواقع والبلدان ، وليست هى شرحًا تاريخيًا للشخوص والأعلام ، ولكنها بمثابة المذكرات المدونة فى الطريق لتسجيل المعالم الخاصة من زاويتها العارضة ، وإن لم تخرج بهذا التخصيص عن مجال التعميم .

ولقد اتفق التقاء هذه الزمرة المختارة في مجموعة واحدة كما يتفق التقاء الصور المتفرقة في جعبة واحدة من هذه الرحلة أو تلك ، بغير مفاضلة مقصودة بين الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم ممن نعرفهم كمعرفتنا بهؤلاء الأعلام والأقطاب .. وربما جمعت المناسبة بين طائفة أخرى كهذه الطائفة في مكانها وحق الكتابة عنها ، فلا نحسبها مسألة تقديم وتأخير ولا مسألة موازنة وترجيح ، وإنما رحلة أخرى من رحلات الحياة الصحفية أو الأدبية أو السياسية ، ولا مفاضلة بين معالم الرحلات فيما يعرض لها من أسباب التقديم والتأخير .

وحسبنا عند أصدقائنا القراء أن تكون هذه المجموعة «حفلة استقبال» اجتماعية : نعرفهم فيها بأقطابها كما عرفناهم على سنة التحية في مجالس الأصدقاء . وذلك حسبنا ما نبغيه .

عباس محمود العقاد

علي يوسف

علـى يوســـف

١

☐ تجرى المقارنة أحيانًا بين الكاتب الصحفى الذى كان يكتب فى صحافتنا العربية قبل سبعين أو ثمانين سنة ، وبين كاتبنا الصحفى الذى يكتب الآن فى صحافتنا ، بعد أن بلغت مع الصحافة العالمية آخر أطوارها ، من وسائل الطباعة والتحرير إلى وسائل الإدارة والتوزيع .

وقد نوجز هذه الفوارق التى يمكن أن تمتد إلى غير نهاية فنقول : إن الفارق هنا هو الفارق بين «روبنسون كروزو» فى جزيرته وبين رحالة من سياح اليوم ترتسم له طريقه من رقم الكرسى فى الطيارة إلى رقم الحجرة فى الفندق إلى أسماء الخطوط الجوية والبحرية فى كل مدينة وكل فندق ، وكل يوم من أيام الرحلة ، منذ «قطع التذكرة» إلى تسليم البطاقة عند باب المطار الأخير ، مع سلامة الإياب .

وفارق آخر ربما أوجز لك تلك الفوارق على نحو آخر من المشابهة : وهو الفارق بين طبيب القرن التاسع عشر وطبيب القرن العشرين .

إن طبيب القرن العشرين يعرف عمله المطلوب من خلال عشرين كشفًا وتحليلاً وأداة طبية أو كيماوية بين يديه ، ويستوحى وصفه للدواء من تحليل الدم وتحليل المواد الجسدية على اختلافها ، ومن كشف الأشعة ورسامة القلب وشهادات للأحوال الخاصة والعامة يرجع إليها فى سجلاتها إذا شاء .

ولم تكن لطبيب القرن التاسع عشر وسيلة من هذه الوسائل الميسورة اليوم فى أكثر العيادات ، فربما أعوزته الساعة فلم يعتمد فى جس النبض على وسيلة غير الإصغاء بأذنيه ، وهو بعد ذلك يعالج العلل جميعًا فلا يتخصص لعلة واحدة يستعد منذ عهد المدرسة «لتشخيصها» وتدبير علاجها .

وكتّابنا الصحفيون من أعلام القرن التاسع عشر كثيرون ...

ولكننا إذا نادينا أسماءهم من الذاكرة ، لم يكن منهم من هو أسرع تلبية للنداء العاجل من اسم «على يوسف» صاحب «المؤيد» أخيرًا . وصاحب «الآداب» قبل ذلك .

إن «على يوسف» كان يصنع «صناعته» الصحفية يتعلمها الناس منه ، ولم يكن يتعلم تلك الصناعة على أساتذتها فى الشرق والغرب ، ولا على أدواتها التى تملبا عليه .

لم يكن يعرف لغة للصحافة غير العربية ، ولم يكن يعرف من العربية غير ما اعتمد فى معرفته على نفسه ، بل غير ما اعتمد على نفسه قبل ذلك فى اختيار أستاذه الذى يراجعها عليه .

وكان يسمع ، ولا شك ، بالصحافة الأوربية ويعرف منها بالسماع أكبرها وأشهرها ، ولكنه لم يعرف من صحافة الغرب صحيفة واحدة لينهج على منهجها ، ولم يكن من غايته ولا طاقته أن يعرف « التيمس » أو « الطان » ليحكى هذه أو تلك فى طبعها وتحريرها ، ولكنه – هو وأقرانه من كتاب عصره – كانوا يبتدئون فى الصحافة طريقًا آخر غير تلك الطريق التى تقدمتهم فيها الصحف الأوربية : طريقًا يستطيعونها وتستدعيهم إليها ، وقد تكون الطريق لكل صحفى منهم غير الطرق الأخرى التى يستقيم عليها سائر زملائه .

كان « على يوسف » يرتجل صناعته الصحفية فى كل شىء : فى التقاط الأخبار ، وفى جمع الآراء ، وفى تحرير المقالات ، وفى سياسة الجمهور وسياسة ولاة الأمور .

وظهر من قضية « التلغرافات » التى سيق من أجلها إلى القضاء أنه كان يستطلع أخبار الحملة على السودان قبل وصولها إلى ديوان الوزارة ، لأنه كان على صلة بموظف المكتب الذى يتلقاها ، ولم يكن أحد يعرف « الواسطة » التى تحمل النبأ من مكتب البرق إلى مكتب التحرير .

وكانت تعبئة الآراء قبل هذا الجيل لازمة وعسيرة فى وقت واحد ، بل كانت إدارتها كلها مجهولةً يخترعها كل صاحب صحيفة على سنته فى اختراع هذه الأدوات المرتجلة .

أما « على يوسف » فقد كادت وسيلته لتعبئة الآراء أن تكون شخصية بينه وبين نفسه وصحبه ، ومن يرجع إليهم فى حياته الخاصة أو يرجعون إليه .

فلما اتهم لورد كرومر هذه الأمة بالتعصب الدينى وعداوة الأجانب ، جمع الشيخ « على يوسف » نماذج الآراء التى تدفع هذه التهمة عن كل صاحب صفة ترشحه لإبداء الرأى فيها ..

فقال الخواجة ميباراكى اليونانى : « أشهد أننى ما شعرت قط فى معاملاتى مع المصريين بأننى أعامل أناسًا يخالفوننى فى العقيدة » .

وقال الفرنسى وكيل مصرف الكريدى ليونيه الفرنسى : « إننا لا نشعر بهذا التعصب الذى اتهمت به الأمة المصرية .. اللهم إلا إذا كان التعصب موجودًا فى غير الدائرة التى إليها معاملاتنا » .

وقال شكور بك الإدارى اللبنانى : « إننى أفضل أن أمشى وحدى ليلاً فى جهات السيدة زينب والنحاسين. على أن أمشى وحدى ليلاً فى جهات مونمارتر بضواحى باريس » .

وقال إسكندر عمون المحامى : « إن المصرى أكثر إكرامًا للغريب من سائر الشعوب » .

وقال باسيل تدرس باشا : « لا صحة لما يقال من وجود التعصب الدينى أو الجنسى فى مصر » .

وحين سأل الشيخ كلاً من السيد عمر مكرم والشيخ محمد بخيت من رجال الدين الإسلامى لم ينس أن يسأل رجلاً ينكر الأديان جميعًا وهو الدكتور شبلى شميل الذى قال : « إن التعصب غير موجود فى مصر على الإطلاق » .

أما المقالة فهى الصحفة المختارة على مائدة الشيخ على يوسف بغير جدال .

وقد تكتب المقالة فى موضوعها بأسلوب أجمل من أسلوبها ، وعلى نمط من اللفظ والمعنى أبلغ من نمطها فى لفظها ومعناها ، ولكن مقالة « على يوسف » هى مقالة على يوسف التى لا يكتبها غيره ولا يؤدى الغاية منها أحد كما يؤديها بقلمه ورأيه .. فهى من الكلم المفصل على حسب قياسه جملة جملة وسطرًا سطرًا من فاتحتها إلى ختامها ، وليست من الكلم « المبهم » على قياسه ولو على وجه التقريب الذى يحكمها إحكام التفصيل .

وإذا أردنا أن نجمع لهذه « الشخصية » النادرة مفتاحها فى كلمة واحدة . فهى كلمة « العصامية » ، حيث تصل العصامية أحيانًا إلى حدود المغامرة .

لقد كان لـ « على يوسف ومصطفى كامل » طريقتان مختلفتان – بل مختلفتان جدًا – فى الكتابة الصحفية وفى الخطة السياسية ، وفى الدعوة الوطنية .

ولقد فرق النقد بين الطريقتين ، فكان الفرق بينهما عند أناس أن طريقة مصطفى كامل هى طريقة التطرف والحماسة ، وأن طريقة على يوسف هى طريقة المحافظة والاعتدال .. وكان الفرق بينهما عند أناس آخرين هو الفرق بين التعليم الحديث والتعليم القديم ، أو هو الفرق بين الشباب والكهولة . أو الفرق بين السياسة القومية وسياسة القصر والحاشية الخديوية . أو الفرق بين الخطيب المنطلق والكاتب الحصيف .

لكن الواقع أن الفرق الوحيد الذى يحتوى جميع هذه الفروق هو « شعور العصامية » فى نفس الرجل الذى كان مثله الأعلى فى الحياة أن يصل باجتهاده وحيلته إلى مكانة السيد الموقر ، ليرعى له السادة الوارثون للسيادة كرامة الرأى وكرامة « الخاطر » كما نقول فى عرفنا المألوف .

وكان من حق العصامية الناجحة عند على يوسف أن يتكلم مع ذوى « الاعتبار » كما يتكلم ذوو الاعتبار ، ولا يخف به القلم خفة الحديث المتعجل أو الحديث المستثار .

وإذا قال ، كما كان يقول كثيرًا ، إنه لا يرضى السياسة على مذهب الرعاع .. فليست كلمة الرعاع هنا مقابلة عنده لكلمة النبلاء أو « الأرستقراطيين » .. وليس إنكاره لـ « مصطفى كامل » إنكارًا لإنسان دونه فى المقام والمكانة الاجتماعية ، لأن « مصطفى كامل » كان له نصيبه من الألقاب التى خلعت على الشيخ على يوسف ، وإن لم تغلب عليه .

وإنما كانت المقابلة عنده مقابلة بين خفة النزق والعجلة ورصانة « العقلاء » من ذوى الرأى والحنكة فى كل طبقة ، ولهذا كان يكثر من تلقيب « مصطفى كامل بالطائش » ، ويكثر من وصف سياسته بالطيش . ويجذبه عرق الدراسة العتيقة فيقول معتذرًا من تكرار كلمة الطائش إنها تطابق اسم مصطفى كامل فى حساب التنجيم ، لأن مجموع الحروف بحساب الجمل فى كلمة طائش وكلمتى مصطفى كامل واحد .... وهو «٣١٩» .

وهذه القيمة – قيمة العصامى الذى بلغ فى المكانة الاجتماعية مبلغ ذوى الرأى – هى هى التى جعلت لكتابته السياسية صبغة كصبغة اللغة الدبلوماسية بين وزراء الخارجية والسفراء ، وهى هى التى جعلته يعتزل الصحافة بعد أن أسندت إليه وظيفة « سيد السادات » أو شيخ الطريقة الوفائية .

وقد كان يكتب عن خصوم القصر الخديوى جميعًا ، فيبيح لقلمه من المغامز فى الكتابة عنهم ما يرضى القصر ويستجيب لأمره وإيعازه ، ولكنه كان يأبى كل الإباء أن يحمل على رجل ممن أحسنوا إليه فى نشأته الأولى ، كمحمد عبده ، وحسن عاصم ، وسعد زغلول ، لأن هذه المحافظة على سمت الرجل الكريم تدفع عنه سبة النعمة الحديثة والمقام المدخول .

فإذا جاء بين تضاعيف الأخبار فى صحيفة « المؤيد » شىء يمس هؤلاء مرضاة للحاشية الخديوية ، فإنما كان يترك كتابته لغيره أو يفرغه فى القالب الذى يوافق مظهر الكرامة وينفى عنه شبهات العتب والملام .

غير أن المحافظة على المظهر شىء ومطاوعة الحيلة والدهاء من وراء الستار شىء آخر .. فى الوقت الذى كان فيه التشهير الصريح باسم محمد عبده محرمًا على أقلام المؤيد ، كان وكيل المؤيد بالآستانة يتطوع لصاحبة الشيخ المفتى الغريب عن المدينة ، فيقحمه من مواطن الفرجة ما يتحاماه أمثاله ، ويتواطأ بذلك مع رؤساء الشرطة ليفجأوا الشيخ والوكيل بين مواطن

الريبة .. ثم ينتهى الأمر إلى « وصمة » شائنة تصيب الشيخ فى دار الخلافة الإسلامية ، فلا يشق على الخديو بعد ذلك أن يعزله من منصب الديانة برخصة من مقام الخليفة الأعظم ، ويتراجع أمامها مجلس الوزارة فى مصر ، فلا يعتبر عزل المفتى فى هذه الحالة إخلالاً بنظام العزل والتوظيف .

• • •

وقد عمت الصبغة الدبلوماسية كل منحى من مناحى تفكيره وعمله فى السياسة وفى علاقاته بالسياسيين الوطنيين وغير الوطنيين . وظهرت فى كل تصرف من تصرفاته العامة حتى فى صياغة المبادئ الوطنية التى قررها لحزبه أساسًا للمطالبة بحقوق الأمة ونظام الحكومة . فقد أوشك أن يجعل هذه المبادئ توريطًا دبلوماسيًا من كلام المحتلين أنفسهم ليسكتهم ولا يفتح لهم بابًا للاحتجاج على ولى الأمر أو اتهامه بتحريض الصحف والأحزاب عليهم . إذ كان انتساب الشيخ على يوسف إلى القصر الخديوى أمرًا مفروغًا منه ، مفهومًا بالتواتر بين دوائر السياسة الشعبية والرسمية فى القاهرة وعواصم الدول ذوات الامتيازات فى هذه البلاد ، وكان وكلاء « المؤيد » يزورون الدواوين – خارج القطر – كأنهم منحقون بسفارات القصر ، قبل أن توجد له سفارات ..

فالمحتلون كانوا يسمون أنفسهم بالمصلحين ، ويقولون إن إصلاح الأداة الحكومية غرض من أغراضهم الأولى التى ينجزونها قبل مغادرة البلاد .

والشيخ على يوسف يسمى حزبه بحزب الإصلاح . فأى اعتراض للدولة البريطانية عليه أو على الخديو إذا أقام قواعد حزبه على المطالبة بالإصلاح ؟ ..

والمحتلون كانوا يقولون إنهم يدربون المصريين على حكم أنفسهم ويحولون بين الأمير والاستئثار بالسلطة فى مسائل الإدارة والمال على الخصوص .

والشيخ على يوسف يقيد الإصلاح بأنه « إصلاح على المبادئ الدستورية » ، ولا يذكر الدستور على إطلاقه لأنه قد يزعج الدولة العثمانية صاحبة السيادة التى لم تكن فى بلادها حكومة نيابية ، وقد يزعج الإنجليز أصحاب السلطان الفعلى كما يزعج الخديو صاحب السلطة الشرعية .

ولم يذكر « الاستقلال » ذكره مشروطًا بالمعاهدات التى ارتبطت بها بريطانيا العظمى ، وقال إن تحقيقه تنفيذ لوعود هذه الدولة بالجلاء ، وقد زادت هذه الوعود على السبعين .

وكل مقالة من مقالات « المؤيد » في السياسة العامة فهي على هذا النمط ، مذكرة رسمية لا يأبى السفير أن يوقعها باسمه باسم ولي أمره ورئيس حكومته ، فإذا جاوزت هذا الحد إلى شيء من الشدة في التعبير فغاية خطبها أن تكون بمثابة المقال « الموعز به » إلى لسان حال رسمي من ألسنة الحكومات التي تسمى أحياناً « بالصحف الشبيهة بالرسمية » .

وقد اشتد الشيخ على يوسف غاية شدته في الحملة على لورد كرومر بعد اعتزاله ، أو عزله ، من منصب المعتمد البريطاني في القاهرة ، وكان الشيخ على حريصاً على ترويج الظن الذي شاع في البلد عن نجاح الخديو في مساعيه عند بلاط سان جيمس لعزل كرومر وتعيين رجل من أصدقائه في مكانه ، ولكن كان على حذر شديد من إعلان هذه الدعوة مخافة أن يغضب الدولة البريطانية ويضطرها إلى الأخذ بناصر عميدها المخذول صيانة له من مهانة الشماتة وصيانة لها من الاعتراف أمام الناس بخذلانها لرجالها وخدام سياستها .

فإذا بالشيخ على يوسف يخلص من هذا المأزق على أحسن حال من الكياسة والإنصاف ، فيتهم كرومر نفسه بأنه فضح حقيقة الموقف بثورته المحنقة في خطاب الوداع ، ويسأل : لماذا كل هذا الحنق والرجل ! يفارق قصر الدوبارة على الرغم منه كما يقال ؟ ..

وإذا بالشيخ يعترف لعميد المعزول بكل مأثرة من مآثره المدعاة ، فلا ينكر عليه حسنة واحدة يعتبر إنكارها عليه إنكاراً على دولته كلها من ورائه .

ثم يعمد الشيخ اللبق إلى الخطبة الكرومرية نفسها ، فلا يضيف إليها حرفاً من عنده ، بل يأخذها بنصوصها للإيقاع بينه وبين المحتفلين بوداعه وبين المتشيعين لسياسته والمسخرين أو المتبرعين بالشهادة لحكمه وحكم أعوانه ومستشاريه .

كان الأمير حسين كامل على رأس المدعوين للاشتراك في حفلة التوديع ، فلم يكن تعليق الشيخ على يوسف نقداً للأمير – عم الخديو – بل كان إبرازاً واضحاً لإساءة كرومر إليه ، مرة بالإنحاء على أبيه إسماعيل ومرة بالسكوت عن الإشارة إليه كأنه من سقط المتاع ، وهو حاضر أمام عينيه :

« هذا الأمير الجليل الذي والى جناب اللورد بالصداقة زمناً طويلاً وخصه باحترامه دائماً ، وكان له في عهده أعظم أثر في خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية لم ير اللورد أنه خليق بكلمة ثناء يوجهها إليه في جنب ما وجه من عبارات الثناء من الأحياء والأموات » .

ولم يتحدث الشيخ على عن أحد من المحتفلين باللورد كأنه خصم يحاربه وكأنه صديق اللورد وموضع حظوته ، بل كان حديثه عنهم جميعاً كأنهم ضحاياه وضحايا سياسته وسوء خلقه في حاضره وماضيه .

قال كرومر عن رياض باشا إنه علق الجرس في عنق الهر ، فكان ثناء على يوسف على رياض باشا أكبر من ثناء اللورد عليه ، ولكنه استدرك قائلاً إن اللورد :

« لم يقل إن رياض باشا لما أراد في زمنه هو ، أن يعلق الجرس في عنق الهر قطعت يده وحلف اللورد ألا يعود إلى خدمة الحكومة ما دام هو في البلاد ، وزاده عنوة فرفض ابنه من وكالة الداخلية في اليوم التالي من استقالة أبيه .. فكان السيد إسماعيل أخف وطأة على رياض باشا من المستبد كرومر » .

وأثنى كرومر على بطرس غالي باشا ومدحه بسعة الحيلة في حل المشكلات فقال الشيخ علي :

« نعم .. ولكنها المشكلات التي كان يخلقها اللورد بينه وبين الجناب العالي ، وبينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى .. » .

وتساءل الشيخ على :

« لماذا أعرض اللورد عن ذكر بقية الوزراء كأنهم ليسوا نظاراً في الحكومة وليس لهم عمل مطلقاً فيها ؟ » .

وقد أشاد كرومر بالوفاق الإنجليزي الفرنسي الذي تم على يديه فسرد له « الشيخ على » سلسلة من الإساءات إلى الثقافة الفرنسية والخبراء الفرنسيين ، وأنه يفعل ذلك وليس حباً في مصلحة مصر ، ولكن ليحل محل كل قدم فرنساوية قدماً إنجليزية » .

ولم يكن كرومر ليعدل عن هذه الخطة مرة إلا إذا جاءه الأمر من رؤسائه في العاصمة البريطانية .

والحق أن براعة على يوسف في التعقيب على أقوال كرومر كانت هي البراعة « الموصوفة » للرد على كل كلمة فيها بما يناسبها ويقلبها على صاحبها عند أنصاره قبل خصومه والشامتين به وبعهده ، وقد قلنا – فيما تقدم :

– إن مقالة على يوسف هي مقالة على يوسف التي لا يكتبها غيره وإن كتب ما هو أجمل منها وما هو أبلغ منها وأوفى ..

فهذه المقالات فى توديع كرومر هى بعض الشواهد على هذه « الخصوصية اليوسفية » .. إذ لم يكتب أحد من مودعى كرومر نظيرًا لها بهذا الأسلوب « الدبلوماسى العصامى » الفريد ، وإن كتبوا على أساليبهم ما هو جدير بالإعجاب من ناحيته فى عبارته وفحواه .

ولم يستغرق هذا الأسلوب الدبلوماسى قلم الشيخ الألمعى فى كل ما كتب من مقال أو خبر ، فقد كان للكاتب « الإنسان » قلمه الذى يجرى على هذه الطبقة من الفصاحة وحسن الأداء ، ويجرى كذلك مع العاطفة التى كان يأبى لها أن تفرده فى مواقف السياسة والمطالب العامة ، ولكنها العاطفة فى نفس « العصامى » الذاكر لعصاميته ، كيفما تقلبت به الحال بين الرضا والغضب ، أو بين الفرح والأسى .

وله فى رثاء ولده الوحيد عمر كلمات كتبها يوم نعيه ويوم تشييعه ، لم يحتفل لها بعدة من عدد البلاغة غير الشجن والتجلد والتسليم للواقع الذى بطلت فيه حيلة الألسنة والأقلام كم بطلت فيه حيلة العقول والقلوب .

نعاه قلمه فقال :

« فقد صاحب هذه الجريدة الساعة السادسة بعد ظهر أمس ولده الوحيد – عمر يوسف – فى الحادية عشرة من عمره ، بعد مرض قليل الأيام كثير الآلام . فإلى الله مآبك ياعمر ، وإلى الله مآبك أيها الزهر الذى قطفه الموت فى أزكى شذاه .

« إلى الله مآبك أيها الكبد الذى يمشى على الأرض ، ثم هوى إلى حفرة أبدية يسمونها القبر ، ولو استطعنا لكان فى القلب ، بل هناك قلبان أولى بهما أن يكونا قبره . قلب والده الحزين وقلب أمه الثكلى .. »

وعاد من تشييع جنازته فكتب الخبر بقلمه وهو يمحو سطوره بدموعه ، وقال بعد كلمات :

« خرجنا به من الدار التى ولد فيها ، فألفها منذ كان طفلاً يحبو إلى أن صار فتى يمشى بها مشية الخيلاء : من الدار التى كان يضيق فناؤها على سعته به ، فيذهب إلى الشارع وبين المتنزهات تحيط به الخدم أن يصيبه أذى ، إلى ذلك اللحد الضيق الذى لا يستطيع أن يعيش فيه إنسان ساعة من الزمان ولكنه – مع ما به من وحشة ووحدة – أوسع المنازل بعد الموت وآنسها لمن يلقى الله طاهرًا مثل عمر .

« خرجنا به ، لا كما يخرج فى عربته إلى المدرسة يصحبه خادمه ، بل محمولاً على الأعناق مودعًا بجماهير المشيعين ، فى سرير كما تزف العروس مغشى بالحرير الأبيض مجللا بالزهور ،

ولكنه كان زفافًا محزنًا يعلوه جلال الموت خطيبًا يصيح : الصبر أجمل .. والناس يصيحون . سار مشيعوه جميعًا مطرقى الرؤوس كأن عليها الطير وتخاف أن يطير . إلا رأسين كانا يلتفتان إلى النعش بنظرات الملهوف : رأس والده الحزين فى مقدمة الجنازة . ورأس والدته الثكلى فى مؤخرتها .. فيهما أربع أعين هامية ، ودونهما قلبان مستعران ومهجتان زافرتان .

ويشاء القدر لهذه العصامية التى لم تفارقه فى تشييع فلذة كبده ، وأعز أهله عليه . أن تلازمه إلى أخريات حياته ، وأن تسلبه كثيرًا كما وهبت له كثيرًا .. فقد صحبتها دفعة الثقة بالنفس فى مغامراتها ، فغامر فى طلب الحب كما غامر فى طلب الكسب ، فلم تكتب له السعادة فى هذا ولا ذاك ، لأنه شقى بالحياة الزوجية التى حسبها غاية الأمل نعمة وشرفًا .

وشقى بالمال الذى اقتناه فضاع كله بين عثرات الجد وعثرت الطموح والإقدام ..

٢

من المصادفات التي عرضت لي في حياتي الصحفية . أنني جلست على مكتب على يوسف أيامًا في أثناء نيابتي عن الأستاذ أحمد حافظ عوض الذي كان يتولى رئاسة « المؤيد » في تلك الأيام ، وقد دعي الأستاذ أحمد حافظ عوض لمصاحبة الخديو في رحلته التي طاف فيها بأقاليم الوجه البحري على سبيل المظاهرة أمام الإنجليز ، لأنه أحس أنهم يفكرون في خلعه وتعديل نظام الخديوية وولاية العهد في الأسرة العلوية ، وقد كانت سفرته الأخيرة من مصر بعد الطواف بالأقاليم وزيارة الوجهاء والنواب في مساكنهم واستقبال الشعب في المنازل والطرقات والتهويل على الدولة المحتلة بمظاهر الولاء التي أراد أن يحف به قبل رحيله من الديار ، ولكنه خلع فعلاً بعد سفره بثلاثة أشهر ، واحتج الإنجليز لخلعه بانضمامه في العاصمة التركية إلى دول أوربة الوسطى ، متابعة للدولة العثمانية .

وقد عهد إليّ الأستاذ أحمد حافظ عوض أن أتلقى رسائله ورسائل وكلاء الصحيفة أثناء تلك الرحلة ، وأفهمني أنه يعد العدة لتأليف كتاب عنها يقدمه إلى الخديو بعد عودته إلى الديار ..

وتقدرون فتضحك الأقدار ! ..

فلا الخديو عاد إلى الديار ، ولا عاد إليها كتشنر الذي رسم الخطة قبل سفره من مصر لتغيير نظام الحكم كله في هذه البلاد . ولا الكتاب « المنتظر » كتب فيه حرف واحد ، لأنني رفضت العمل فيه ، واستقلت من تحرير « المؤيد » أثناء اشتغال الأستاذ حافظ بجمع الصور والتواريخ لتأليفه وتنسيقه .

ومن المصادفات أن يتفق لي الجلوس على ذلك الكرسي ، وأن أكتب على ذلك المكتب الذي لم أكد أفرغ من حملاتي على صاحبه وعلى سياسته أثناء حياته وبعد مماته ، ولا أذكر أنني لقيت فيه صاحبه غير مرة واحدة كانت هي المرة الوحيدة التي حييته فيها لكلام كتبه في السياسة الوطنية .

وكان كثير من الشبان المصريين قد تفرقوا بين الأحزاب السياسية في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى ، فمال معظمهم إلى جانب الحزب الوطني لاقتراب السن والتعلم بين

مصطفى كامل « الحقوقي » وطلاب مدرسة الحقوق الذين كانوا أكثر الطلاب اشتغالاً بالسياسة ، ومالت طائفة منهم إلى حزب الأمة وهم في الغالب أبناء الأسر الذين تألف الحزب من آبائهم وذويهم ، ولم يجنح أحد من الشبان إلى حزب الشيخ علي يوسف وهو حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، لأن خطة الحزب كانت إلى « الدبلوماسية » أقرب منها إلى السياسة أو إلى الدعوة الوطنية ، وكان « المؤيد » يتبع في كتابته أسلوب الصحيفة التي تعتبر لسانًا شبيهًا بالرسمي للقصر والحاشية الخديوية ، وليس هذا الأسلوب بالذي يروق الشباب أو يرافق حماسته الفتية ، ولم يكن الإعراض عن « المؤيد » من جانب واحد لأنه أعرض متبادل من الطرفين ، وكان علي يوسف يأبى على الطلاب أن يشتغلوا بغير الدراسة في سنوات التعليم ، وكان مذهبه أن ينتظر رجال الغد إلى أن يأتيهم غدهم الذي هم رجاله .. أما قبل ذلك فكل ما كان يرتضيه الشيخ منهم أن يدينوا بشرعة الولاء لأمير البلاد .

وكنت من فريق الشبان القلائل الذين نفروا من الأحزاب منذ اللحظة الأولى . فلم يكن لي حزب أتعصب له وأنتمي إليه ، ولم تكن لي صحيفة أتشيع لسياستها ومنهجها في كتابتها ، ولكنني كنت أفضل « الجريدة » في جانب الثقافة ، وأفضل « اللواء » في شدته على الاحتلال والوزارة ، وأقرأ « المؤيد » لمقالاته الشرقية والإسلامية ، وأعتقد أن الخطة المثلى هي خطة « مصر للمصريين » تمييزًا لها من خطة المحافظة على السيادة العثمانية ؛ وكان بعضهم يترخص في تسمية هذه الخطة وأصحابها باسم « حزب المفتي » لأن الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله كان أشهر المعروفين بذلك الرأي في تلك الفترة ، ومعه في ذلك سعد زغلول وأحمد لطفي السيد ..

على أنني - في المعارك القلمية - كنت أجد نفسي إلى جانب مصطفى كامل كلما نشبت الخصومة الحامية بينه وبين علي يوسف . وكنت أكتب إلى اللواء منتصرًا له كلما دخلت المعركة في دور من أدوار المساجلة الأدبية ، ومن ذلك أن الشيخ علي يوسف كان يكثر من تلقيب مصطفى كامل بالطائش ؛ ويتخذ لهذا اللقب شفيعًا من حساب الجمل لموافقة مجموع الحروف في كلمة طائش واسم مصطفى كامل بذلك الحساب .. وكنت يومئذ أدرس حساب الحروف والطوالع فيما كنت أحاوله من فضول الاستطلاع ، فلفقت لعلي يوسف لقبًا مساويًا لاسمه بذلك الحساب ، وهو لقب « نوري » بفتح النون أو ضمها على السواء ، ومعنى نوري بالفتح أنه من شذاذ الآفاق المعروفين باسم النور .. وكان هو متهمًا بالانتساب إليهم كما كان يقال عنه إنه من « المسيانية » الدخلاء من ناحية جده الأول .. وواجهه خصومه في قضية الزوجية بهذه

الدعوى أمام القضاء الشرعي ، ليثبتوا أنه غير كفء للزواج من بنت « السادات » ويؤيدوا بذلك طلب التفرقة بين الزوجين .

• • •

ثم حدثت المعركة القلمية التي جمعت الرأي العام كله على تعدد ألوانه وأذواقه في صف واحد مع الشيخ علي يوسف ، والتي سمع فيها صاحب المؤيد هتافًا بحياته بعد عشر سنوات مضت من أيام قضيته التي شهرت باسم قضية « التلغرافات » وظل فيها الشيخ علي « بطل الساعة » في حومة الصحافة بضعة شهور ، وقد كان الهتاف بسقوط « المؤيد » وحياة « اللواء » يتكرر ويتواتر في المظاهرات الشعبية حتى أصبح على حد تعبير الظرفاء من أولاد البلد كليشيهات مسموعة ، وحتى اضطر الشيخ إلى التسليم بها وعمد إلى الشعر لتعزية نفسه ومكايدة خصومه ، كلما واجهوه بمظاهرة من مظاهراتهم ، فنظم هذين البيتين :

يدعــــون للمــرء بالحيـــــاة لأنـــه يعــد في الأمــــوات

ويهتفـــون : يسقـــط المؤيـــد لأنـــه نحو السمــــاء يصعـــد

أما المعركة القلمية التي عادت الهتاف بالحياة والتحية إلى مسمع الشيخ ، فهي معركة عنيفة دارت بين الصحف ورجال السياسة حول توديع اللورد كرومر بعد خطابه الذي ألقاه على ملأ من كبار الموظفين وأصحاب المقامات « الرسمية » من المصريين والأجانب والشرقيين ، ولعل الشيخ علي يوسف قد صعد إلى سمائه » في هذا الأفق لأنه « فتى الكتابة « الدبلوماسية » ولأنه استطاع بالأسلوب « الدبلوماسي » أن يجزل اللورد كرومر وحده في ذلك الموقف بين مختلف التيارات السياسية ، واستطاع أن يكون دبلوماسيًا وحماسيًا إلى الغاية في دفاعه عن ولي نعمته « الخديو عباس الثاني » خصم كرومر اللدود .

كتب الشيخ علي مقاله في السابع من شهر مايو ١٩٠٧ وهو اليوم التالي لإلقاء الخطاب ، فاشترك في التهليل له والإعجاب به قراء الصحف من كل طائفة وصبغة ومن كل مشرب ونزعة ، وأهدى إليه « جوهري » كبير محبرة من الفضة الذهبية : وازدحمت رحبة « المؤيد » بالمتظاهرين والهاتفين من الطلاب وجمهرة الشباب .. ومنهم أزهريون ، ودرعميون ، وحقوقيون ، وموظفون .. وتلقى « المؤيد » رسائل التأييد ممن لم يكن يؤيده أو يطيق به من قريب أو بعيد ، فأصبح « المؤيد » لفظًا ومعنى ، وكان « أولاد البلد » يأبون عليه أن يكون كذلك إلا بالقاف القاهرية.. لأنه « يقيد » قلمه بقيود الأمير..

وفي هذه المعركة كتبت للمؤيد كلمة التأييد التي كنت في المعارك السابقة أكتبها عليه ، وقلت عن تلك المقالة الطنانة إننا :

« تلوناها كلمة كلمة وسطرًا سطرًا ، فكنا كلما قرأنا كلمة أزالت تأثير لمحة من تلك الخطبة ، وكلما تلونا سطرًا انهزم سطر منها ، حتى جئنا على آخرها ، فكأنه حل ثقل وارتفع ، أو هم جهام وانقشع ، ولا غرو أن كانت مسهبة طويلة ، فإنها تذيب سابًا كالقار أسود لا يصهر إلا على أشد حرارة النار » .

لقيت صاحب المؤيد في مكتبه للمرة الأولى والأخيرة لأسلمه تلك الكلمة ، فاستقبلني مع رهط من الزوار والمحررين ، ورأيته يكتب وهو يحمل الورقة في يده ويلتفت إلى محدثيه لحظة ثم يعود إلى ورقته يسطر فيها كأنه لم ينقطع عنها ، ثم وضع الورقة على المكتب بعد الفراغ منها ، وسألني : هل أنت طالب ؟..

ولم أكن يومئذ طالبًا ولا موظفًا بل كنت بين طالب وموظف ، لأنني كنت أستعد للعمل بمصلحة التلغراف وأتلقى دروسًا في الكهرباء والكيمياء بمدرسة صناعية ، فقلت : بين طالب وموظف !

فتبسم واستفسرني ، وأوجزت له تفسير هذا العمل الجامع بين طلب العلم والوظيفة ، وقد نبهته ذكرى « التلغرافات » على ما يظهر فأطل على التحدث بي ، وعاد يسألني : وما الذي أعجبك في المقال ؟ .. فقلت : أعجبني المقال كله ، وبخاصة موقع الاستشهاد فيه بهذين البيتين ، وهما من شعر أبي العلاء :

ربما أحرج الحزين جوى الحز ن إلى غير لائق بالسداد

مثلما فاتت الصلاة سليمـ ان فأنحى على رقاب الجياد

فقال وهو يقطع الكلمات : إذن أنت طالب .. وموظف .. وأديب .. ووعدني بنشر الكلمة فنشرها بهذا التقديم « من حضرة الفاضل صاحب الإمضاء » :

وكان الإمضاء « ع . م . العقاد » على عادة التوقيع بأوائل الحروف في المجلات الأوروبية التي كنا نقرؤها

وتشاء المعارك القلمية – والحرب سجال كما يقال – أن يقرأ الشيخ بعد ذلك هذا التوقيع تحت مقال عنه بعيد جدًا من مقالات الثناء والتأييد لأنني كنت أوقع به كتابتي في صحيفة « الدستور » صاحبها الأستاذ محمد فريد وجدي ، وفيها كتبت وصفًا مجملاً للمظاهرة

مالية » التى لقيها الشيخ بدار الجريدة بعد سنة من تاريخ خطاب اللورد كرومر ، ولها قصة نوجزها فيما يلى :

« شرع المحتلون بعد عهد كرومر فى تنفيذ سياستهم الجديدة التى سميت بسياسة الوفاق بينهم وبين الخديو عباس ، فكف المؤيد عن انتقادهم ومحاسبتهم ، وتجاوز المجاملة أحياناً إلى الرضا والتأييد ؛ وسرت فى الأمة يومئذ حركة قومية تطالب الأحزاب جميعاً بتعيين موقفها من السياسة الجديدة ، فأعلن الأستاذ الجليل – أحمد لطفى السيد – عن خطاب شامل يلقيه بدار « الجريدة » فى شارع غيط العدة ، بياناً لموقف حزب الأمة من السياسة المصرية على العموم مايو سنة ١٩٠٨ » .. واكتظت دار الجريدة بمئات من المستمعين بينهم كثير من الطلبة والشبان ، ونجح الأستاذ الجليل فى اجتذاب الأسماع إليه ، ولكننى سمعت إلى جانبى همهمة متواصلة فى أثناء إلقاء الخطاب ، ورأيت خمسة أو ستة من الشبان يخرجون ويعودون ومعهم قراطيس ملأى بالطماطم والبيض ، ومع اثنين منهم حمائم يخفيانها تحت سترتيهما ، وهما متحفزان

« وكان المقصود بهذه الحركة كلها إبراهيم الهلباوى بك ؛ ولكنهم تناولت الشيخ على يوسف اتفاقاً حين رآه الحاضرون فى الاجتماع ، ولم يكن منظوراً أن يشهده لما بين حزبه وحزب الأمة من الخلاف الشديد .. فما هو إلا أن فرغ الأستاذ لطفى السيد من خطابه حتى انطلقت فى جو المكان تلك الحمائم وانطلق معها هتاف كالرعد بسقوط جلاد دنشواى .. ثم تلاه الهتاف بسقوط المؤيد وصاحبه أو سقوط سياسة النفاق ، ونال الرجل من قذائف الحاضرين يومئذ أذى غير قليل .. وقد وصفت الحفلة فى صحيفة الدستور فقلت إن مظاهرة غيط العدة نسخت مظاهرة قضية التلغرافات ، وإن الشعب المصرى إذا كان قد حيّى صاحب المؤيد عند الحكم ببراءته فى تلك القضية فقد سحب تحيته الأولى بهذه الثورة عليه ..

« ولقيت الشيخ على يوسف مرة أخرى فى تلك السنة بفندق شبرد على الأرجح ، حيث أقيمت حفلة توديع لوفد من أعيان البلاد اعتزموا السفر إلى لندن لإقناع وزارة الخارجية بتوسيع نصيب مصر من الحياة النيابية ، وكان هذا الوفد مؤلفاً من إسماعيل أباظة باشا ومحمد الشريعى باشا ومحمود سالم بك والسيد حسين القصبى وعبد اللطيف الصوفانى بك وناشد حنا بك والدكتور إبراهيم الشوربجى وبعض المترجمين والمحررين .. وحضرت هذه الحفلة منتدباً من جريدة « الدستور » ولم تكن راضية عن مخاطبة الإنجليز فى مسألة الدستور . ولكن الصحيفة ندبتنى لتسجيل ما أراه فى تلك الحفلة أو الوليمة على الأصح ، لأنها كانت مقصورة على من

ذكرنا من الأعيان وبعض الصحفيين ومنهم الشيخ على يوسف عن « المؤيد » وفارس نمر باشا عن « المقطم » وآخرون .

« وفى تلك الوليمة بدا لى أن صاحب المؤيد لم ينس كلمتى عنه فى التعليق على اجتماع دار الجريدة فسألنى : أنت ع . م . العقاد ؟ .. قلت : نعم .. قال : هل بينك وبين السيد حسن موسى العقاد قرابة ؟ .. قلت : هى مشابهة أسماء .. فضحك ضحكة غير خالصة وقال : بل لعلها مشابهة فى غير الأسماء أيضاً .. وهو يعنى – على ما اعتقدت – ثورة السيد حسن موسى وتمرده ، لأنه كان فى أكثر أحواله منضوياً عليه من المؤيد وشيعته الساسية » .

ولا أذكر أنى قابلت الشيخ فى مجلس من المجالس الخاصة غير هذه المقابلات أكثر من مرتين ، يحضرنى فى إحداهما حديث عن الرتب والنياشين بمكتب أحمد زكى باشا السكرتير العام لمجلس النظار ..

وكنا مع زملائنا الصحفيين فى طوفتنا اليومية بين « نظارة » الداخلية ومجلس النظار لتسلم نشرات الأخبار الرسمية التى تطبع فى الدواوين وتوزع على مندوبى الصحف فى مواعيدها اليومية ، وقد نشر فى ذلك اليوم خبر الإنعام على أحمد زكى باشا برتبة من رتب التشريف أظنها الباشوية ، فخطر لنا – نحن زمرة الصحفيين – أن نمر به مهنئين باعتباره زميلاً كبيراً فى صناعة القلم ، فوجدنا عنده الشيخ على يوسف يهنئه ويحدثه فى مسألة من مسائل المجلس ، وكان معنا الأستاذ جورج طنوس مندوب « الوطن » لصاحبه جندى إبراهيم ، وكان جورج مشهوراً بين زملائه وعارفيه باللجاجة وفلفلة الحديث ، فتطوع للنيابة عنا وافتتح التهنئة عاتباً السكرتير العام على النعمة التى كانت مأمولة فى ذلك المقام ، فجعل يقول له بصوته الجهورى كلاماً فى هذا المعنى : « إن الرتبة تزدان بك ولا تزينك ، وإن الباشوية لقب يفخر به صاحب العزبة وصاحب الثروة من المال والعقار ، وأما صاحب القلم فهو يذكر باسمه – أحمد زكى – وكفى ، وبهذا نناديك أيها الكاتب الكبير ولا نزيد .. » .

وتاصعه الشيخ على متململاً ، وتوقعنا أن يقول شيئاً يرد به على تهنئة الزميل اللجوج لأكثر من سبب .. فإن رجلاً يعلم الناس أنه لسان حال القصر يأبى له « دوره » السياسى ، إن لم تقل شعوره النفسانى ، أن يوصف أمامه إنعام الأمير بأنه تحصيل حاصل وناقلة من النوافل التى لا يحفل بها أصحاب الأقلام ، وإذا سكت على يوسف – لسان حال الأمير – عن هذا الاستخفاف بألقابه ونعمه فمن العسير أن يسكت عنه على يوسف « موزع » الرتب والنياشين .. إذ كان للرتب والنياشين موزعون معروفون يبيعونها بأسعارها من رتبة الموميران الرفيعة بألف جنيه

إلى رتبة البيكوية من الدرجة الثانية بشهادة أو أربعاثة جنيه ، لأن بخل عباس الثانى كان يأبى عليه أن يسخو بالإعانة من ماله على كبار الأعوان أو يسخو بها على إدارة الصحف الكبرى كما احتاجت إلى المال الكثير ، وكانت لصغار الصحفيين إعاناتهم من « ميزانية المعية السنية » ومن هبات ديوان الأوقاف ..

أما « المشروعات الصحفية الواسعة » فقد كان المعول في سداد نفقاتها على أثمان الرتب والنياشين ، وكان لها موسمها كل عام في مناسبات الأعياد والمهرجانات الخديوية ، فكانت الحصة الأولى من هذا المحصول السنوى للشيخ على يوسف وأعوانه في الإسكندرية وعواصم الأقاليم : وكان سكوت الشيخ عن تهوين شأن هذه « السلعة » على مسمع منه غير معتمد ولا منتظر ، ولعل صاحبنا جورج طنوس لم يقل كلمته تلك إلا وهو يتعمد إثارة الشيخ واستفزازه للرد عليه ، ولم يمهله الشيخ – فعلاً – أن يتم كلامه إلى نهاية ثرثرته التى لم تكن لها نهاية . فاستوقفه مبتسمًا وقال وهو يخاطبه خطاب من يعرفه ولا يجهل عاداته بين زملائه : « مهلاً .. مهلاً .. يامعلم .. إن الرتبة تقدير من ولى الأمر وتقرير لفضل صاحبها بين من يعرفونه ومن يجهلونه . وهل ترفضها يامعلم جورج ؟ .. » .

ثم التفت إلى السكرتير العام فأعاد عليه التهنئة وهو يقول : سيهنئك أصحابنا هؤلاء بمزيد من الرتب إلى أعلاها وأرفعها إن شاء الله ! » .

• • •

أما مقابلات الطريق فقد كانت مركبة الشيخ تصادفنا أحيانًا في طريقنا مع أصحابنا من العباسية حيث أسكن إلى الحى الحسينى حيث نلتقى بأكثر إخواننا الأدباء ، أو إلى مقهى عابدين إلى جوار مدرسة المترقى القديمة حيث كنا نلتقى بالكثير من الطلاب المتخرجين وغير المتخرجين ، وليست هذه المقابلات العرضية وسيلة من وسائل التعريف نعتمد كثيرًا في كلام نكتبه عن الشيخ كما عرفناه ، ولكن إحدى هذه المقابلات ربما عرفتنا بالشيخ في خبيئة من خلائقه التى أثرت عنه طوال حياته وهى خليقة « المحافظة » على السمت القديم كما نشأ عليه ، وربما عرفتنا مقابلة أخرى بهوى من أهواء نفسه أو أهواء قلبه التى كادت تشغله كما شغلته المحافظة على شارة السمت والوقار .

رأيناه مرة فى طريقه إلى قصر عابدين فى يوم من أيام التشريفات فرأينا عجبًا من أزياء الرتب المدنية ، لأنه حافظ على العمامة مع كسوة التشريفة التى تؤهله لها رتبته الرفيعة ، ولم يشأ أن يغير عمامته كما غيرها الكثيرون ممن يلبسون كسوة الباشوية وكان يبدو وهو جالس كأنه يلبس

العمامة على « بدلة الأفندية » من لابسى السترة والبنطلون ، وهو زى كان يترى به فى القاهرة أبناء طائفة واحدة هى طائفة عمال شركة النور الذين كانوا يخرجون إلى الشوارع فى المساء بسترتهم الملونة وسراويلهم الافرنجية لإشعال مصابيح النور ، وقد سخر إخواننا الشبان بهذه المفارقة وتنادروا بها غير قليل ، ولكننى فى الواقع أعجبت بالرجل لهذه المحافظة وهو يتحدى العرف والسخرية ، وأحسست فيها عصامية تأبى أن تفصل مظاهر الألقاب بينها وبين ماضيها ..

ومرة أخرى رأيت الشيخ مع السيد توفيق البكرى قادمين فى مركبة واحدة من قصر السيد بالخرنفش إلى ناحية باب الحديد ، فإذا هما فى زى واحد من ملابس التزهة الفضفاضة على غاية من الأناقة التى يقصدها القاصد من لابسى هذا الزى التقليدى فى القاهرة الفاطمية ! .. وزاد المشابهة فى لون الكساء وتفصيله وهندامه أن الشيخ والسيد كانا نمطًا واحدًا فى البنية والقامة وصورة الوجه الدقيق والرأس الصغير ، فكأنما كان الشيخان فى تلك « الطلعة » الانيقة فتيين من فتيان الحسينية الظرفاء يتبادلان المجاملة بهذه المزاملة « الودية » فى معرض من معارض الصبوة .. ولكنها صبوة فى حدود « التقاليد » على سنة « المشيخة » من أئمة الطريق .. وكلا الرجلين كان من أبناء « الطريق » فى مقام الرئيس أو مقام المرشح للرئاسة !

ولا ننسى أن « قصة الزوجية » قد عملت عملها المنتظر فى الاندفاع بالشيخ إلى هذه الطلعة العاطفية

إن السيد البكرى كان طراز القدوة المختارة بين أبناء طبقته وزيه فى الوسامة والقسامة ووجاهة المركب والشارة ، وقد طمح الشيخ إلى البناء بكريمة الكرام من بيت السادة الوفائية ، فهل تطيب نفسها أن تراه ، وتراه أترابها معها ، فى صفة دون صفة الطراز المرموق من سلالة السادة البكرية ؟ !

على أنها فتنة « عاقلة » لم تجاوز حدودها التقليدية فى نطاق المشيخة كما تقدم . ولم يسلم حافظ إبراهيم من غلو الشعر حين قال فى وصف تلك الصبوة من الشيخ الكهل أنه :

أتاه الغرام بسن الشيوخ فجن جنونًا ببنت النبى

فإن الصبوة لم تخرج الرجل قط عن سمته الذى طبع عليه طبعًا وتكلف ما لم يطبع عليه منه تكلفًا طويلاً ، وما كان لمثل تلك الصبوة أن تنسى الرجل كل ما كان يشغله فى بواكير شبابه إلى خاتمة حياته : وهو شاغل « المقام » الملحوظ بين ذوى الشرف الموروث من علية السادة وذوى القدر والمهابة ، وربما كان تحقيقه التأصل فيه هو الذى ألزمه . على غير اختيار منه ، دبدن

المحافظة إلى حد الاحتجاز ، أو الاحتجاز إلى حد الانزواء ، أو الانزواء إلى حد الاستكانة التي لم تفارقه بعد ارتفاعه بالجد والجهد معًا إلى حيث أراد من دنياه .

كتب الأمير شكيب أرسلان في عدد يناير من المقتطف (١٩٢٧) في روايته لبعض ذكرياته عن صاحب المؤيد :

« كنا نجتمع دائمًا في مجلس المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وأكثر ما نسمر عند صاحب الدولة سعد باشا زغلول وهو يومئذ سعد أفندي زغلول المحامي الشهير بمصر ، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الخلقة اسمه الشيخ علي يوسف ، يأتي فيجلس في الآخر ويلبث أكثر المجلس ساكتًا مستمعًا ونكاد نرثي له لضعفه وسكنته . . » .

ولا نستغرب أن يرى « علي يوسف الشاب » في إبان فقره وانقباضه وخفاء ذكره على سمة توصف بالمسكنة التي يرثي لها من يراه ، لأن الناظر إلى صاحب المؤيد بعد ارتفاع الشأن وذيوع الصيت كان يستطيع أن يصفه باستكانة تشبه المسكنة إذا نظر إليه وهو صامت ساكن بين الجلساء والنظراء ، لولا أن الاستكانة صفة لا يوصف بها المرء وهو يملأ الدنيا بما يقوله وما يقال فيه !

وإنما هو مزاج أصيل فطر عليه هذا العصامي الناجح وعرفه من ذات نفسه فعرف ما خلق له وما لم يخلق له من أول مسعاه ، فلم يضيع جهده عبثًا في غير ما يستطيع .

إنه خلق لكل ما يبلغ المرء بالذكاء والحيطة ولباقة القلم وحضور الخاطر وحسن التفاهم مع القلاقل المعدودين من النافعين والمنتفعين ، ولم يخلق للسيطرة الغالبة في جلبة الزحام ولا للعظمة المزهوة بالطنين والخيلاء ، فانتهى إلى غايته وهو يبدو في زوينه كالقابع المستكين ، لولا أنه يقدر على خطوب لا يقدر عليها القابع المستكين .

مصطفى كامل

مصطفى كامـــل

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤ ، وكان عمره ثمانى سنوات عندما احتل الجيش الإنجليزى القلعة فى الحى الذى نشأ فيه..

سنوات ثمان تسمى بحق سنوات الثورة . ولكنها أحق من ذلك أن تسمى سنوات الخطابة ، لأن الثورة قد اشتعلت اشتعالها الأكبر قبل ختامها . أما الخطابة فقد كانت فى أوجها عند مولد الزعيم ، وبلغت قمة ذلك الأوج عند دخول جيش الاحتلال..

كان حى الصليبة الذى ولد فيه الزعيم الخطيب أحد الحيين الكبيرين اللذين تنافسا على الوطنية القاهرية عدة أجيال ، وكان هذا الحى أحفل بمعالم الحركة الوطنية من الحى الآخر الذى كان ينافسه «الفتوة» على عهد الحملة الفرنسية ، لأنه حى القلعة التى كانت مسكن الوالى ثم صارت معسكر الجيش المحتل وبقيت إلى جوارها ساحة الغاص القومية من ركب المحمل إلى ركب الولاية بعد مبايعة الأمير . إلى ركب العروض العسكرية

وكانت مساجد هذا الحى أعمر المساجد بالخطباء الثوريين ، ولم يكن فى القاهرة مسجد أعمر منها غير الجامع الأزهر فى تلك الفترة . وهو فى المكان الأوسط بين طرف الصليبة من ناحية وطرف الحسينية من الناحية الأخرى .

كان مصطفى كامل فى الخامسة أو السادسة يوم كان «عبده الحمولى» يسأل : أين نسمعك هذه الليلة ؟ فكان يجيب مازحًا : أنا الليلة سهران مع عبد الله نديم فى فرح آل ملاذ..

ولم يكن «عبد الله نديم» وحده خطيب هذه الحفلات ، بل كان معه عشرات الخطباء المعممين والمطربشين يتداولون منابر المساجد والأعراس ، ممن لم يشتهروا شهرة عبد الله نديم .. وكان يصحب أستاذهم الأكبر تلميذه الناشىء «مصطفى ماهر» فى سن تكبر سن مصطفى كامل ببضع سنوات : وهو التلميذ الذى قال عن النديم مرة إنه أخطب من «غلادستون» ، لأنه تكلم فى أربعة موضوعات وغلادستون لا يحسن أن يتكلم فى أكثر من موضوع !

وانقضت سنوات الصدمة الأولى بعد الاحتلال فى ركود من حركة الخطابة ، وفى ركود من كل حركة سياسية أو اجتماعية ، ولكنها كانت بمثابة فترة الانتقال بين الخطباء الأول

ولاح لي أن «الباشا» لم يسترح لهذا التعقيب، ولم يتقبل منه الإشارة إلى خطئه في اختياره! وإن لم يكن في الأمر غير مكاهة تتلاقى فيها التخطئة والتصويب.

صورة مصطفى كامل التي بقيت في خلدي مدى الحياة هي الصورة التي انبعثت فيه من أثر هذه الرؤية الأولى..

حركاته كلها كانت تنم على إحساسه بدقة تكوينه، يبدو ذلك من شموخه وزهوه كما يبدو من طول طربوشه وارتفاع كعبه، ومن سترة «البنجور» التي كانت لا تلائم سنه وهو دون الثلاثين..

وهذا البيت من قصيدة أبي العلاء – أليس فيه تعريض بالأجسام التي تسد عين الشمس فتحجب الضياء، ولا تجود بقطرة من الماء؟

وربما شغلته دقة تكوينه بسمت الوقار، فلم تسمح له بمجاراة روح الفكاهة ولا بسماع الفكاهة على حسابه. والفكاهة التي فيها تخطئة لاختياره.

وقد كان من شأن المواقف الأخرى التي اقتربت فيها من شخص مصطفى كامل أن تؤكد هذه الصورة ولا تمحو عندي ظلاً من ظلالها..

كنت أحرر صحيفة «الدستور» مع صاحبها الأستاذ محمد فريد وجدي، وكان الأستاذ وجدي أحد الأعضاء الذين دعوا إلى تأسيس الحزب الوطني قبل وفاة مصطفى كامل ببضعة أشهر، فلما انتهى رئيس الحزب من عرض برنامجه اقترح إرسال تبليغ بالبرق إلى وزارة الخارجية البريطانية لإعلامها بتأسيس الحزب الوطني ومطالبتها بالجلاء فأقره الأعضاء جميعاً على اقتراحه ماعدا الأستاذ «وجدي» الذي كان من رأيه أن يعمم إرسال التبليغ إلى جميع الدول، دفعاً لشبهة «المركز الخاص» الذي تدعيه بريطانيا العظمى باحتلالها هذه البلاد، فأبى مصطفى تعديل اقتراحه وأصر على طلب قبوله بصيغته التي عرضها بها على الأعضاء. وكاد أن يقاطع صاحب «الدستور» فلم يتبادلا الزيارة بعد ذلك. إلى أن توفي مصطفى فخرج صاحب «الدستور» من قطيعته ورثاه بمقال حزين جعل عنوانه: «مات أكبر رأس في مصر. إنا لله وإنا إليه راجعون».. فلم تزل كلمة «أكبر رأس» تعلق بذاكرتي منذ ذلك اليوم إلى أن ذكرتها في كلمتي عن «الملك أحمد فؤاد» بمجلس النواب: أكبر رأس تحطم الدستور..

* * *

كنت أحرر صحيفة الدستور مع صاحبها كما تقدم، وكان صاحبها عضوًا في الحزب

الوطني. والصحيفة لسان من ألسنة هذا الحزب القليلة في ذلك الحين بين الصحف اليومية والأسبوعية.. كانت «الدستور» لسان الحزب الثاني و«اللواء» لسانه الأول، ولكني لم أشترك في الحزب بعد إعلان تأليفه كما اشترك فيه زملاؤنا الصحفيون. ولا يخطر لي الآن، ولم يخطر لي قبل الآن أن تلك الصورة التي ارتسمت في ذهني من لقاء مصطفى كامل للمرة الأولى هي التي أخرتني عن سبب الاشتراك في حزبه، فلم يزل مصطفى كامل أحب المجاهدين إلينا في حومة القضية الوطنية بين أصحاب الصحف وأعلام القضية المصرية ومذاك. وكنت أنتصر له إذا نشبت المعركة بينه وبين خصومه كما تقدم في الكلام على الشيخ علي يوسف – صاحب «المؤيد» – وبعد أن عرفت من حقائق الدعوة الوطنية وحقيقة نفسي ما لم أكن أعرف أستطيع أن أقول إن اختلاف الطبيعة لبعيد قد رسم أمامي مثالاً للزعامة المصرية غير هذا المثال. فمصطفى كامل كان من أصحاب الطبيعة الخطابية الشعورية وكانت طبيعتي الأدبية والفكرية أقرب إلى وأحرى بالاقناع، فضلاً عن نفور أصيل عندي من التقيد بالحزبية في الرأي أيا كان مقصدها في السياسة أو الأدب أو الثقافة على الإجمال.

واختلاف الطبيعة هو الذي جعل لي سبيلاً في المسائل القومية غير السبيل التي كان يختارها مصطفى كامل في كثير من مواقفه العامة..

فلم يعجبني موقف المصري المتوسل أمام تمثال فرنسا يناجيها ويناديها:

يا فرنسا يا من رفعت البلايا ... عن شعوب ترها ذكراك
أنقذي مصر إن مصر بسوء ... وارفعي الجيل من مهاوي الهلاك

ولم يكن أدب فرنسا، ولا ما اطلعنا عليه من تاريخ ثورتها، داعياً عندنا للثقة بنجدتها واستعدادها لإنقاذ مصر أو سواها، ولم تكن طبيعتي التي تأبى طلب المعونة من القادرين عليها كما تأبى طلبها من العاجزين عنها مما يقتضي إمكان التعويل في قضية الاستقلال على معونة دولة قط، من الدول الكبار أو الصغار.

ولهذا أيضًا لم يعجبني تعليق الاستقلال المصري بالسيادة العثمانية. لأننا مع عطفنا الدائم على الدولة العثمانية في مكافحتها للتعصب الأوربي لم نكن نفهم أن هذا العطف ينتهي بجهادنا إلى الرضا باستقلال تشرف عليه سيادة دولة أخرى، وقد كان مصطفى كامل يمزج كثيرًا بين المصرية والعثمانية حتى في أحاديثه الخاصة. كما قال في جوابه لسؤال الجنرال «بارنج» شقيق لورد كرومر: هل أنت مصري أو عثماني؟ فكان جوابه: مصري عثماني. وعجب الجنرال بارنج فعاد يسأله: كيف تجتمع الجنسيتان؟

قال مصطفى : ليس فى الأمر جنسيتان ، بل فى الحقيقة جنسية واحدة ، لأن مصر بلد تابع للدولة العلية ، والتابع لا يختلف عن المتبوع فى شىء من أحكامه .

ولقد أوشكت ثورة مصطفى كامل أن تنحصر فى الثورة على الاحتلال ، ولا تنظر إلى تبديل شىء من النظم السياسية أو الاجتماعية .. فلم يكن فى نزعات نفسه ، ولو قبس ضعيف من الثورة على المساوئ الخديوية . ولم يختلف فى كثير ولا قليل عن أبناء عصره فى تعظيم الألقاب الرسمية واحتبارها « إنعامات » مشرفة لمن يتلقاها ، بل كان على صلة بالقصر الخديوى فى التوسط بين طلابها وبين الأمير لتوزيعها على من يتطلع إليها ، ولا شك أنه كان أنظف الساسة الذين كانوا يومئذ يتوسطون بمثل هذه الوساطة ، لأنه كان ينفق ما فضها على خدمة الدعوة الوطنية لحاجته إلى المال فى هذه الدعوة وبخل الخديو بالمال لكثير أو القليل بغير هذه الوسيلة ، ولكن إيمان مصطفى كامل بشرف هذه الرتب والألقاب ربما كان أدعى إلى النقد من وساطته فى توزيعها ، فقد بلغ من إيمانه به أنه لم يصدر « اللواء » يوم جاءه خبر الإنعام عليه بالباشوية من دار الخلافة إلا بعد تغيير « الكليشه » الذى كان اسمه فيه متبوعًا بلقب الباشوية .

جاء فى الجزء الثالث من مذكرات أحمد شفيق باشا وهو أحد رؤساء الحاشية الخديوية :

« إن الرتب أصبحت كالسلع السهلة : وكان لهذه التجارة وسطاء كثيرون ، منهم الشيخ على يوسف ، وحسين بك زكى ، وأحمد بك العريس ، وإبرهيم بك المويلحى وهو مقيم بالآستانة يأتى كل شتاء لأخذ بضاعته من مصر ، وأحمد شوقى بك الشاعر ومصطفى كامل الذى كان ينفق ما يأخذه فى الدعاية لقضية مصر . » .

ولا شك فيما قاله صاحب المذكرات من تخصيص مصطفى كامل بين سماسرة الرتب والباشين بالإنفاق من منافعها على الدعاية الوطنية ، ولا سيما الدعاية فى العواصم الأوربية ، ولكن حرص « الباشا » على الوجاهة التى لا تقل عن وجاهة الأمراء ربما كلفته هناك أضعاف نفقة الدعاية .

ولم تخف دخائل هذه الأحوال على طائفة الصحفيين ، والمشتغلين بالسياسة الوطنية ، ولكنها لم تغض من قدر الزعيم الشاب ، ولم تشكك أحدًا فى إخلاصه لدعوته وغيرته على قضية بلاده ، وبلوغه بالشعور الوطنى مبلغ الهوى الذى يملك على العاشق لبه ويجرد هواه للأوطان من تقدير الوطن بحساب المبادئ والواجبات أو حساب المطالب والآمال ، فقد كان مصطفى كامل من أكثر المجاهدين شفيعًا إلى قلوب أنصاره وخصومه ، لنزاهة أخطائه جميعًا من شائبة الغرض الملتوى والنفاق الذميم .

إن الزعامة السياسية لا تخلو من أخطاء فى الحياة العامة أو الحياة الخاصة ، وربما كانت زعامة مصطفى كامل أقل الزعامات خطأ فى أوائل دعوتها . ولست أذكر أننى تبينت هذه الأخطاء أو تبينت غيرها من الأخطاء السياسية بحثًا وتفكيرًا وإمعانًا فى تحقيق المطالب الوطنية وتحقيق أساليب العمل لها والوصول إليها . فإن هذا البحث جهد لا يطيقه عقل صبى فى الخامسة عشرة أو شاب فيما دون العشرين وهى سنى يوم عملت فى الصحافة اليومية ؛ فلا أذكر – إذن – أنى أحجمت عن الاشتراك فى حزب مصطفى كامل بعد البحث المفصل والموازنة الواعية بين مقاصد الزعامات السياسية وطرائق الزعماء فى ذلك الحين ، ولكن الذى أذكره جيدًا أننى كنت أقرأ مقالات مصطفى كامل وأسمع خطبه فأحمد له غيرته وأعجب بصدقه فى جهاده . ولكننى أرانى أمام مسخ من الكتابة والقول غير المنهج الذى أتلقى منه رسالة الفكر والعاطفة وتستجيب إليه بديهتى المتطلعة إلى الوعى والمعرفة ؛ فإن ذلك الأسلوب « الخطابى الشعورى » الذى كان له أبلغ الأثر فى جمهور مصطفى كامل لم يكن هو ذلك الأسلوب المختار لدى عهدته فيما اطلعت إليه من كلام مقروء أو كلام مسموع .

ولعل أشهر الأمثلة للأسلوب « الخطابى الشعورى » الذى كان ذريعة التأثير الكبرى فى خطب مصطفى كامل قوله فى خطبة زيزينيا الكبرى وهى أقوى خطبه وآخرها قبل وفاته إذ يقول :

« بلادى .. بلادى .. لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يامصر ... »

فإن هذا الإطناب وما شابهه لا يعطينى ما أتطلبه من الإقناع ولا من العبارة الأدبية عن العواطف ، وإنما هو أشبه بدقات الطبل تكرر على وتيرة واحدة لتحتفظ بأعصاب السامعين فى طبقة مطبوعة من الانفعال والتنبه ، سواء كان هذا الانفعال للوطنية أو لغيرها من العقائد الشعورية .

وأحسب أن قدرة مصطفى كامل على هذا النوع من التأثير كانت تطغى على كل قدرة خطابية لديه ، ومنها القدرة على الإقناع .. فلم تبلغ قدرته على الإقناع فى كلام قرأته له أو سمعته عنه مبلغًا يسوقه إلى الإعراب عنه أو إعطائه نصيبًا من أسباب التأثير إلى جانب الحركة الخطابية الشعورية ، وأسميها « الحركة » لأنها فى الواقع أقرب إلى بواعث الحركة « اللاإرادية » من مجامع الأعصاب .

ولا يظهر ذلك فى الخطب كما يظهر فى الأحاديث الخاصة والمساجلات الشفوية ، فلم يكن

مصطفى كامل المتحدث مفتهًا للجنرال « بارنج » حين سأله هذا : هل هو مصرى أو عثمانى ؟ فقال له إنه مصرى وعثمانى معًا لأن التابع يشبه المتبوع فى أحكامه .. فماذا لو قال له الجنرال : ولكن التابع لا يحسن به أن ينتهى التبعية وأن « يتحمس » لها ويصر على ابقاء .. وقد يحمد من المتبوع أن يستبقى علاقته بتابعه ولا يحمد من التابع أن يستبقى تلك العلاقة برضاه .. ؟

وإنه لمن ضعف الإقناع أو يفوت الزعيم الوطنى المتحدث أن يجيب « بارنج » سائلاً : هل أنت إنجليزى أو بريطانى ؟ .. فكل جواب لهذا السؤال محرج للمجيب موافق للمصرى لعثمانى من وجهة نظره فى مناقشات السياسة مع البريطانيين الإنجليز.

وخلاصة ما بقى فى نفسى من أثر لهذا الزعيم المجاهد – كما عرفته – أنه كان نعم الزعيم على منهجه وسجيته ، ولكن زعامته كانت تتسع فى عصره – وبعد عصره – لزعماء آخرين على مناهجهم وسجاياهم ، لأن الوطنية المصرية كانت تشمل مصطفى كامل بكل ما احتواه من غيرة وحماسة ، ولكنه رحمه الله لم يكن يستغرق الوطنية المصرية بكل ما تحتويه أو ينبغى أن تحتويه . ٥

محمد فريد

يسرقها إليها الاحتفاظ بالسيادة على أمم البلقان . فكتبت فى مجلة « البيان » – سنة ١٩١٢ – مقالا بعنوان « مستقبل الدولة العثمانية » قلت فيه : « كذلك زلزلت الصدمة قلوب العثمانيين فيئسوا من الدنيا ، كأن أوربا هى كل الدنيا . ولو كانت الدولة العثمانية شجرة لا تنبت إلا فى أوربا لحق لهم ألا يرجوا منها بعد الآن ثمرًا . ولكننا شرقية المنبت : وهذه أرومتها لا تزال فى الشرق ، وما هذه الولايات الأوربية إلا فروع منها لا يميتها انفصالها منها . وقد كان يمكن أن يدور التاريخ دورة غير التى دارها فلا تتحول أنظار محمد الفاتح البتة إلى القسطنطينية .. » .

وهذا رأينا القديم فى مسألة السيادة العثمانية على الأمم الأجنبية ، فأحرى به أن يكون هو رأينا الأقدم فى مسألة السيادة على هذه البلاد .

لقد كنت أومن بهذه العقيدة وأنا أشد ما أكون غيرة على الدولة العثمانية واهتمامًا بماضيها وحاضرها ومستقبلها ؛ ومن أجل ذلك شغلت نفسى بقراءة مئات الصفحات فى ذلك التاريخ وأنا لا أعدو الرابعة عشرة ، ومن أجله كتبت ما كتبت عن مستقبلها لأنه – على ما اعتقدت – هو المستقبل الوطيد الذى تستقر فيه على أساس المنعة والتقدم والسلام .

وجئت إلى القاهرة وأنا أسمع اسم « محمد فريد » الوطنى المخلص ، ولا أنسى اسم « محمد فريد » العالم المؤرخ !

ولقيته مرات فى المجتمعات الكبيرة والمجتمعات الصغيرة ، ولكنى لم أتحدث إليه فى مجلس خاص غير مرة واحدة .

وكان ذلك فى مكتب صحيفة « الدستور » ..

كان هذا المكتب فى منزل بدرب الجماميز إلى جوار ديوان المعارف العمومية .

وكان الدور الأرضى منه مخصصًا للمطبعة ، والدور الثانى على قسمين : أحدهما مسكن الأستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك صاحب الدستور ، والآخر مكتب التحرير والإدارة ..

وكان الأستاذ وجدى بك يؤثر الكتابة فى مسكنه ، وقلما يجلس فى مكتبه إلا لاستقبال زائر أو مراجعة عمل من أعمال الصحيفة .. وإذا بـ « محمد فريد بك » يحضر إلى الدار ذات يوم على غير موعد ، فجلست معه نتحدث إليه ريثما يرتدى الأستاذ وجدى بك ويحضر للقائه ..

ولست أذكر تاريخ اليوم على التحقيق ، ولكنى أذكر أنه كان بعد أوائل شهر مايو سنة ١٩٠٨ لأن حديثى مع « سعد » رحمه الله كان مدار الكلام فى تلك الفترة ، وقد جرى حديثى

مع « سعد » حول ذلك التاريخ ، وكان أول حديث لصحفى مصرى مع أحد الوزراء المصريين .

قال « فريد بك » رحمه الله بعد أن عرفنى : « إنك لتحفظ لجارك فى درب الجماميز حق الجوار » .

فهمت ما أراد ، وقلت : « وهو حقيق بحفظ الجوار » .

ثم انتقل الكلام إلى تعليم اللغة العربية ، فقلت : إن تحويل التعليم من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية فى جميع مراحل التعليم لا يتأتى فى شهر واحد ولا فى سنة واحدة ، لأنه خطوة لابد أن تسبقها خطوة أخرى من تخريج المعلمين وتأليف الكتب أو ترجمتها .

ووافق ما قلت أن سعدًا قد أمر فى تلك السنة نفسها بتعيين المتخرجين من مدرسة المعلمين للتدريس فى المدارس الثانوية ، والابتداء بالتعليم باللغة العربية فى السنة الأولى من تلك المدارس ، ثم فى السنة الثانية .

ولاح لى أن « فريد بك » لا يصر كثيرًا على قوله فى هذا الموضوع ، ويحيل فيه إلى ما يذكره الشيخ عبد العزيز جاويش .

ثم حضر الأستاذ وجدى واستأذنت فى الذهاب إلى مكتبى . وانصرف فريد بك بعد قليل .

تلاحقت الضربات على ذلك الزعيم الكريم وذهب الاضطهاد الظالم بثروته العريضة ، وهى تقدر يومئذ بمئات الألوف .

وغادر الرجل القطر ليستطيع العمل فى حرية وطلاقة ، واستقر به المطاف فى عاصمة الدولة العثمانية .

وهنا تتجلى بطولة « فريد » ..

لقد كان « فريد » يناصر الدولة العثمانية وهو فى غنى عنها ، ولعلها هى التى كانت فى حاجة إلى مناصرته .. وكان رأيه فى علاقة مصر بالدولة العثمانية ذلك الرأى الذى أعلنه حزبه فى تقريره عن حوادث سنة ١٩٠٧ ؛ وهو أولاً « استقلال مصر كما قررته معاهدة لوندرة فى عام ١٨٤٠ وضمنته الفرمانات السلطانية ، ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على ، والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد » .

وهو أخيرًا « بذل الجهد لتقوية علاقة المحبة والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العلية » .

ولقد غادر « فريد » وطنه والعداء بينه وبين الخديو عباس على أشد ما يكون العداء . وقد علم وهو في الآستانة أن العسكريين من رجال الدولة يقصدون بالحملة على مصر في أثناء الحرب العالمية الأولى أن يغيروا نظام الحكم في البلاد المصرية ويتعرضوا لحقوقها وحقوق عرشها . على هذا وهو في قبضة أيديهم ، ولعله في حاجة ماسة إلى كل معونة منهم ، ولا ملاذ له من غضبهم في مصر لأنها موصدة أمامه ، ولا في أوربا لأنها تضطرب بأهوال الحرب في كل بقعة من بقاعها ، فلم يحفل بشيء مما يصيبه من جراء غضبهم ، وراح يعلنهم باستنكاره لخطتهم واحتجاجه عليهم ، وعلق في عروة كسائه شعار « مصر للمصريين » وقد كان أبغض شعار إلى القائمين بالأمر في الآستانة يومئذاك !

حدثني صديقي الفاضل الدكتور حسين همت بك – وهو ممن شهد تلك الأيام في الآستانة أن طلعت باشا – خطر رجال الدولة التركية في عهده – كان يمتعض كلما لمح ذلك الشعار الذي يحمله فريد وصحبه ، وكان يعجب لأنهم ينكرون على الترك حكم مصر ، وأنهم ليتكلمون التركية خيرًا مما يتكلمها أهل الآستانة !

ومع هذا ظل فريد وصحبه يحملون شعارهم ، ويعلنون استنكارهم حتى تعذر عليه البقاء في العاصمة التركية ، فهجرها إلى أوربا ليتنقل بين ربوعها على غير هدى ، ويشقى بتلك المعيشة الضنك في ظلمات تلك الغاشية العاتية ، بغير أمل وبغير عزاء ..

نعم المثل للوطنية الصادقة ذلك الشهيد الكريم ..

رحمه الله ، وخلد ذكراه ..

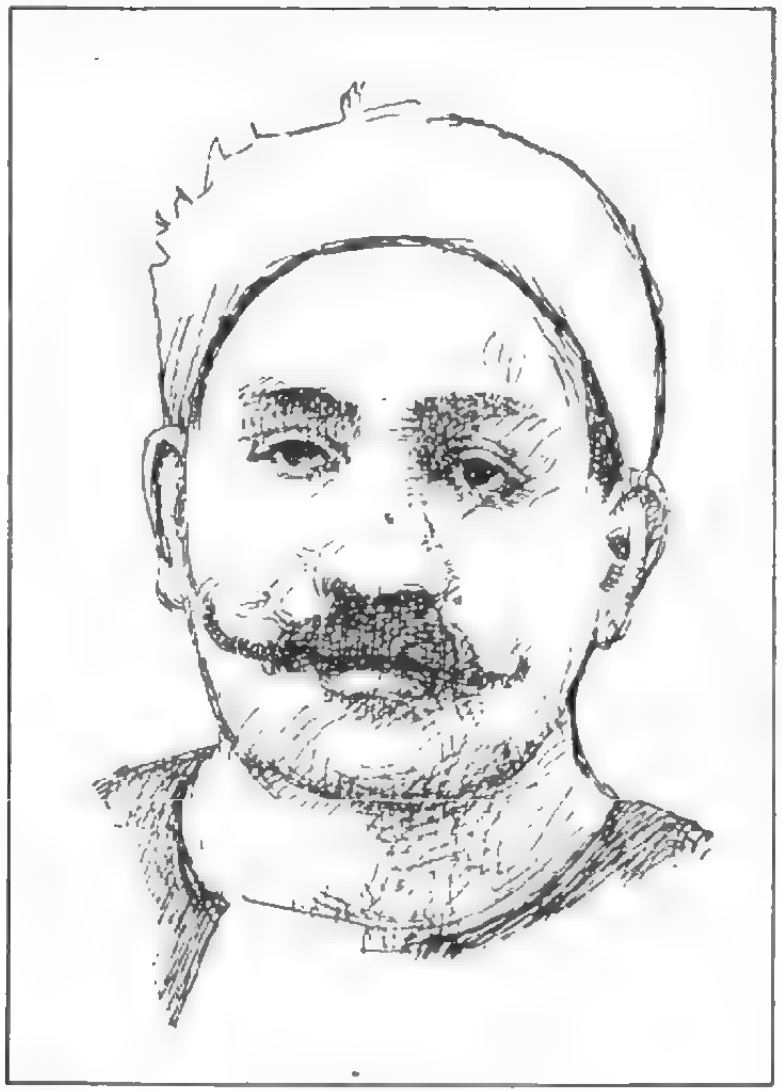

مصطفى لطفي المنفلوطي

مُصطفى لطفى المنفلوطى

□ فى فترة من تاريخ ثقافتنا ، وفى أيام لا تتجاوز أيام الحرب العالمية الأولى ، كان السائل يسأل : من أكتب الكتاب فى لغتنا العربية ؟ فيسمع الجواب من الكثرة الغالبة بين قراء تلك الفترة : إنهما اثنان : الشيخ على يوسف والشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى !

وربما حرص المجيب على تقديم لقب الشيخ على الاسم ، خلافا للعادة فى تداول أسماء المشهورين

وكانت عصبية لاشك فيها ، قد نسميها بالعصبية الأحزبية ، أو العصبية الحية ، أو العصبية الفخرية ، ولكنها – بأى الأوصاف وصفناها – وزنة لازمة لتصحيح التقدير فى موازين الأدب والأدباء ، فلا تصح هذه الموازين ولا تعرف الحقائق التى كمنت زمنًا وراء أسباب الإقبال والإعراض على مدارس الكتابة عندنا بغير الوقوف على معنى تلك العصبية .

ونسأل : ما معناها ؟

فلا نستطيع أن نقول إنها عصبية بين المعممين والمطربشين ، لأن السيد توفيق البكرى والشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ حفنى ناصف قبل ذلك كانوا من المعممين . ولكنهم لم يحسبوا فى عداد الزمرة التى تجنح إليها تلك العصبية وتخصها بالتنويه والتفضيل .

كذلك لا نستطيع أن نقول إنها عصبية السبق إلى موضوع الكتابة المختارة . فإن المويلحى الكبير والمويلحى الصغير قد سبقا معًا إلى الكتابة فى موضوع المقالة الإنشائية والمقامة الأدبية . وكتب كلاهما فى الصحف السياسية كما كتب على يوسف دائمًا وكما كتب المنفلوطى أحيانًا ؛ ولكنهما لم يحسبا فى عداد تلك الزمرة ، ولم يسمع لكتاب « عيسى بن هشام » ذكر بين نماذج الإنشاء التى اختارها للتلاميذ مدرسو اللغة العربية كما اختاروا مقالات « النظرات » و « العبرات » و « المختارات » و « مجدولين » و « فى سبيل التاج » ، وكل كتاب ألفه المنفلوطى أو ترجمه بمعونة غيره

ولم تكن العصبية عصبية المعهد الذى انتمى إليه على يوسف والمنفلوطى ، لأنهما أزهريان ، فيما انتعلم الأزهرى والمدرسون الذين يذكرونهما فى دروس الإنشاء أو يتشيعون لهما فى « الحرية الأدبية » أكثرهم من خريجى دار العلوم ، وبينهم وبين إخوانهم الأزهريين منافسة لا تخفى .

والتفت إلى الطلبة قائلاً: من كان منكم يحزن فى عينيه فائضًا من الدمع فالبصل أولى بمهمة تصريفه من كراسة الإنشاء !.

* * *

ولا يحسبنى القارئ العصرى الحديث أننى بالغت فى شعورى بإفراط المنفلوطى فى البكاء أو بإفراط فئة من شباب تلك الآونة فى النعومة والفتور، فإننى لم أقل عن دموع المنفلوطى بعض ما رثاه به شوقى وهو يقول من أبيات كثيرة:

من شوه الدنيا إليك فلم تجد ... فى الملك غير معذبين جياع
أبكل عين فيه، أو وجه، ترى ... لمحات دمع أو رسوم دماع؟

أما الشباب الناعم فقد كان موضوعًا مألوفًا مطروقًا بين موضوعات التمثيل الفكاهى والأحاديات المسرحية «المنولوجات».. وكان أشهر الممثلين المغنين سلامة حجازى يخصهم بغير قليل من نغماته، وإحداها قصيدة الدكتور شدودى التى نظمها بعنوان: «فتى العصر» وقال فى مطلعها:

بالله قل لى يا فتى العصر ... ماذا تركت لربة الخدر

فلم تكن سورة «السوبرمانية» ولا البطولة المعبودة هى التى كانت تحضرنى حين رأيت الكراسات أمامى تفيض بكلمات «النظرات» و«العبرات»، وبعضها منقول بحروفه من مقالات هذا الكاتب أو ذاك.

وقد عرفت أسلوب المنفلوطى فى الصحف قبل التقائى بأسلوبه المنقول فى كراسات الإنشاء، ولكننى كنت أتناوله من جانب المطالعة الأدبية العامة ولم أنظر إلى الجانب «التربوى» ولا شعرت بالاتصال بينه وبين غاشية الضعف عند ناشئتنا قبل أن أشهد هذا الأثر فى أكبر معاهد التعليم «الأهلى» فى تلك الآونة.

* * *

وسرعان ما وصلت قصة الدموع والبصل إلى السيد المنفلوطى من طريق المطبخ أو طريق الفرقة أو طريق الضابط الظريف.. فقد أشار إليها فى أول لقاء بيننا بعد ذلك بالمكتبة التجارية، ولم أكن ألقاه كثيرًا فى المجالس الخاصة ولا أذكر أننى لقيته فى مجلس خاص غير مرة أو مرتين ببيت الأمة، ولكننى كنت أشترى أكثر كتبى العربية من المكتبة التجارية فألقاه هناك بين حين وآخر، ويجرى بيننا الحديث كثيرًا فى المسائل العامة وقليلاً فى المسائل الأدبية

والثقافية.. وفى هذه المرة لقيته يوقع على بعض الأوراق، فقال لى بنباهته «البلدية» التى اشتهرت عنه: بسم الله.. أو «بسم اللا» باللهجة الدارجة، وهى كما يعلم القراء دعوة إلى الطعام.

فقلت له سائلاً: «بسم اللا» فى التوقيع فقط أو فى قبض الفلوس؟!

فعاد يقول بتلك اللهجة البلدية أيضًا: الحكاية لا تستحق «مش قد المقام».. إنها أرخص من «البصل!»

قلت مجاريًا له فى سياقه: ولعله أحلى من العسل على حد نداء الإخوان فى منفلوط..

ولاح لى فى المناقشة الوجيزة التى جرت بينى وبينه، على أثر ذلك، أننى لم أنفذ منه إلى موضع إقناع فى كل ماذكرته عن أدب الشكاية أو أدب البكاء، وأيقنت أنه غير قابل للتحول عن الشعور التقليدى أن العاطفة هى الرقة وأن الرقة هى البكاء، وكل ما سمعته منه حول هذا المعنى يتلخص فى أنه يسأل الله أن يلهمه إعطاء الرحمة حقها وإعطاء اليأس حقه، ولعله عنى بذلك تصويره للعاشق البائس فى قصة «ماجدولين» وتصويره للبطل المنتحر فى قصة «فى سبيل التاج»، ووصاياه الحسنة فيما كتب عن القضية الوطنية. وهو غير قليل بتوقيع منه أحيانًا أو بغير توقيع

* * *

وكانت أيام الأعياد مجتمع الأدباء بمجلس الزعيم الكبير سعد زغلول، فلقيت المنفلوطى مرة من هذه المرات ومعنا جعفر ولى باشا - وزير الحربية يومئذ - وهو كثير الاطلاع على منظوم العرب ومنثورها، وساتذة لا أعرفهم، فجرى الحديث عن أساليب بعض الكتاب فقال سعد: إننى أتناول أسلوب هؤلاء الكتاب جملة جملة فإذا هى جمل مفهومة لابأس بها فى الصياغة، ولكننى أتبع هذه الجمل إلى نهايتها فلا أخرج منها على نتيجة ولا أعرف مكان إحداها مما تقدمها أو تلحق بها.. فلعل هؤلاء الكتاب يبيعون بالمفرق «بالقطاعى» ولا يبيعون بالجملة!

قال الشيخ المنفلوطى: يغلب ياباشا أن يشيع هذا الأسلوب بين الصحفيين الذين يكتبون ملء فراغ، ولا تتسع لهم المادة فى كل موضوع.

فابتسم الباشا وقال للشيخ: «إنك يا أستاذ تتكلم عن الصحفيين وهو واحد منهم!»، ثم التفت إلىّ وقال: «ما رأيك يا فلان؟»

قلت : « هو ما يقول الشيخ المنفلوطي مع استدراك طفيف .. »

قال : « ما هو ؟ »

قلت : إن هذا الأسلوب هو أسلوب كل من تصدى لملء فراغ لا يستطيع ملأه سواء كتب في الصحافة أو في غير الصحافة .

وعاد الشيخ المنفلوطي فقال : « إن العقاد لا يحسب من الصحفيين لأنه من الأدباء » .

قال الباشا : « أو كذلك ؟ » .

ثم تفضل بوصف موجز لكاتب هذه السطور ليس من حقنا أن نرويه .

ولسنا نريد أن نحصر الأدب المنفلوطي كله في تلك الزاوية التي تلاقينا لديها عن كراسات الإنشاء ، فهكذا عرفناه ويعرفه غيرنا إذا لقيه من هنا وعلى يمينه « سوبرمان » نيتشه و « بطل » كارليل ، وعلى يساره قضية تربوية في إبان أزمتها .

ولكن المنفلوطي في غير هذه الزاوية ، يعرف بمكانه الأدبية العامة .. فلا يعرف له نظير بين أعلام الأدباء الناثرين من مطلع النهضة الكتابية قبل مولده إلى ما بعد وفاته ، فليس بين أدبائنا الناثرين من استطاع أن يقرب بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الكتابة كما استطاع صاحب « النظرات » و « العبرات » ، فربما ذهب القصد في الكتابة بجمال الإنشاء في أساليب الناثرين المجيدين ، وربما ذهب الأسلوب « الإنشائي » الجميل بالمعنى المقصود في كتابة أدباء الفكر والتعبير ، ولكن المنفلوطي – قبل غيره – هو الذي قارب بين الجمال والصحة على نسقه الفصيح في سهولة لفظ ووضوح معنى وسلامة نغم ، وهو لا يبلغ مبلغ التبرج بالصقل والزينة ، ولا يترك التبرج والزينة ترك التقشف في مسوح النساك ، وليس بدروس الإنشاء نموذج أصلح من هذا النموذج من وجهته الفنية ، وعن أدبه هذا أقول في بعض فصول « المراجعات » :

« إنه أحد الذين أدخلوا المعنى والقصد في الإنشاء العربي . بعد أن ذهب منه كل معنى وضل به الكاتبون عن كل قصد .. وكانت الكتابة قبل جيله قوالب محفوظة تنقل في كل رسالة .. وكانت أغراض الكتابة كخطب المنابر تعاد سنة بعد سنة بنصها ولهجة إلقائها .. »

وقد اطلعت على مجموعة وافية مما كتب المنفلوطي للفن وما كتب بغير كلفة ، فكان لكتابته على كلا النمطين المتباعدين طابع الرائد المجاهد في مثال هذه الرسالة : رسالة التقريب بين حفاوة الإنشاء ورخصة الخطاب واطراح الكلفة .

ويتمثل طابع الرائد في تباعد الشقة بين موضع الحفاوة وموضع الرخصة مما يكتب للفن وما يكتب خاصة أمره .. فكان المنفلوطي « بديع » مقالاته الفنية فلا يفوته موضع العناية بكل كلمة وكل فاصلة ، وكان يكتب رسائله لصحبه – ومنهم المتعلمون بل المعلمون – فلا يبالي أن يرد فيها أمثال هذه التعبيرات الدارجة : « فيسرني تلغرافيا » أو « مرسول لحضرتكم » أو « تحفظوا الاسطوانات حتى لا تكون مستعملة ثم أرسلوها في البوسطة .. » أو « فهموها أن ترسل شهادة المدرسة المتخرجة فيها » .. أو « أهديك سلامي » أو « تلامذتك بخير يسلمن عليك وأرجو تبليغ سلامي لحضرات الأفاضل إخوانك المعلمين . » .

وكلها من شواهد النظر إلى الكتابة الفنية كأنما هي كتابة « الاستعداد والحفاوة » وما عدا ذلك من كتابة الأغراض الخاصة فرخصة العرف فيه أولى من كلفة الاستعداد ، أو كلفة « السمعة والحشمة ! » .

وتعيد إلينا قدرة المنفلوطي على تبسيط الأسلوب الجميل كلمة « أناتول فرانس » التي يقول فيها : « إن البساطة الجميلة هي القدرة على إخفاء الجهد والكلفة ، وإن النور الأبيض بسيط في النظر ولكنه أوفر الألوان تركيبًا لأنه « توليفة من جميع الألوان » .

محمد المويلحي

مُحَمَّد المويلحي

☐ كانت للحياة الأدبية فى القرن الماضى مؤامراتها ودسائسها التى تشبه المؤامرات والدسائس فى حياة القصور الملكية ، والصواب أن مؤامرات الأدب ودسائسه كانت فى باطن الأمر فرعاً من فروع المؤامرات المعهودة فى كل حاشية ملكية ، لأن الأدباء كانوا على اتصال قريب أو بعيد بحاشية الأمير ؛ وكان للقصر أشياع ودعاة بين أصحاب الأقلام كما كانت له خصومات معهم على حسب الظروف والعلاقات التى تتغير بينهم جميعاً من حين إلى حين ، وربما كان حامل القلم عوناً على حامل قلم آخر مرضاة للسياسة أو مرضاة للمنافسة المعهودة بين أبناء الصناعة .

وكان لمحمد المويلحى صاحب « عيسى بن هشام » نصيب وافر من مؤامرات القصور ، ولعله استحقها بقدم الصلة بين أسرته . وبين الأسرة الخديوية من عهد مؤسسها محمد على الكبير ، وقد عاش أبوه إبراهيم فى معمعان سياسة القصور بين عابدين بالقاهرة ويلدز بالآستانة . وكان صاحب القلم الوحيد الذى اصطحبه الخديو إسماعيل إلى منفاه . مستمراً به فى علاقاته بعد النفى بالسلطان عبد الحميد .

ولم يسلم المويلحيان معاً من مؤامرات عابدين ، ولم يسلم عابدين ولا يلدز معاً من مؤامرات المويلحى الكبير على الخصوص ؛ وكان حامل القلم الذى اختارته حاشية عابدين للنكاية بالمويلحيين صحفىٌ من أقرب الناس إليهما وأشدهم إعجاباً بهما ومحاكاة لهما فى أسلوبه . وهو صاحب « الصاعقة » أحمد فؤاد ، وما كان يرجو لصاعقته حظاً فى ميدان الصحافة أعظم من مقارنة « مصباح الشرق » صحيفة المويلحيين فى هذا الميدان

وقد كانت وقيعة « أحمد فؤاد » بالمويلحى الكبير ألواناً لا تحصى من الشائعات والأراجيف و « القفشات » التى كان ينشرها على الأندية والقهوات ، وكانت وقيعته الكبرى بالمويلحى الصغير أنه كان يجرده من ملكة الكتابة الأدبية ويزعم أن « عيسى بن هشام » من قلم أبيه ، وأنه كان يرى مسودات المقالات بخطه فى مطبعة المصباح ! .. وكانت وقيعته بأبيه أنه طامع فى إمارة الشعر بقصر الأمير .

أما المويلحى إبراهيم ، فكان أكثر من ند « لأحمد فؤاد » فى ألوان الوقيعة ، إذ كان يفل الحديد بالحديد ويكيل لتلميذه المتمرد بالكيل الذى يكيل به ذلك التلميذ . ويريد ،

وقد سكت عنه حتى أوهمه الصلح والرضا ، ثم أوفده برسالة إلى الآستانة من تلك الرسائل التى كانت تتدفق الهدايا والمجاملات على حاميها بين عابدين ويلدز وبين يلدز وعابدين . ثم بادر فأبلغ الخبر إلى مدير « الشحنة » بالآستانة فتلقى هذا صاحبنا أحمد فؤاد على « اسكلة الميناء » وانتزع منه أوراقه انتزاعًا ، فإذا هو فى سبيله إلى السجن بدلاً من دار الضيافة ! .

وأما المويلحى محمد ، فقد كان على مشابهته لأبيه فى كثير من خصاله أقرب إلى عزلة المتصوف ، وزهد الوجاهة والأسوة ، فلم يكن يعنيه من أحاديث أحمد فؤاد وأمثاله إلا أن يعقب عليها بنكتة لاذعة أو سخرية واسعة ، ونسيها بالسخرية الواسعة لأنها كانت تتسع حتى تشمل السخرية بالشهرة الأدبية نفسها .. فماذا لو لم يكن المويلحى الصغير كاتب عيسى بن هشام أو كاتبًا على الإطلاق ؟ ذلك حظ هين كما كان المويلحى الصغير يقول . ولم يكن فى الواقع يبالغ فى تكلف السخرية بالشهرة الأدبية ، لأنه كان يرتضى لنفسه منزلة أحب إليه وأرفع عنده من منزلة الأديب الصحفى المشهور ، وهى منزلة الوجيه الحكيم العزوف عن الدنيا والناس .

ولقد شاعت وشاية لأحمد فؤاد فى حينها ، فلم نكد نسمع أحدًا يتكلم عن « حديث عيسى » إلا وهو يتقبلها أو يتساءل متشككًا . أحقًا كتبه المويلحى الصغير ولم يكتبه له أبوه ؟

وكنا نحن نعلم من أخبار « محمد المويلحى » أنه أوفر اطلاعًا من أبيه .. وندرك الفارق البعيد بين ملكته الأدبية الناقدة وملكة أبيه المرتجلة ، ونعرف خلال سطوره مدى اطلاعه على كتب اليونان وكتب الأوربيين المتأخرين ، مما توفر عليه ولم يتوفر عليه أبوه من قبله .. ولا بعد اشتراكه معه فى حياته الأدبية ، فكنا نعجب لشيوع تلك الوقيعة ولا نستطيع أن نفسره بغير هوى النفوس لاستماع الوشايات والاغترار فى تفرقتهم بين ملكة الأب وملكة الابن بالتفرقة بين اسم المويلحى الكبير ، والمويلحى الصغير .

ولكننا لقينا صاحب « عيسى بن هشام » بعد العلم به من طريق المطالعة وطريق السماع ، فعرفنا سببًا أدعى من ذلك السبب لرواج الوشاية التى أذاعها صاحب « الصاعقة » ، فقد كان « محمد المويلحى » أصدق مثل رأيناه لقول القائل : « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه » .. حتى كنا نروى المثل بعد ذلك : « سماعك بالمويلحى خير من أن تراه » ، وقد نزيد عليه : المويلحى الصغير تركيبًا للنسخة الجديدة من ذلك المثل القديم !

كان صديقنا المازنى يقول عن مشهور من مشاهير الشرق الحديث بغير حق : إنك لا تحتاج إلى أكثر من خمس دقائق فى محادثته لتنزل به إلى مكانه من الاحتقار .

والمويلحى الصغير تراه خمس دقائق ، فلا تحتقره ولا تشعر من صمته ووصا
للاحتقار .. ولكنك تقدر له ماشئت من الصناعات الموفورة غير صناعة القلم أو ص
الفنية ، فإذا تكلم زادك إيمانًا بأنه من أبعد خلق الله عن الكتابة ، ولاسيما
الفكاهية ، لأنه يتعثر فى كلامه وتعترضه فأفأة قد تطول حتى تضطره إلى الت
والإشاحة بوجهه علامة التضجر من الحديث أو الرغبة فى السكوت ، وإنما هو
تلك العثرات التى تعترضه أحيانًا خلال الحديث .

رأيته أول مرة – كما رأيته آخر مرة – بكساء « البونجور » الذى لا يغيره فى ا
الصيف ، وإن غيره من لون إلى لون ومن نسيج إلى نسيج ..

ورأيته بعد المقابلة الأولى أسابيع متوالية لم أكن أسمع منه خلالها غير الكلمات
رئيس العمل وهو يرقم الأوراق الرسمية أو يعيدها للمراجعة والاستيفاء ، ولكنى
مقابلة من تلك المقابلات القصار أخرج من مكتبه وقد ازددت عجبًا بسرعة خ
ملاحظته وقدرته على إيجاز القول والكتابة بما يفيد على البديهة ، بغير كلفة ولا

• • •

لقيت « محمد المويلحى » لأول مرة فى ديوان الأوقاف وهو يومئذ مدير قس
ويتبعه تحرير مجلس الديوان الأعلى ومجلسه الآخر الذى كان يسمى بمجلس الإدا
الإدارى ؛ ومن أقلامه قلم « السكرتارية » وهو يومئذ ندوة للمنشئين والمترج
والمحررين ، يعملون « رسميًا » فى إعداد المذكرات التى ترفع إلى المجلسين وت
وتصحيح لغتها ، ولا يفرغ منهم لهذا العمل فى الواقع غير اثنين أو ثلاثة ، مع الا
أو كثيرًا – بمعارف الأدباء اللغوية ؛ إذا التبس عليهم الأمر فى صحة كلمة أو صلا
وقد كان فى قلم السكرتارية من المنشئين والشعراء والمترجمين والمشتغلين بالأدب و
منثور ثبت فى الديوان كله من طراز عبد العزيز البشرى ، وعبد الحليم المص
الكاشف ، وحسين الجمل ، وحسن العرس ، وأمين الدوة ، ومحمد فكرى
قلة من الكتاب الديوانيين غير معروفين بين أكثر الموظفين . وغير هؤلاء رهط آ
ولكن فى غير قلم السكرتارية ، نذكر منهم صديقينا الشاعرين المجيدين على شو
عماد .

وكانت كتابتى الأدبية – السياسية – طريقى إلى وظائف الديوان ، والفضل ف
من خصال الفضول المحمود عند صديقنا الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب
طيب الله ثراه ..

جالس إذ دخل محمد بك تشأت وقال لى : بونسوار مويلحى ! فأجبته كمادتى معه مازحاً : أهلاً بالفتى ! وهى تعريب الكلمة التى يطلقها عليه أصحابه بالفرنسية «Petitinteregant»(١) ، فما كان منه إلا أن ضربى بكفه على وجهى فلم أتحرك من مكانى ولم تتغير جلستى ، وقلت له : مازدت أن فعلت مايمكن لأى حمار فى الطريق أن يفعله مع أكبر كبير .. إلخ إلخ ..

• • •

فهذه القصة إحدى قصص ثلاث لها سلسلة من العناوين المتقاربة : عام الكف ، وعام الكفء ، وعام الكفر ، محورها هم : محمد المويلحى ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل ، وبواعثها من دسائس القصر رغبة الخاصية الاستيلاء على مناصب الرئاسات الدينية فى البلاد ، ولا سيما الرئاسات التى لها إشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ، وتقترن بها منافسة أصحاب الأقلام على مركز شاعر الأمير . وكاتب الصحيفة السيارة التى تعتبر لسان حال الأمير .

ولقد كان محمد المويلحى مرشحًا للعمل الصحفى الذى يمثل سياسة الأمير ، ويقوم مقام لسان الحال بالنسبة إليه . وكان يعين أباه على طموحه إلى مركز شاعر الأمير ، فكان كلاهما منافساً خطيرًا للشيخ على يوسف فى حلم الكتابة السياسية والمنادمة الشخصية للأمير فى مجالسه الخاصة ، وهما أكتب من الشيخ على من الوجهة الأدبية وأوسع ثقافة فى اللغة العربية واللغات الأجنبية ، وأقدم عهدًا بالاتصال الوثيق بالأسرة الخديوية التى صاحبتها أسرة المويلحى منذ عهد مؤسسها ، ورفع شأنها عند هذه الأسرة انتساب المويلحيين لآل البيت النبوى نسبة أثبت من تلك التى ادعاها صاحب المؤيد بعد ذلك عندما أراد الخديوى عباس ترشيحه لمشيخة السادات الوفائية ، ومهدوا لذلك بمصاهرة الشيخ على يوسف لهذا البيت على الرغم من عميده السيد عبد الخالق ، مما انتهى به الأمر إلى قضية الزوجية المشهورة وعزل الخديو للشيخ أحمد أبى خطوة قاضى المحكمة الشرعية التى حكمت بإلغاء الزواج ، وتعيين الشيخ الرافعى الذى كان يؤوى السيدة صفية فى بيته بعد صدور القرار بالفصل بين الزوجين خلفًا للأستاذ الإمام .

فما هو إلا أن سمع الشيخ على يوسف بخبر اللطمة التى أصابت محمد المويلحى حتى فتح لأخبارها وتفصيلاتها صدر صحيفته ؛ وحرص على تسمية المكان الذى وقع فيه الحادث باسم « الحانة » وتحريف الكلمة التى قالها المويلحى لتظهر للسامعين بها كأنها من لغة المغازلة ، وفى كلا الأمرين مايبطل المويلحى عن الترشيح لمقام لسان الحال ومقام المشيخة الصوفية ، ولم

(١) أصل الكلمة هو : Intriguant .

يخف المويلحى بالرد على « المؤيد » إلا ليقول إن الحادث وقع فى « دكان » لافى حانة . وإن الكلمة التى فاه بها هى كلمة « الفتى » لاكلمة الفتان ..

وسمى المؤيد العام كله باسم عام الكف . وألح على ذكر الحادث فى المنظومات الشعرية التى كانت تنشر تحت هذا العنوان ؛ ومنها :

يا صريع الأكف صدعت أمسى   خلقًا مثل طيلسان ابن حرب
أنت فى الحان فى أمان وسلم   وهو فى مصحفك حرب وضرب

ومنها

لا تدخل الحان والصفع ثائرة   حتى تقام حواليك المتاريس

وألح الشيخ كذلك على ذكر شهر الصيام فى إبان الصفعة ، فكتب بعض شعراء هذه المقطوعات يقول :

إن شهر الصوم قد حل ففز   فيه بالأجر وشكر الشاكرين

وختم المقطوعات بأبيات تشير إلى شهر رمضان يقول ناظمها :

إن هذا الشهر شهر يجتنى   فيه أمثالك صفع الصافعين
قد محونا آية الكف وها   نحن نتلو اليوم آى الراحلين

وكان الشائع يومئذ أن المقطوعات جميعًا من نظم الشاعر إسماعيل صبرى لأن المويلحى كان يلقبه فى مجالسه بالقبيط ..! ولكن المعلوم أن شعراء آخرين قد اشتركوا فى نظمها ، ماعدا حافظ إبراهيم صديق المويلحيين .

• • •

وجاء دور الشيخ على يوسف فى تشهيرات هذه العناوين المتسلسلة فظهر عام الكفء بعد عام الكف !.. إذ كان السيد عبد الخالق قد طلب تطليق ابنته من صاحب المؤيد لأنه غير كفء للزواج من الشريفات وحده مشكوك فى إسلامه . واستعان المويلحى باطلاعه الواسع على الأدب العربى القديم فستخرج من قصة الشاعر الأحوص مع مطر زوج أخت امرأته التى كان يهواها بيتين من أبيات الأحوص كأنما نظما لهذه المناسبة ، وأبيات الأحوص هى :

كأن المالكين نكاح سلمى   غداة نكاحها مطرا نيام
فلا غفر الإله لمنكحيها   ذنوبهم ، وإن صلوا وصاموا

فلو لم ينكحوا إلا كفيئًا   لكان كفيئها الملك الهمام
وإن يكن النكاح أحل شيئًا   فإن نكاحها مطرًا حرام
سلام الله يا مطر عليها   وليس عليك يا مطر السلام
فطلقها فلست لها بكفء   وإلا يعل مفرقك الحسام

وكأنما الإشارة هنا إلى أن الأمير نفسه هو الكفء لبنت السادات ، وليس الشيخ على الذى أذن له الأمير فى زواجها .

ولم يكن مع المويلحى أحد من كبار الشعراء فى عام الكفء غير حافظ إبراهيم ، وقد كان « يرد الجميل » فى وقت واحد للشيخ على يوسف بعد حملات المؤيد على المفتى ، وللشاعر أحمد شوقى منافسة على الشهرة وعلى مطمع آخر سنأتى الإشارة إليه ، فنظم حافظ هذه المناسبة قصيدته البائية بعد طول صمته ، وقال فيها :

حطمت اليراع فلا تعجبى   وعفت البيان فلا تعتبى
فلا تمثليني لهذا السكو   ت فقد ضاق بى منك ما ضاق بى

إلى أن قال عن قضية الزوجية ، ولم ينس الناحية الدينية فيها :

وقالوا « المؤيد » فى غمرة   رماه بها الطمع الأشعبى
دعاه الغرام بسن الكهو   ل فجن جنونًا ببنت النبى
فضج لها العرش والحاملوه   وضج لها القبر فى يثرب
وقالوا لصيق ببيت الرسو   ل أغار على النسب الأنجب

والطمع الأشعبى فى البيت يشير إلى ضياع ثروة الشيخ على فى مضاربات « البورصة » ، وهى من المقامرة التى لا تحمد من أحد ، فضلاً عن شيخ الطريق .

ولقد كان لحافظ إبراهيم نصيبه المهم من هذه الدسائس التى كانت تحاك لترشيحه لوظيفة شاعر الخلافة فى البلاد العربية الإسلامية ، منافسة لشاعر الأمير أحمد شوقى ، فما زال به الحباء حتى زينوا له نظم أبيات فى الشاب « شكيب » معشوق أبى الهدى الصيادى صاحب النفوذ الأكبر فى حاشية السلطان عبد الحميد ؛ فقال على لسان الشيخ أبى الهدى :

أحرق الدف إن أريت شكيبًا   وأفض الأذكار حتى يغيبا
فاسألوا سبحتى فهل كان تسبيحـ   ـى فيها إلا شكيبًا شكيبا

فذهبت مساعى من رشحوه لذلك اللقب الفخم بعد اقترابها من النجاح .

أما عام « الكفء » فلم يكن له شأن هذين العامين من أقلام الأدباء ، ولم يهتم به صاحب « المؤيد » كثيرًا لأنه آثر أن ينتظر للخلاص من مزاحمة مصطفى كامل مناسبة أخرى ، وتلك هى مناسبة إغلاق الصحف التى كان مصطفى كامل يصدرها باللغات الأجنبية ، وهى التى كان على يوسف يخشى أن تجعل مصطفى كامل لسان حال للأمير فى الصحافة الأجنبية ، ولم يكن يخشى مزاحمته فى الصحافة العربية لأن مصطفى كامل نفسه كان ينوى أن يقطع صلته لصحفية بالقصر ، حتى كتب خطابه الصريح إلى الخديو عباس يبلغه فيه أنه سيبتعد عن كل صلة بالحاشية الخديوية صيانة لمقام الأمير من تهديد المحتلين إياه من جراء تلك الصلة ، وهذه هى الفعلة التى استنكرها بعض المتملقين على صحفى يخاطب أميره ، فحملوا عليها بعنوان « عام الكفر » ، وأسكتها الناصحون بإيعاز من الأمير .

على أن صحيفة المويلحيين لم تصبح لسانًا سياسيًا للقصر ، ولكنها أصبحت لسانًا للحركة الأدبية مسموع القول فى نقد الكتابة والشعر وفى الموازنة بين الكتاب والشعراء ، وكان قولها فى ذلك منتظرًا مرموقًا فى أندية الأدب والثقافة ، ومنها أندية القصر نفسه وأندية المعارضين لسياسته ومؤامراته . وكانت خطتها العامة – فيما عدا فترت القص الزئبق التى اشتهر بها المويلحى الكبير على الخصوص – أن ترجح كفة حافظ إبراهيم على منافسيه ، فلم يكن من اليسير أن تساق إلى خطة الزراية به وتهوين شأنه ونكران فضله ، ولكن « مصباح الشرق » كانت تنافسها ، وتحاكيها « صحيفة » أخرى على أسلوبها هى « صحيفة » « الصاعقة » الأسبوعية ، وصاحبها أحمد فؤاد تلميذ المويلحى ، يواليه يومًا ويكيد له أيامًا على حسب الطلب والجزاء ، وفى الصاعقة كانت تنشر الحملات التى يأباها « مصباح الشرق » ويترفع عن قبولها أو مجاراة طلابها .. ولاسيما الحملة على حافظ ، ومحاولة الإيقاع بينه وبين نصيره الأكبر الأستاذ الإمام ، وقد أبى على صاحبها أن ينكر على حافظ قدرته على الشعر والنثر معًا ولو كان من النثر المترجم .. فلا يصلح طبيعة الحال لولاية الديوان العربى ومعه ديوان الترجمة ، فجاء فى مقال نشرته بعد صدور الجزء الأول من ترجمته « للبؤساء » :

« ... إنا لنبدأ بأرقم ذلك المعجب بنفسه الذى عرضه الغرور للاستهزاء به ، وهو حافظ إبراهيم .. ولما كان معدومًا من مزية تمييز الصحيح من الفاسد والخطأ من الصواب والجيد من الردىء ، وكان مجبولاً على الإعجاب بنفسه .. ظن فاسده صحيحاً وخطأه صوابًا ورديئه جيدًا فى جمعه فى البؤساء من خليط كلام الناثرين ... » .

لإقبال والإعراض ، وبين المو
البكريين كان له موقفه الخاص
العلوية ، فكان على حذر دائم
ومصاحبته لعباس منذ أيام الدر
اشتركت قديمًا وحديثًا فى خلع
بيت البكرى العريق .. وساس
الدينية ، فإنه كان يحاول جهد
ذوى « الشخصيات » الملحوظة
العلاقة بينهم وبين كبار الأج
الأوساط من تمهيد توفيق الب
الأوربية . ومن يدرى ؟ إن ا
حتى بعد قيام الأسرة العلوية
والأوربية حادثة تدعو إلى تغي
سليل بيت عريق فى البلاد ،
الأنظار إليه عند البحث عن

والذى لا شك فيه أن ا
بعض أبياتها . لأن المناظرة
« البكرى » تخطر لسليل بيت
تلك الوجاهة الملحوظة فى تاري
عباس حين وجه هذا وقال ل

«كلا .. لست أنا قليل
آبائك وأجدادك ..» .

لاجرم يكون قائل هذه
يذكرنا مرآك أب
رمتنا بكم « مقدوا
فلما توليتم طغي
أعباس ترجو أن
فيا ليت دنيانا ت

ولقائل أن يقول : وأن الكاتب كذلك، لما فرطه المفتى؟فنجيب للمعترض بأن فضيلة المفتى من العساء الأعلام ، وعنده من الاشتغال بأمور الاسلام ما يشغله عن قراءة مثل هذه الترهات ، ولكن جبرًا لكسره وتخلصًا من إلحاح حافظ وفرارًا من تحمل غصص رؤيته والاجتماع به .. قال ما قال ، وعلم الله أن فضيلة الأستاذ تأذى كثيرًا من تقريظ البؤساء .» .

ويقول المطلعون على أحوال القصر إن المويلحيين أوشكا فى وقت من الأوقات أن يبلغا معلنيهما من الأمير وهو تركز شعر الأمير للمويلحى الكبير ومهمة الدفاع عن سياسته للمويلحى الصغير.

وربما كان إبراهيم المويلحى أصلح أبناء عصره لوظيفة الشاعر فى قصر الإمارة كما كانت تفهم فى تلك الحقبة ، لأنها كانت وظيفة تجمع بين نظم الشعر لمناسباته ومواسمه ، وبين منادمة الأمير فى مجالسه وسهراته وساعات طربه وخلوته لسماع المغنين والمغنيات ، ولم يكن إبراهيم المويلحى دون على الليثى ومحمود أبى النصر فى فن النظم ولا فى المنادمة ، بل كان أعرف منهما بأدب العرب والإفرنج وأقدر منهما على الحديث فى مختلف شجونه . وقدرته على نظم التواريخ بعدد الحروف المعروفة بتواريخ « الجمل » لم يكن يدانيه أحد من معاصريه ، وقد كانت هوى الملوك والأمراء من شعر المديح لتسجيل أوقات ومواعيد . فلم ينظم شاعر من هذا الفن قصيدة تضارع قصيدة المويلحى الكبير التى استقبل بها عباس الثانى « سنة ١٩٠٢ » ؛ وكل شطر منها تاريخ للسنة الهجرية « سنة ١٢٢٠ » يوافق معانى الكلمات فى غير تكلف ظاهر يقتضيه التوفيق بين النظم ومجموع الأرقام . وهذه أبيات منها :

وافى الخديوى ... نيل أمر ... ...
والمجد يمصره ، والقطر بشكره ... وامش بذكره ، بالعدل إن ساحا

• • •

وقد كان الخديو عباس يأنس لإبراهيم المويلحى فى مجالسه ، ويهم ولع جده إسماعيل بمسامرته ومنادمته ، فضلاً عن الاعتماد على لباقته لسفارة بينه وبين ولاة الأمر فى الدولة العثمانية ، ويعلم أن جده قد بلغ من ولعه به أنه اصطحبه دون غيره من أصحابه وندمائه عند مفارقة القطر إلى منفاه ، ولعله كان موضع اختياره شاعرًا له لولا اعتراض المحتلين على تقرير هذه الوظيفة فى الميزانية لأن النظام المالى فى حكومات العصر الحديث لا يعرف عملاً يسمى

عمل الشاعر أو النديم الخاص بمجالس الملوك والأمراء ، ومن أجل هذا سميت وظيف
شوقى ، باسم رئيس الديوان لعربى ، ولم نعرف ، رسميًا ، باسم شاعر الأمير.

وربما كان طموح الوالد إلى هذه الوظيفة سببًا من أسباب نقد ابنه لشعر شوقى وتو
الخصوص — إنه لم يكن يحسن الحديث عن الملوك والأمراء ، ولولا ذلك لما تح
إسماعيل وهو يقول عنه إنه « الخديو المشار إليه » .. ولا تحدث عن توفيق فقال «
العزيز بده فضلته وجمًا ...» .. ولاذكر أنه كان يركب حمارًا أبيض وهو يذهب للعا
ولا أكثر فى مقدمة من الزهو والسهو والحشو كما قال ، ولاشبه العزيز بعمر بن الخط
وهو يصف حفلة البال

فهو بينهم عمر والوفود تحدب

وبما عمر بن أبى ربيعة هو الأجدر « بمجلس الطرب والعرف » : وارقص و
والقدود والخدود ، والصدور والنهود ، والنحور والعقود ...»

فقد كان هذا النقد — كما هو ظاهر — أقرب إلى نقد « لياقة النديم » منه إلى
الشاعر ، وعند لباقة النديم تنتهى منافسة المنافسين للأديب الظريف والسمير ا
إبراهيم !

إلا أن المويلحيين كانا — ولا ريب — وفاق الشروط جميعًا — بعباس الأمير قبل
لوظيفة شعر القصر ولسان حاله . لولا قصورهما عن شرط واحد كان عند الأمير أهم
جميع هذه الشروط ، وهو شرط الاستقرار والكتمان الذى لابد منه لكل من يعمل
الأمراء . فقد كان كلاهما — ولاسيما الأب — من أصحاب المزاج الزئبقى الذى لايطو
ولم تكن ما حدث فى السياسة ولا فى العلاقات الحميمة يطول الاطمئنان إليها . فلم يبق
أفلح شوقى الصامت الحصيف ، وعلى يوسف الناطق الأمين بلسان الحال .

• • •

وفى « الصحيفة » التى كانت تخدم الحاشية الخديوية كما تقدم . نشرت أعنف
قصائد الهجاء للخديو عباس ولجميع الأمراء فى أسرة محمد على من قبله ومن بعده ،
قصيدة الاستعطاف التى اتهم البكرى والمنفلوطى بنظمها : وهى فيما نرجحه من تق
كلها ماعدا بيتًا أو بيتين اشترك فيهما المنفلوطى أو أضافهما إليها بموافقة السيد

وقد كان موقف العميد « لصوفى » الكبير من بيت محمد على كموقف المو

الإقبال والإعراض ، وبين المودة والجفوة ، وبين المعونة والمكيدة ، ولكن عميد السادة البكريين كان له موقفه الخاص بين رواد القصر وهو موقف بيت بكرى من بيت الأسرة العلوية ، فكان على حذر دائم من الخديو عباس لأنه – فى ذكائه واطلاعه على ماوراء الستار ومصاحبته لعباس منذ أيام الدراسة – لا يجهل سياسة البيت العلوى من جميع البيوتات التى اشتركت قديماً وحديثاً فى خلع الولاة وتنصيبهم بمراجعة الباب العالى فى الآستانة ، وأولها : بيت البكرى العريق .. وسياسة عباس لم يكن بها خفاء نحو جميع البيوتات ذوات الرئاسة الدينية ، فإنه كان يحاول جهده أن يمحو فيها أشياعه ومريديه وينحى عنها الأقوياء من أبنائها ذوى « الشخصيات » الملحوظة فى الدوائر العليا ، وأحذر ماكان يحذره أولئك الذين تتصل العلاقة بينهم وبين كبار الأجانب من السفراء ووكلاء الدول ، ولم يكونوا أقرب إلى هذه الأوساط من السيد توفيق البكرى لمعرفته باللغات الأجنبية ونشوئه نشأة الأمراء فى المعاهد الأوربية . ومن يدرى ؟.. إذ أعيان القاهرة وقناصلها كان لهم الشأن الأول فى تنصيب الولاة حتى بعد قيام الأسرة العلوية إلى أيام إسماعيل ، فإذا حدثت بين زعازع السياسة التركية والأوربية حادثة تدعو إلى تغيير الأسرة الحاكمة ، فهل من البعيد أن يرشح للحكم الجديد سليل بيت عريق فى البلاد ، له من سمته وتربيته وعلاقته بالآستانة ووكالات الدول مايلفت الأنظار إليه عند البحث عن الخلف المطلوب ؟

والذى لا نشك فيه أن القصيدة كانت من نظم البكرى مع مشاركة قليلة للمنفلوطى فى بعض أبياتها . لأن المناظرة بالآباء والأجداد والمقابلة بين الدخيل « القولى » والأصيل « البكرى » تخطر لسليل بيت الصديق ولا تخطر للمنفلوطى على اتهامه لآل البيت البكرى بعد تلك الوجاهة الملحوظة فى تاريخ الولاية ، ولقد كانت آخر كلمة وجهها السيد توفيق إلى الخديو عباس حين وجه هذا وقال له على مسمع من الملأ فى حفلة المحمل : أنت قليل الأدب :

« كلا .. لست أنا قليل الأدب .. أنا وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك ... » .

لاجرم يكون قائل هذه الكلمة هو ناظم تلك الأبيات التى يقول فيها :

يذكرنى مرآك أيام أنزلت ... علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم « مقدونيا » فأصابنا ... سهام بلاء وقعهن شديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا ... إذا أصبح « القولى » وهو عميد
أعباس ترجو أن تكون خليفة ... كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا ... نكون ببطن الأرض حين تسود

ونحن ننقل الأبيات هنا كما سمعناها بالرواية مخالفة القصيدة المنشورة فى « الصاعقة » بعض المخالفة . وكل مافيها من ذكر القصور والنعمة الحدثة والأسرة الطارئة كلام من له نشأة راسخة فى القصور والنعمة التالدة والحسب العريق .

ولم يكن عباس – وهو الذى سماه كرومر أستاذاً فى فن الدسائس – قاصراً عن « رد الجميل » من نوعه فى هذه الحملة ، فإنه أراد أن يستخرج من مادة الشعر وثيقة على البكرى بخط يده تسقطه فى هيئة الدوائر الأجنبية العليا : وأهمها عنده دوائر الوكالة البريطانية .. فأوعز إلى ولى من أولياء القصر بين رجال الأدب أن يستدرج السيد إلى كتابة قصيدة ينظمها فى موضوع من موضوعات الغزل المحظور ، وكان حفنى ناصف أقرب هؤلاء الأدباء صلة بالسيد البكرى ينشده ويستمع إليه .. فلما ذهب يزور السيد وأقبل هذا ينشده من جديد نظمه تعمد حفنى أن يستثيره وقال له : أيها السيد ! إنك ممن لا ينبغى لهم الشعر ، فدعه لنا وحسبك فخار الشرف والجاه ! .. وحمى غضب السيد فتحداه أن يجاريه فى نظمه إن استطاع ، وقبل حفنى التحدى على شريطة أن يكون موضوع القصيدة شخصياً لا يستعار من نظم آخر فى باب من الغزل المحظور ، فكتب البكرى أبياتاً فى المعنى المقترح بخطه وكتب حفنى أبياتاً فى معناها ثم أخذ أبيات البكرى فأظهر الاعتراف برجحانه عليه فى فن الشعر فوق رجحانه عليه فى الحسب والنسب ! وذهب إلى النافذة يوهم السيد إنه يمزق الورقتين ويلقيهما حيث تلقى المهملات ولكنه مزق ورقته وأبقى الورقة الأخرى فى جيبه ، ثم أسرع بها إلى القصر ليسلمها إلى الخديو فأسلمها الخديو إلى لورد كرومر فى أول لقاء بينهما ، وقيل إنها كانت آخر العهد بدعوة السيد إلى حفلات الوكالة البريطانية وآخر العهد بزيارة العلية من رجال الدول لقصر الخرنفش ، حيث كانت لهم زيارات متكررة فى المواسم والأعياد .

* * *

نقرأ لـ « حفنى ناصف » – رحمه الله – رسالة من أبلغ رسائل العتاب من الأسلوب السلفى كتبها إلى توفيق البكرى يقول فيها ، وكان قد زاره فتخطاه السيد إلى جيره ولم يقرئه السلام :

« ... وجاء السيد فى موكبه ، وجلالة محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله وهيمنا بكماله ، فلم يتعرف وجوه القوم حتى حاذانى ، وكبر على عينيه أن ترانى ... » .

إلى أن يقول :

« فإن حسن عند السيد أن يغضى عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضى عن جميع

الناس، وإلا فلماذا يطوف على بعض الصحف ويحييه بصنوف من المعروف، ويتخطى الرقاب إلى صروف، ويخترق لأجله الصفوف؟ فإن زعم السيد أنه أعلم بتصريف الأقلام فليس بأقدم هجرة في الإسلام، وإن رأى أنه أقدر مني على إطرائه، فليس بالممكن أن يتخذه من أوليائه ...

والمقصود بصروف كما هو معلوم صاحب «المقتطف» الدكتور يعقوب صروف، ولم يؤثره السيد لأنه أقدر على إطرائه، فإن الدكتور يعقوب لم يكن من أصحاب أقلام الإطراء، ولكنه آثره لأنه ربما كان أقدر في الدوائر العليا على مناسبة التي جاءها من ناحية الحاشية الخديوية.

* * *

ونحن لا نجاوز في مقالنا هذا بعض الأمثلة عن مؤامرة الأدب التي لا نفهم دون العلم بما وراءها من مناورات القصور، ولم نزد فيها هنا على ما يجب منها بالأعلام الذين كتبنا عنهم في هذا الكتاب.

٢

في مقالاتنا بعنوان «حياة قلم» عرضت مناسبة لعلاقة «إبراهيم المويلحي» بمؤامرات القصور في القاهرة والآستانة ذكرنا فيها بعض حوادثها ملخصة في القصة التالية:

«.. حدث أن حركة في القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد بالآستانة – وهي حركة تركيا الفتاة – وأن رجلاً شهرته دعوة القلم واللسان ذهب إلى إيران لإتمام هذه الدعوة فطرده الشاه وأهانه اثنان من وزرائه. فقتل الثلاثة جميعًا. وقال قاتلوهم إنهم قصوا عليهم بالحق تقدمًا لذلك الداعية الطريد: جمال الدين!

«وكانت هذه الحقيقة من وقائع الخيال الفنية عن المقال.. ومن طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان ينام في يلدز وعيناه على فرع محمد علي بالقاهرة. واتفق يومًا أن المويلحي الكبير – صاحب مصباح الشرق – دخل مكتب «المؤيد» فوجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه، فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه إلى سقف الحجرة: قادر أنت يارب أن تسقط هذا السقف على من تحته، فيستريح عبد الحميد! قال محمد عبده – وكان من زوار الحجرة – نعم.. لو تقدمت أنت خطوتين!»

ذكرنا طرفًا من أخبار المؤامرات وقصرنا الكلام فيها على أعلام الأدب الذين تقدمت الكتابة عنهم، وهم: علي يوسف، ومصطفى كامل، والمنفلوطي، والمويلحي صاحب عيسى بن هشام، ولكنهم طائفة معدودة من الذين اتصلوا بالقصور واجتذبتهم حبائلها أو اشتملت عليهم شباكها، وغيرهم كثيرون من أبناء عصرهم وأبناء العصر الذي يليه تعرضوا لمثل ما تعرض له زملاؤهم من قبل، وامتزجت حياتهم العامة والخاصة كما امتزجت حركاتهم الأدبية والفكرية بأسرار تلك المؤامرات، فلا سبيل إلى تفسيرهم وتقدير بواعث أعمالهم بغير الاطلاع على تلك الأسرار.

ومن أشهر الأخبار عن العلاقات المتصلة بين القصور ودوائر الأدب، ذلك الخبر الذي لم يكتب في حينه، ولكنه ورد في مذكرات أحمد شفيق باشا التي نشرها بعد خلع السلطان عبد الحميد والخديو عباس الثاني، وذلك هو خبر الأستاذ الإمام محمد عبده مع شبكة الجاسوسية الصحفية في القاهرة والآستانة، وكان الخديو عباس شديد النقمة على الأستاذ لمعارضته إياه في سياسة الأزهر وديوان الأوقاف، ولكنه لم يكن يستطيع عزله لغير سبب يمكن

تقريبه والاعتماد إليه ، ولم يكن نظام مجلس الوزراء يسمح له بالتصرف في المناصب الكبرى بوحي من أهوائه الشخصية ، فأراد أن يمسح بحقوق الخليفة الأكبر عبدالحميد - في المسائل الدينية ، وانتهز فرصة السياحة الصيفية وسفر الأستاذ إلى الآستانة لتوريطه في موقف مريب يؤدى بالاتفاق مع جواسيس « المابين » إلى اعتقاله « متلبساً » بحالة من الحالات الشائنة التي لا تجمل بتقى الديار .. فلا يصعب على الخديو بعد ذلك أن يأمر بإخراجه من المناصب الدينية ومن وظيفة التعليم بالجامع الأزهر ، ولا يستطيع المستشارون الذين يشهدون مجلس الوزراء أن يعارضوه باسم القانون المالى ونظام تأديب الموظفين.

وقد تولى هذه المهمة مكاتب « المؤيد » بالآستانة فقدم نفسه إلى الأستاذ ، وعرض عليه خدمته بتمكينه من الفرجة على مناظر البلد التي يجهلها السائح الغريب ولا يهتدى إليها بغير دليل ، ولولا يقظة الشيخ محمد عبده وانتباه بعض المصريين في الآستانة إلى حيثة هذه الدسيسة لاعتقل الشيخ في جهة من جهات اللهو المنكر يراقبها الشرطة ، ويستطيعون على الأقل أن يخرجوا من البلد من يصطدم فيها بالمشاعيين الغرباء .. فيحقق القول على الإمام « المتهتك » ، وتكون هي القاضية على سمعته وعلى جهوده ومشروعاته في سبيل الإصلاح.

وأمثال هذه « المؤامرات » بين سماسرة القصور وحملة الأقلام أكثر من أن تحصى ، كنا نسمع ببعضها في حينه ولكنها لا تنشر في الصحف السيارة إلا بأسلوب التورية والتلميح . أو تنشر عنها الكتب التي تصاغ بأسلوب « القصة الخيالية وأبطالها جميعاً معروفون.

ولم تنقطع هذه المؤامرات كل الانقطاع إلى زمن فاروق . ولكنها ذهبت شيئاً فشيئاً على مراحل متعاقبة ، ترتبط كل الارتباط بتواريخ القصور « ذات الشأن » ، كما يقال في التعبيرات الحديثة . وهي مراحل العلاقة بين قصر يلدز وقصر عابدين . ثم مراحل العلاقة بين قصر عابدين وقصر الدوبارة ، وهو عنوان دار الوكالة البريطانية المشهور.

ولهذا كانت الناحية الدينية غالبة على هذه المؤامرات في مرحلتها الأولى ، وكان محورها الأكبر مسألة الخلافة ومسألة السمعة الدينية أو الدعاية التي لها علاقة بالدين وبالأخلاق.

كان السلطان العثماني يتهم الخديويين بالسعي إلى تحويل الخلافة من الترك إلى البلاد العربية : وكان الخديويون يحذرون من سلطان الخليفة لأنه السلطان الذى كان من حقوقه أن يخلع أمير مصر أو يبدل نظام الوراثة أو يساوم الدول الأوربية على حساب الخديوية المصرية ، كلما كانت له في ذلك مصلحة من مصالح السياسة الدولية.

ومن هنا جاءت تلك القضايا التي ترتبط بمناصب الإفتاء ومشيخة الطرق الصوفية

ومنازعات الزوجية والكفاءة لها من وجهة النسب والوجاهة الاجتماعية ، كما جاءت تلك الأقاويل التي تدور على اتهام كبار الرجال العاملين في نهضة هذه الأمة ، لأنهم ينازعون الخليفة أو الأمير ، ولا يسهل التغلب عليهم بغير التشهير وتدبير المواقف التي تنفر الناس منهم باسم النخوة الدينية على الخصوص.

وقد ذهب عهد عبد الحميد ، وبقيت لمسألة الخلافة ذيولها التي شهد المعاصرون آثارها في حياتنا الفكرية . فإن الثورة الفكرية التي اشتبكت فيها أقلام العلماء والأدباء شهوراً في هذا البلد بعد ظهور كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لم تكن لتشتعل هذا الاشتعال لولا طموح أحمد فؤاد إلى الخلافة واعتقاده أنها توطد مكانه عند الدولة البريطانية لتستعين به على حكم الإمبراطورية الهندية ، ولو بلغ من شأنه أن يستفحل حتى يؤدى إلى سقوط الوزارة وإلقاء المشكلة الدستورية على وضع جديد.

وللناقد الأدبي - إذن - أن يجعل شعاره « فتش عن القصر » أو « فتش عن قضية الخلافة » ليفهم حقيقة لا غنى عنها في تقدير مدارسنا الأدبية في الجيل الماضي وتقدير أسباب التجمع والتفرق بين حملة الأقلام في كل مدرسة منها ، وبغير هذا « الشعار » يتعذر عليه كل التعذر أن يدرك الأسباب الكامنة وراء تكوين تلك المدارس من مجرد العلم بآثارها المكتوبة وتراجمها المعروفة

ولنضرب لذلك - مثلاً - قصيدة الاستقبال التي قيل في مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد ... وملك وإن طال المدى سيبيد

وقيل في ختامها .

أعباس ترجو أن تكون خليفة ... كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا ... نكون ببطن الأرض حين تسود

فمناسبة القصيدة - على حد قولنا مناسبة الرواية - هي قضية الخلافة واتهام الخديو عباس الثاني بالطموح إليها.

والأطراف المعنيون في القصيدة - كما ظهروا للناس - هم : السيد توفيق البكرى ؛ والسيد مصطفى المنفلوطي ، والشيخ حمزة فتح الله ، وأحمد فؤاد صاحب « الصاعقة » ؛ ومن وراء الستار السيد إبراهيم المويلحي والسيد محمد المويلحي ، والسيد علي يوسف ، وأدباء الحاشية الخديوية.

فالسيد توفيق البكري شيخ الطرق الصوفية . والسادة البكرية ركن مهم من أركان قضية الخلافة بما كان له من المكانة الدينية وما كان له في الآستانة من الصفة الرسمية التي حوته منزلة من الرئاسة تقارب منزلة الخديويين ، وهذه هي الصفة التي عناها حين أجاب الخديو عباس ، فقال في جوابه :

« أنا وزير مثلك ، وآبائي وأجدادي لهم الفضل على آبائك وأجدادك » .

والسيد مصطفى لطفي المنفلوطي كان في تلك الآونة طالبًا فقيرًا من طلاب الجامعة الأزهرية ، ولكن انتسابه إلى الشرف النبوي هو الذي قربه من شيخ الطرق الصوفية ، وزج به في منازعات الخلافة ومناوراتها .

والشيخ حمزة فتح الله هو أحد علماء اللغة من المغاربة الذين كان القصر الخديوي معنيًا بضيافتهم مع أمثالهم من علماء البلاد العربية لاكتساب الصفة الإسلامية .. ودوره في قضية القصيدة أنه شطرها ليرد هجاءها إلى ناظمها . ويعيبه عيابة خصمه من ناحية النسب وعراقة البيت ، وفي هذا التشطير يقول :

قدوم ولكن لا أقول سعيد   على فاجر هجو الملوك يريد
لئام لهم « بيت » من اللؤم عامر   وملك وإن طال المدى سيبيد

وأحمد فؤاد هو صاحب صحيفة « الصاعقة » التي أنشئت لتكون صحيفة « الهجاء الاجتماعي » الأخرى أمام السيدين المنتسبين إلى الإمام الحسين ، وقد كان يومئذ إلى جانب الآستانة ، في تردده الطويل بين القصرين : قصر يلدز وقصر عابدين ..

والمويلحيان ، وعلي يوسف - كلهم ينتسب إلى الشرف . وكلهم يخوض معركة الكفاءة الزوجية باسم الانتماء إلى السادات ، ومنظومات هام التكف وهام تكشفه بعض ثمرات هذه المناوشات .

ومن وراء ذلك حاشية الأدباء في قصر عابدين ودورهم في القضية مستور ، ولكنهم يتومون به من وراء الحملات التي تشن على أدباء القضية من وراء ستار .

• • •

وفي المرحلة الثانية من مراحل المؤامرات بين القصور وحملة الأقلام ، تأتي مؤامرات النزاع بين قصر عابدين وقصر الدوبارة مقر العميد البريطاني الذي كان يلقب بقيصر قصر الدوبارة ، وإليه يوجه حافظ إبراهيم قصيدته حين يقول :

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا   فالشرق ربع له وضج المغرب

وعنه يتحدث حين قال :

وما دام في قصر الدوبارة ربه   فسعد ودنوب لعمرك واحد

وعلاقته لعيدة بمدارس الشعر تظهر في منظومات أناس بلغ من قحة أحدهم أن يسمي قصائده بالكرومريات معارضًا بها « الشوقيات » .

• • •

ولولا أن عاملاً جديدًا ظهر في الوسط - وهو عامل الحركة الوطنية - لكان مجال مؤامرات القلمية بين قصر عابدين وقصر الدوبارة أوسع من كل مجال آخر ، بلا استثناء مجاله لأكبر بين يلدز وعابدين . ولكن ظهور هذه الحركة تحول بأصحاب الأقلام إلى معركتها الصريحة في الصحف وعلى منابر الخطابة ، ولم يترك للشئون الديوانية من الجانبين غير « إجراء إداري » في يد الإنجليز لصرف الأقلام عن الكتابة السياسية ، وإجراء إداري آخر في يد الخديو يصرفها عن الصحافة « المشاغبة » عمومًا إلى ديوان الأوقاف ، فكان نفوذ المستشارين وراء تشجيع المجلات العلمية والأدبية باشتراك الوزارات في مئات النسخ من أعدادها الشهرية أو نصف الشهرية . وكان نفوذ الخديو وراء تعيينات الأدباء الكبار والناشئين بديوان الأوقاف . ومنهم محمد المويلحي كاتب « مصباح الشرق » و« عيسى بن هشام » ، وأحمد الأزهري صاحب مجلة « الأزهر » وسيد تحرير المشرق ثم مسيخ الإسلام ، ومعهم أدباء آخرون لم يكن يحسنو يد مباشرة في تعيينهم بالديوان ، ولكن تعيينهم هناك شغلهم بالشعر عن الكتابة الصحفية وحمل من بعضهم شعره بين قوله في مدح المدائح الخديوية في مناسبات المواسم و...

• • •

وتنبت الفهوة العلاقة بين مصر والدولة العثمانية مدرسة الكتاب والأدباء الذين كانوا يضعون قدمًا في هذا البلاط أو ذاك وقدمًا أخرى في بلاط صاحبة الجلالة ، ونشأ الجيل الجديد من الكتاب والشعراء في الهواء الطلق ، أو في جو الحركة الوطنية بما اشتمل عليه من نواح وأطراف .. تارة إلى القصور وتارة غيبًا في صف المعسكر الجديد ، وهو معسكر الأمة بنواحيه وأطرافه التي أشرنا إليها .

انتهت تلك المدرسة من أصحاب الأقلام ، ولم تنته مؤامرات القصور القلمية من طرف واحد أو من كلا الطرفين .. وقد كانت المصروفات السرية بعض وسائل القصر الخديوي

لاصطناع الأنصار ومحاربة الخصوم ، ولم تكن كلها تصرف فى خدمة السياسة الخديوية أو مطامع الخديو الشخصية ، ولكن كانت كلها تصرف فيما يرضى الموكلين بتوزيعها على محررى الصحف والمشتغلين بالأدب المنظوم والمنثور ، وبعضهم كان من كبار موظفى القصر ، وغيرهم كانوا من سماسرة الرتب والنياشين غير الموظفين ، وربما استعين بأموال الخاصة لهذا الغرض إذا خيف انكشاف الأمر لديوان الرقابة على الميزانية .

وإلى عهد غير بعيد كان لأموال الخاصة – مع المصروفات السرية – عملها فى اصطناع المحررين والمؤلفين لتعبئة المعسكر « القلمى » حول دعوة الخلافة تارة ، وحول الخصومات الأدبية التى تعنى القصر تارة أخرى .

فكانت الخاصة فى عهد أحمد فؤاد تتولى الإنفاق على أبناء بعض الكتاب فى المدارس المصرية والأجنبية ..

وكانت هذه الخاصة – مع مكتب المصروفات السرية – تنفق على إنشاء المطابع والمجلات لمحاربة الأدباء المخالفين لسياسة القصر والمناصرين لدعوة غير دعوته الخفية أو العلنية .

فى هذه الفترة نشأت المدرسة الأدبية التى ينتمى إليها كاتب هذه السطور ، وفى هذه الفترة تعرضت هذه المدرسة للتشهير والتنديد فى الصحف الأسبوعية التى تخصصت للهجاء الاجتماعى والمناورات الأدبية والسياسية .. وكلها صحف يعرف من عرفها أنها تقصد بحملاتها من يبذلون المال فى سبيل اتقائها ، ولا يعنيها أمر أمثالنا من الناشئين الفقراء ، إلا أن يكون مصدر الحملة من ورائها ، لا من بين يديها !.

وتقدير الحملات الأدبية ، والمدارس الفكرية أيضًا ، فى هذه الفترة المتأخرة يعود بالناقد المحقق – لا محالة – إلى ماوراءها فى سراديب القصر وحواشيه ، فلا حيلة له فى اجتناب هذه الناحية المخفية لتصحيح الحكم على طبيعة كل حملة أدبية ولباب كل خصومة عامة أو خاصة بين القائمين بها ، وإن لم يكن كل لازمًا فى أمر المدارس المتأخرة لزومه فى أمر المدارس على عهد الأدباء الأسبقين .

ونظرة واحدة إلى ماوراء الستار قد تغنى عن بحوث مستفيضة يجتهد لها الباحثون لوزن الدعوة أو وزن الحملة بميزانها الصحيح ، فلن يدرك الباحث حق الأسلوب من الرفق أو الشدة ، ومن الاعتدال أو الاندفاع ، إذا كان نظره قاصرًا عما يستدعيه ويدفع بصاحب القلم إليه ، فإن الأسلوب الذى يستدعيه نقد فكرة غير الأسلوب الذى يستدعيه إحباط مكيدة من وراء الستار ، يمالئها سلاح السلطان كما يمالئها سلاح الدرهم والدينار .

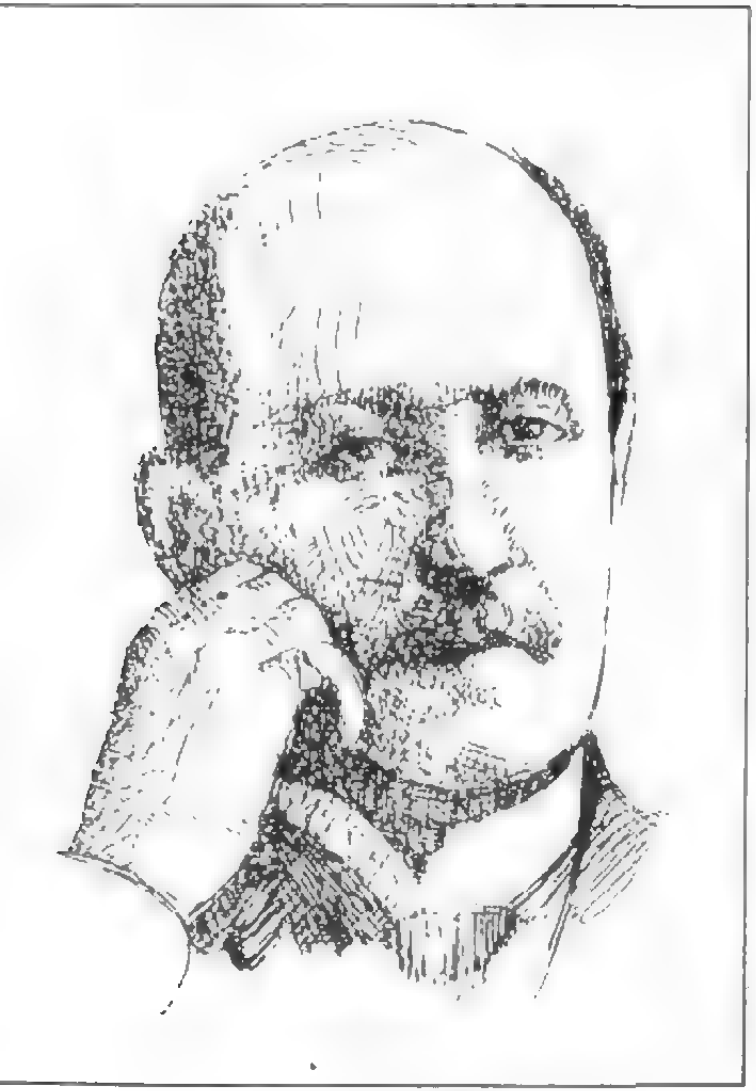

الدكتور يعقوب صروف

الدكتور يعقوب صروف

☐ كنت فى زيارة للقاهرة حين لقيت الدكتور يعقوب صروف صاحب « المقتطف » حوالى سنة ١٩٠٥ ..

وكانت زيارات القاهرة فرصة للبحث عن الكتب الخاصة التى لا تصل إلى الأقاليم مع الباعة المتجولين ، وقد يتطلب البحث عنها زيارة حى « الكتبية » إلى جوار الأزهر ، أو زيارة حى الفجالة حيث تباع المطبوعات العصرية ، لأن قوائم المكتبات لم تكن يومئذ شيئاً معروفاً فى بيئات النشر والطباعة . وكان معروفاً متداولاً منها لا يغنى عن البحث فى المطبعة التى طبعت الكتاب والمكتبة التى تبيعه .. وقلما يباع فى سواها ..

أما الكتاب الذى قصدت إلى دار المقتطف فى مدخل شارع عبد العزيز للبحث عنه ، فهو كتاب « الكائنات » لشاعر البحث العربى جميل صدقى الزهاوى ، وكانت مجلة المقتطف هى التى تولت طبعه فى القاهرة لأنه يبحث فى موضوع من موضوعات « فلسفة ماوراء الطبيعة » .. وهى تلك الموضوعات التى كانت تثير الريبة فى الأقطار الشرقية إلى ما بعد أوائل القرن العشرين .

ولقد كان لقاء الدكتور يعقوب صروف – فيلسوف العصر عند المحدثين – هو الغرض الأول من زيارة القاهرة . إذ كان فى وسعى أن أسأل عن الكتاب بمخزن المطبوعات هناك ، وكان فى وسع عامل المخزن أن يتولى إخراج الإذن ببيعه من رئيسه فى إدارة المقطم أو إدارة المقتطف ، ولكننى قدمت إلى القاهرة من مدينة « قنا » حيث كنت أعمل تلميذاً بالقسم المالى فى انتظار التثبيت وأنا خارج من إحدى « المعامع » الأدبية أو الفكرية . التى كان « يعقوب صروف » محوراً من أهم محاورها الكثيرة طوال أيام الحرب الروسية اليابانية ..

ولابد من ذكر الحرب الروسية اليابانية فى هذا المقام ، لأنها كانت فى الواقع محور المحاور فى ميادين المعسكرات السياسية والوطنية ، والصحفية والأدبية يومئذ ، بل كانت محور المحاور فى كل عصبية يثور لها الشباب الذى يعنى بشأن غير شئونه الخاصة كيفما كان ..

وكان النزاع حول الطرفين – روسيا واليابان – يشمل ضروباً من النزاع حول كل موضوع عام يشغل أذهان الناشئة على الخصوص .

فكان النزاع الوطنى يميل بالأكثرين من الشبان المصريين إلى جانب الدولة الشرقية الناهضة ، أو دولة « الشمس المشرقة » التى ألف فيها مصطفى كامل كتابه بهذا الاسم ، كأنها المثال الأول للأمم الشرقية المجاهدة فى قضايا الحرية والنهضة والاستقلال ، وفيه يقول حافظ إبراهيم :

مكنـ الميكـاد قـد علمنـا ... أن نرى الأوطان أما وأبا

وكان التنافس بين خريجى المدارس الإنجيلية والمدارس المحلية الأرثوذكسية على أشده وأوسعه فى عواصم الصعيد ، ولاسيما فى أسيوط .. فكانت روسيا رمزًا لعصبية المدارس الأرثوذكسية ، وكانت اليابان رمزًا للعصبية الأخرى لأنها صديقة الدول الإنجيلية التى تعادى روسيا فى قضايا السياسة العالمية ، وفى مقدمتها إنجلترا والولايات المتحدة ..

وكانت العداوة بين دولة القيصرة ودولة الخلافة الإسلامية سببًا لعصبية أخرى ، جمعت أنصار دولة الخلافة إلى صف واحد يناصر اليابان ، فى سبيل الوطنية وفى سبيل الدين ..

وكان أصحاب المقطم والمقتطف للمرة الأولى فى صف واحد مع أنصار الوطنية وأنصار الدولة العثمانية ، مع ماهو معروف من موقفهم حيال تركيا وحيال بريطانيا .

أما عصبية الثقافة ، فقد أبرزت أمام الخريجين من المدارس الإنجيلية اسمى : « يعقوب صروف » و « فارس نمر » صاحبى المقتطف والمقطم ، لأنهما كانا فى عالم الكتابة أنبغ من اشتهر من كتاب العلم والسياسة فى عالم الصحافة الشرقية . وكانت هذه العصبية تبلغ أعزل على ألسنة المتشيعين لهذين الكاتبين حين يجعلونهما موضوعاً من موضوعات النظم شعرًا وزجلاً . وهم لا يحسنون هذا ولا ذاك باللغة الفصحى ولا باللغة العامية .. ومما يحضرنى من أبيات « الزجل » فى الثناء على « فارس نمر » قول أحدهم .

درس نمر تعلملى وتهذيبى ... وفى فنون العصر تأصيلى

نابغى فى علوم العصرى ... وكان ماكلى فى بلاد الشامى

واسمع له فى الخطابة وتعال قل لى ... واقرأ له فى المقطم والمقتطف يا خلى

وإذا بلغ بالحماسة « الأدبية » أن تنطق من لا ينطق بهذا « النشيد » فقد يتصور القارئ العصرى كيف كانت حماسة المتشيعين لكاتب المقتطف وكاتب المقطم عن فهم وإدراك صحيح .

أما نحن — من غير ناشئة المدارس الإنجيلية — فقد كان تشيعنا لليابانيين لا يبلغ عندنا أن يشفع لـ « فارس نمر » أو يقربه إلينا ، كاتبًا أو سياسيًا ، أو عاملاً كما اشتهر فى أوائل عهده

بالصحافة ، ولكننا كنا نمحض يعقوب صروف من إعجابنا الأدبى كل ما كنا نأباه على زميله ، وكان اعتزال صروف للدعاية السياسية يخرجه من ميدان الخصومة ويكسبه من كرامة العلم ولاء مشتركًا نتفق عليه مع زملائنا الخريجين من المدارس الإنجيلية .

وقد أذكر إلى اليوم كيف لقينى رهط منهم بعد عودتى إلى قنا ومعى نسخة من كتاب « الكائنات » عليها كلمة بخط العالم الكبير .

ولقد كانوا يستمعون لى كأنهم يستمعون إلى حديث رؤيا غير قابلة للتصديق . وكانوا يسألون : كيف حييته ؟ وكيف رد عليك التحية ؟ وماذا قال لك حين أسلمك الكتاب ؟ وهل فاتحك فى بحث من بحوثه ؟.. وماذا قلت له عن المؤلف ، وعن موضوع التأليف ؟. وقد كانت دهشتهم الكبرى أننى لم أجد فى الرجل مايثير الدهشة إن كانت الدهشة بمعنى الرهبة . بل كان الرجل فى الحق مثلاً للطيبة الأبوية والوداعة الحكيمة ، ثم يختلف شعورى بلقائه الأول بعد أن لقيته مرات فى مكتبه وفى داره وفى بعض المجالس الأدبية ، ولم أره بعد ذلك على غير تلك الصورة التى شهدتها منه أول مرة !.. بساطة لاتخلو من تحفظ السمت والوقار ، ودعة أبوية يشمل بها كل من عرفوه من ناشئة الكتاب والدارسين

عتب على أول الأمر أنى فجأته بالدخول إلى مكتبه بغير استئذان ، ولكنه عاد يسمحنى حين أكدت له أننى طرقت الباب طرقًا خفيفًا لعله لم يسمعه وهو مستغرق فى القراءة . فقال مبتسمًا : « بل هو نقص فى السمع يعترينى من حين إلى حين ، فلا تؤاخذنى إذ عتبت عليك ..! »

ولكن الحدة التى فاتتنى من صاحب الدار لم تفتنى من عامل المخزن حين خرجت ... لتسلمه ورقة الإذن ببيعه — وأظنه كان متمصرًا طال مقامه بالقاهرة — لأنه نظر فى عنوان « الكائنات » وقال مازحًا : « جاك كائنة ! » .. وهى دعوة لايعرفها غير المصريين أو المتمصرين ، وإنما قالها ليقول إننى أطمحت فى تهدئة غضب الدكتور وأعميته من اجتراء كان مستحقًا له لولم أقنع الدكتور ببراءة موظفيه من التقصير ، لأنى قصدت أن ألقاه ابتداء ، ولم يكن دخولى إلى مكتبه خطأ من أولئك الموظفين .

• • •

ولا يحضرنى تفصيل الحديث الموجز الذى سمعته من الدكتور صروف فى تلك المقابلة الأولى ، ولكنه دار على الإجمال حول فلسفة « ماوراء الطبيعة » وعلقت بذهنى كلمة منه لغرابتها أولغرابة صدورها من « الفيلسوف يعقوب صروف » . وتلك هى قوله إنه لا يقبل تلك

سفة ، أولا يهضم تلك الفلسفة ، أو عبارة دارجة بمعنى هاتين العبارتين ، على حد القائلين التعبيرات الأوربية الشائعة : « إنى لا أبتلع هذه الفلسفة » .

وفوجئت ، ولا غرابة ، بذلك التصريح من رجل لم يشتهر فى عهد الثقافة العربية يومئذ بما هو أشهر من صفة الفيلسوف ، ولا نعلم أن أحداً غيره وغير زميله « فارس نمر » حصل على لقب « الدكتور فى الفلسفة » من جامعة غربية ، وإنما كنت أفهم فى بداءة عهدى بالاطلاع على فلسفة « ماوراء الطبيعة » أنها هى الفلسفة كلها أو هى الفلسفة فى أهم مسائلها وقضاياها ، فإن لم تكن هى كذلك فهى — على الأقل — شئ لا يصعب هضمه على « الفيلسوف » — بألف التعريف

إلا أن الدكتور عرفنى تلك الكلمة العابرة حقيقة رسالته فى نهضة الثقافة العربية بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين : فكان من الخطأ أن نفهم من تلقيبه بالدكتور فى الفلسفة أنه فيلسوف كفلاسفة البحوث المنطقية النظرية . فى قضايا الغيب المجهول ومشكلات « ماهية الوجود » على منهج أرسطو وابن سينا وابن رشد والغزالى ومحيى الدين ، وإنما هو فيلسوف فى نطاق العلوم التجريبية التى يقوم برهانها على الوقائع والمشاهدات وإن تناولت مباحث التاريخ والأخلاق ، ولا تقيم براهينها على الفروض والأقيسة من قبيل براهين الكائنات لإثبات الفضاء المحدود وغير المحدود .

وبعد أكثر من عشر سنوات ، سمعت منه مثل هذا الرأى فى فلسفة « ما وراء الطبيعة » خلال حديث أذكر مناسبته ولا أذكر زمنه على التحديد . وقد كتبت هذه المناسبة تعقيباً على مقال للآنسة « مى زيادة » حول فلسفة « برجسون » لم أقرها على كثير مما فيه ، وكان الدكتور صروف يقرأ تعقيبى وهو يبتسم ، ويقول بين آونة وأخرى : « يرحل ! .. أتسترجل على بنت ؟ .. » فاستعدت منه المقال ، وعلمت بعد ذلك انه اطلع الآنسة على ملخص ذلك التعقيب !

وفى خلال المناقشة حول كلام الآنسة ، وتعقيبى عليه ، سمعت منه مرة أخرى أنه ينظر إلى الفلسفات التى على غرار فلسفة برجسون من ناحيتها العلمية التى تنطبق على قضايا الحياة الإنسانية ، ولا تخوض وراء ذلك فى أحاديث « الغيبيات » وفروض ماوراء الطبيعة ، وأن فكرة التطور فى كتابة برجسون تنبه لأنها على اتصال بمذهب داروين ، ولا أذكر أننى سمعت منه - يومئذ - كلاماً يدل على التوسع فى الاطلاع على مذهب الفيلسوف الفرنسى ، ولا على مذهب زملائه الأوربيين فى تلك الفترة .

وبعد سنوات أخرى قرأت خلاصة المناقشة التى دارت بين الدكتور صروف وبين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى مجلس على مبارك باشا ، فأكدت لى أصالة هذه النظرة إلى الفلسفة فى رأى الدكتور صروف منذ زمن بعيد ، وخلاصة هذه المناقشة أنهم تحدثوا فى المجلس عن كاتب وصفته الصحف بالفيلسوف فقال الدكتور : « إن الناس قد ابتذلوا هذه الكلمة حتى صاروا يطلقونها على غير أهلها » . ثم تساءل الحاضرون : « من يكون الفيلسوف بالمعنى الصحيح ؟ » قال الدكتور فى رواية السيد رشيد رضا : « هو الذى يتقن جميع العلوم » .. فقال الشيخ محمد عبده : « إذن لا يوجد على الأرض فيلسوف » .. فعاد الدكتور يقول ما معناه : « إنه لابد أن يتقن علماً من العلوم ويلم بسائرها » . فقال الشيخ محمد عبده : « إن الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية وقبلها الثانوية ، على إلمام بالعلوم ويتقنون بعضها . فما أكثر الفلاسفة بين الأطباء والمهندسين وسائر الطلاب بهذا المعنى ! » . ولما سئل الشيخ محمد عبده : « من يكون الفيلسوف إذن ؟ قال : « إن الفيلسوف — كما يفهمه — هو الذى له رأى فى العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه » .

ولم أزل ألقى الدكتور صروف بين آونة وأخرى إلى ماقبل وفاته بقليل ، فأعرف منه فى كل مقابلة صورة واحدة لم تتغير منذ رأيته للمرة الأولى : صورة فيلسوف له عقل عالم مشغوف بالواقع من الخبرة العملية ، وله مع هذا العقل العلمى قلب إنسان ودود يحب الخير للناس ويغتبط بتوفيقهم للنجاح ..

وأذكر اغتباطه بتوفيق الناشئين إلى النجاح لأن كتابه المترجم عن صمويل سمايلز باسم « سر النجاح » كان أول كتاب قرأته له وأخبرته بإعجابى به حين سألنى عن مؤلفاته . ولم أزل كلما زرته أسمع منه سؤالاً واحداً قبل كل سؤال : « ماذا صنعت لنفسك ولمستقبلك ؟ » . فوقر فى نفسى أن كتاب « سر النجاح » لم يكن مجرد كتاب ترجمه وأضاف إليه ودل به على طريقته العلمية فى تحقيق السير والأخلاق . ولكن كان قبل ذلك ترجماناً لسجية الخير والمودة فيه ، وعنواناً لرغبته فى الحياة الناجحة ورغبته فى تعليم الناشئين حسباً كيف ينجحون ويسعدون بالحياة .

كان يقول لى مازحاً : « إياك أن تكون من شعراء شكوى الزمان ومعاتبة الإخوان ؟ وحذار أن تحسب « البؤس » زينة للأديب وقسمة مقدورة للأذكياء ؟! ..

وسألنى مرة : « ألا تصدق قول القائل : إن الناس فى طلب المال حتى يصلوا إلى العلم ، وفى طلب العلم حتى يصلوا إلى المال ؟ » .

وقبل أن أجيب سؤاله ، ولعله سأله وهو لا ينتظر جوابي عليه ، قال : « إنك إن صدقته أو لم تصدقه تستطيع أن تكون على يقين من حقيقة حسابية لا خلاف عليها وهي : اجمع الدراهم والدنانير تجمع نفسها ! » .

ولا أعرف أحدًا من كبار الأدباء الذين عرفتهم في أيام نشأتي قد عناه أمر عملي الذي أعول عليه في معيشتي غير اثنين : أحدهما الدكتور صروف ، والآخر محمد المويلحي الذي رشحني للعمل بديوان الأوقاف » .

فلما علم الدكتور صروف أني استقلت من العمل بالمدرسة الإعدادية ، فكر مليًا ثم قال : « إني أعلم أن القيادة العسكرية تبحث عن مندوبين صحفيين وتفضل أن يكونوا من المسلمين ، لأنها تنوي أن تندبهم من حين إلى حين للسفر إلى خطوط القتال وراء القناة وفي حدود سيناء ، ولا تريد أن يكونوا متهمين في رواياتهم عن ساحة تلك الخطوط إن كانوا من غير دين الترك المغيرين على البلاد .

فلما تبين مني النفور من القيام بهذه المهمة الصحفية مع وفرة العائد منها ، قال : « أرى أن شعورك غير مستريح إليها .. وقالها بالإنجليزية :

فأجبته : « نعم .. فإن المسألة إن كانت من إحدى جهتيها غارة تركية على حدود مصر ، فهي من الجهة الأخرى حرب بين الجيش التركي وجيش الاحتلال ! »

قال : « فليكن لك رأيك وشعورك » .. ثم سألني أن أعود إليه بعد يوم لأمر لا علاقة له بهذه البعثة ، فإذا به قد اتصل بمدير مدرسة وادي النيل ليبلغه إنه يرشح لمدرسته معلمين يعرف كفايتها الأدبية وصلاحها للتدريس ويسأله أن يزوره غدًا ليلقاهما عنده إذا شاء .

أما اختياره لهذه المدرسة بذاتها ، فقد كان سببه – كما علمنا بعد ذلك – أن له (أطيانًا) بإقليم الفيوم ، وأنه عرف عبد الله وهبي باشا لهذا السبب معرفة وثيقة يوم كان عبد الله باشا كبيرًا للمهندسين المشرفين على الري في ذلك الإقليم ، وقد ذكر لنا أن الباشا كان حسن العناية بأطيانه ، ولم يذكر لنا أنه هو – أي الدكتور صروف – كانت له يد في تزكية الباشا عند كبار الرؤساء الإنجليز ، ودفع الوشاية التي عرضته للمحاكمة ، وانتهت باستقالته دون تقديمه إلى مجلس التأديب .

وقد كان من جراء ذلك ، أن عبد الله وهبي باشا لم يأمل خيرًا في وظائف الحكومة لأبنائه ، فأنشأ المدرسة الثانوية باسم « وادي النيل » لابنه الأكبر ، واتجه أبناؤه الآخرون

إسماعيل ويوسف وعباس لعمل المستقبل في المحاماة وفن التمثيل وشركات الهندسة والمعمار

وإني لأذكر كلمة « الأطيان » هنا كما كان يرددها الدكتور في طيبة ودعة لا ساهيا ، لأننا كنا نحس منه ارتياحًا لتكرارها وهو يقول : « دهمت بي أطياني » و « شكرت لعبد الله باشا عنايته بأطياني » ، و « فكرت في قضاء الصيف بأطياني » . وكنا نحس مع هذا التكرار بغبطة بريئة كغبطة الطفل بكسوته الجديدة في غير عتو ولا خيلاء ونحس مرة أخرى أننا مع الفيلسوف العليم بحكمة الحياة وحب النجاح .

وتعددت الزيارات لدار المقتطف بعد اشتغالي بمدرسة وادي النيل لأن الدارين كانتا متقاربتين يومئذ بحي باب اللوق ، وكانت مكتبتي الخاصة لا تكفي للمراجعة في مباحث التاريخ والأدب التي كنت أطلب مراجعتها بدار الكتب وفي غيرها ، وقد رخص لي الدكتور في الانتفاع بمكتبة المقتطف ومجلداته القديمة كلما وجدت بها متسعًا لبحوثي التي كان يسميها بالبحوث « السبنسرية » نسبة إلى هربرت سبنسر إمام مذهب الفلسفة والعلم في الفلسفة الإنجليزية ، إذ كان يقول كلما ناقشته في رأي يخالف لرأيه إنها حجة سبنسرية :

وإن طريقتي في الاستدلال تشبه طريقة سبنسر في تحقيقاته ، وما كنت لأحيد عن « التقريظ الشفوي » اليوم في كتابتي عنه لولا أنه سجله في المقتطف حين قرظ ديوان صديقنا المازني ، فقال من مقدمتي له إنها اشتملت على تحقيقات تشبه طريقة سبنسر في الاستدلال

• • •

وعلى تعدد الزيارات لم يكن ينسى كلما زرته أن يسألني عما أصنعه لنفسي ومستقبلي ، وعما أجده في المدرسة وفي شواغلي الأدبية ، وكان يحثني كل مرة على إتمام دراستي لأبي العلاء المعري التي نشرت منها مقالين في المقتطف ثم اقتضبتها للعودة إليها مع زيادة الشرح والتحليل .. فإذا انتقل الحديث إلى موضوعات المقتطف أو موضوعات الدكتور التي يفكر فيها ، فقلما كان الحديث يستطرد بنا إلى غير اللغة ومسائل الاجتماع مما له علاقة بالدين والأخلاق . وقلما عرض للسياسة إلا أن تعن لزيارة على أثر حادث من الحوادث البارزة التي لا يتخطاها المتحدثون في إبانها ، وكذلك رأيته يومًا وعلى وجهه مسحة الامتعاض الظاهر بعد أن تعاقب إلقاء القنابل على طائفة من الوزراء ورؤساء الدولة . فقال بشيء من المرارة : « إننا تعدينا حدًّا وأفرطنا غاية الإفراط في التقدم .. ولمَ لا ؟ .. هذه مبادئ التطرف في الوطنية تنتهي إلى الطرف الأقصى من مبادئ الفوضويين ! »

ورأيته يومًا وهو يقرأ كلامًا في الصحف عن نهضة الإسلام وعودة السلطان إلى الأمم

لامية يستشهد فيه الكاتب بالآية القرآنية من سورة القصص : « ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين » .

فسألنى بلهجته اللبنانية متبسطاً : « وليش ماعمل ؟ »

قلت : « إن الخالق يريد ، وعلى الخلق أن يعملوا بما أراد »

فعاد يقول فى جد ووقار : « نعم يعود الإسلام إذا عاد أهله إلى صدق العقيدة .. » ، ثم استطرد بقول : « إن الأعرابى ولعزة لايبقيان على شئ أخضر حيث ذهبا .. ولكن غيرة الإسلام هى التى انتشلت من الأعرابى صانعاً للدول والسلطنات » ، وأحسبه قال : « إن عالِم الإسلام – محمد عبده – قد عرف طريق العودة ودل المسلمين عليه : وما من طريق لتلك العودة غير العلم والأخلاق » .

وربما جشمه البحث عن تحقيق كلمة لغوية أن يصعد السلم ليلتقط هذا الكتاب من هنا وذاك الكتاب من هناك ، فلا يستريح أو يحقق الصواب فى الكلمة قبل استعمالها فيما يكتب أو يترجم ..

رأيته يومًا على السلم يبحث عن كلمة « الشهية » هل وردت فى الكلام الفصيح بمعنى القدرة على اشتهاء الطعام ؟ وهل من الجائز أن يقال على بعض التوابل والأبازير إنها تفتح « الشهية » ؟.. فنتهى على أن كلمة المشهيات أصح مايقال فى هذا المعنى ، وأن القابلية خير من « الشهية » للدلالة على المقصود من تهيئة الجسم لطلب الطعام .

ووجدته يومًا يردد كلمات « نفق ونبق وبيك » بتضخيم الباء والكاف . لأنه كان يشك فى أصل كلمة « النفاق » ويحسب أن اجتماع الفاء والقاف فى هذا الوزن قليل فى اللغة العربية ، مطروق فى اللغات السامية والتركية .

قلت له : « لقد اجتمعتا فى كلمتى الفقر والفراق ، وهما عربيتان بلا خلاف » .. قال ضاحكا : « ياسوء مااجتمعنا : فقر وفراق !.. » .

وتطرقت الأحاديث كثيرًا إلى مسائل الدين ، ولم يكن يكتم رأيه أن الخلاف قائم بين بعض العقائد وبعض المشاهدات العلمية ، ولكنى لم أسمعه قط يتكلم عن الدين فى إجماله بغير الاحترام ، ولم يكن له موقف من الديانات ورجالها غير موقف « سيد المجتمع » من العلمة المستوية ، وهو كما رأيت منه فى شتى المناسبات شبيه بموقف الرجل المهذب أمام الشيخ المطاع ، بماله من حق السن والخبرة فى كل ماخالفته فيه .

وكذلك كان الفيلسوف الوديع فى عادات تفكيره وسلوكه : إنسانًا اجتماعيًا يعطى العلم والعمل حقها ، ولاينسى حقًا من حقوق العرف والتقاليد .

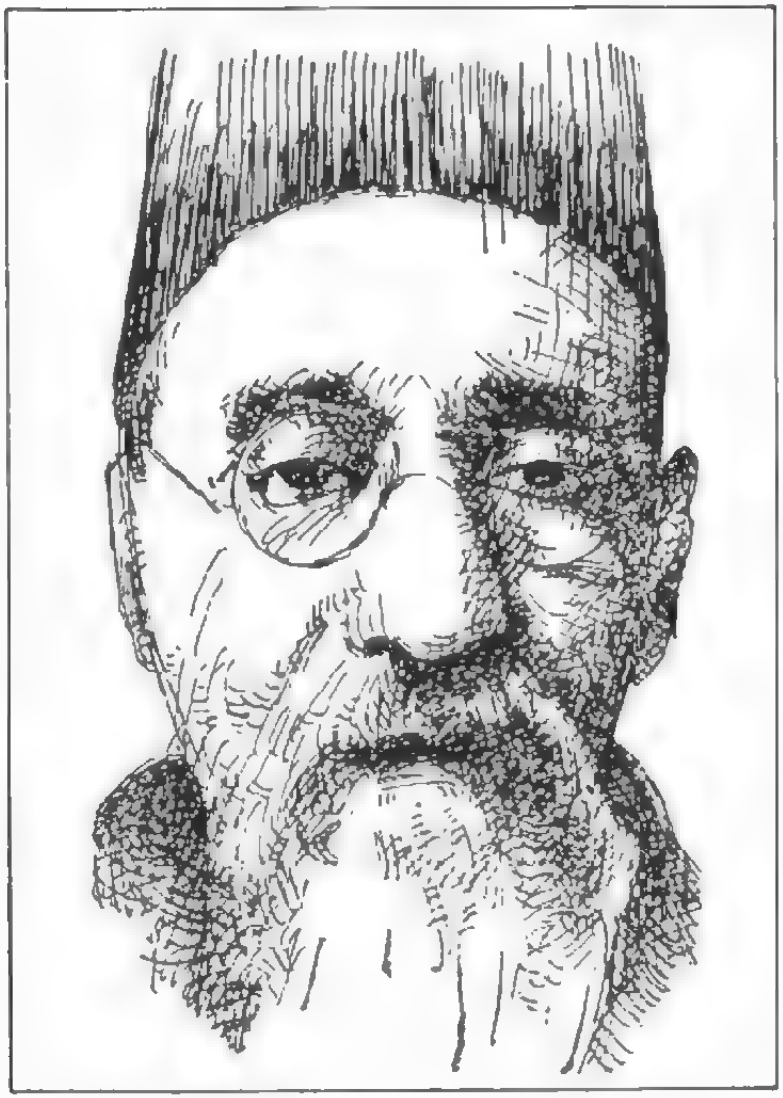

جميل صدقى الزهاوى

جميل صدقي الزهاوي

١

☐ من اللمحة الأولى تمثل لك كل مافى طوية هذه «الشخصية» القلقة من تناقض التفكير :

حماسة تختلج لها كل أعصاب جسمه ويتهدج معها صوته وتتلاحق فيه كلماته ونبراته ..

وفيم هذه الحماسة ؟..

فى النداء بالعقل وحده ، دون أن تخامره سورة من حماسة العاطفة والحنين ..

ذلك هو الزهاوى فى حديثه . وذلك هو «الزهاوى» فى صفحات كتبه ودواوينه ..

دعوة إلى برهان الواقع والمنطق ، وصرخة من صرخات الشعور .. كأنما فقدت كل برهان وكل وسيلة من وسائل الإقناع .

وكان لقائى الأول له فى مجلس الآنسة «مى» تمسكنا الأول عند ضريح الشيخ «المغربى» وهو من مزارات القاهرة فى حى من أحيائها التى تسمى بالأزبكية ..

وقد ساقنا الحديث عن الضريح المعترض فى غير مكانه إلى الحديث عن الخرافات التى تروى عن كرامات الأولياء ، واستطرد به هذا الحديث إلى ذكرياته عن مجلس الأعيان بالعاصمة التركية يوم كان عضوًا من أعضائه العرب فى عهد السلطان «عبد الحميد» .

قال : «إن قطعة من قطع الأسطول العثمانى احترقت . فقام أحد زملائه فى المجلس يقترح على الوزارة أن تشترى من كتاب «البخارى» نسخًا بعدد قطع الأسطول تودعها فيها ، أمانًا من الحريق وضمانًا للسلامة .»

فوثب «الزهاوى» ليرد على الزميل ، وليقول له : «إن السفن الحربية لا تسير فى هذا الزمن بالبخارى .. وإنما تسير بالبخار !»

وقد وثب «الزهاوى» وهو يعيد هذه القصة ما استطاع الوثوب ..

وداعبته قائلاً : «وهل سلمت من عاقبة هذا التجديف ؟»

قال فى غير تمهل : «إن لم أسلم فإننى لم أندم !.»

وأعجبت الآنسة « مى » بحديثه . فأوحت به تستثيره لمناقشتى فى مسألتين لم يكن بيننا قط وفاق على واحدة منهما : مسألة الألم ، ومسألة المرأة .

فقد كانت تدين بأن الألم طبيعة الحياة ، وكنت أعود بقضية الألم إلى قضية المرأة كلما سمعتها تردد هذه العقيدة ، فما هى إلا طبيعة الشكوى التى تحلو لبنات حواء ، وطبيعة الحنان التى يسرها أن تعطه كما يسرها أن تتلقاه .

أما الخلاف على قضية المرأة ، فقد كنت فيها مع السيدة والدة الآنسة طرفًا واحدًا نتعرد أمامه الآنسة وحدها كلما اختلفنا على كفاية المرأة للنيابة وللانتخاب ، فى إبان معركة الدستور ..

وأذكر أنى استحلفتها يومًا إذا تنافس أمامها مرشح يمشى على قدميه إلى صندوق الانتخاب ومرشح آخر يصل إليه فى سيارته « الرولز رويس » فمن منهما يظفر بصوتها ؟

فأسرعت والدتها تجيب عنها : « أنا أقول لك ولا حاجة بك إلى كلامها : صاحب السيارة ولا خلاف ! »

فلما حمل الراية فى هذا الخلاف رجل « من جنسى » كانت شماتتها أكبر من شماتة الغلبة فى الرأى . وطفقت تستعيده إلى قضية المرأة تارة وإلى قضية الألم تارة أخرى كلما أوشكنا أن نفرغ منها . فلما أردت أن أحسم هذا « النزاع » المدبر أخيرًا وقفت للأستاذ : « إنى قد أرى معك أن الآلام أكثر من الأفراح فى الحياة .. » صفقت بيديها وضحك « الزهاوى » ، ولم أمهله حتى حسبت عليه هذا الضحك حجة تفند دعواه ، فسألته : « ألست لا تنتصر كثيرًا مثل هذا الانتصار ؟ » .

ولسنا بصدد الإفاضة فى هذه المسألة لبيان المعتقد فى نصيب الحياة من الآلام والأفراح ، ولكننى أوجز ما عنيت بكثرة الألم مع إنكار طبيعة الألم فى الحياة . عنيت أن الحوادث دون الفرح قد تتكاثر وتتكرر ، ولكنها لا تمنع أن طبيعة الحياة غير حائل هى الفرح والرجاء

• • •

ورأيت بقية النقائض فى هذه « الشخصية » — التى لا تعرف التوافق بينها وبين نفسها — يوم زرته بمسكنه فى حجرته المفروشة إلى جوار صحيفة الأهرام ، فقد كان نصير السفور الأكبر يخاطب زوجته من وراء ستار كثيف يحجبها عن النظر ويكاد يحجب صوتها الخفيض لو « يجتهد » فى الإصغاء إليه !

ولم أكد أفرغ من التحدث إليه فى جملة عقائده حتى تحققت أنها وثبات كوثبات اللاعب الرياضى فى ساعة واحدة : صعود وهبوط ثم هبوط وصعود . ثم عود إلى الصعود وعود إلى الهبوط .. كأنما كان كل وقت من أوقاته نموذجًا مختصرًا لأدوار التطور فى العمر كله ، لولا أنها أدوار لا تتسلسل على اطراد ..

وعلمت بسفره فى اللحظة الأخيرة ، فأسرعت إلى محطة العاصمة أودعه وتمنيت أن أراه مرة أخرى فى القاهرة فقال : « ذلك ما أرجوه ، وأحب إلىّ أن أراك فى بغداد » .

ثم تمت النقائض جميعًا بعد سفره ببضعة أشهر .. إذ سألنى أحد قرائه فى « تونس » عن رأيى فى أدبه ، فأبديت ذلك الرأى كما اعتقدته ، وقلت إنه فى بحوثه الفكرية أرجح منه فى معانيه الشعرية .

وكان من الحق أن يغتبط نصير العقل على العاطفة بهذا الثناء الذى لا غنى فيه من وجهة نظره ، لو استقام على السواء فى إيمانه بالعقل دون الشعور والخيال ، ولكنه غضب مما كان خليقًا أن يرضيه ، وجاءنى البريد من بغداد بخطاب عليه توقيع مستعار ، يقول كاتبه : إن مجلة « لغة العرب » للأب « الكرملى » تنوى أن تتناول ديوانك بالنقد اللاذع فى لفظه ومعناه ، وإن « الزهاوى » صديق للـ « كرملى » فى وسعه أن يثنيه عما ينتويه !

إن فى هذه المناورة « البريئة » دلالة على طيبة فى غضب الرجل أظرف وأطرف من طيبته فى رضاه ، وإنها — ولا ريب — لن تصدر من قلب يضمر الكيد ، أو يكون له من الكيد حظ أوفر من حظ الطفل البرئ !

اطلعت فى مجلة « المكتبة البغدادية » على مقال للسيد « أكرم زعيتر » عن (ذكرياته لشاعر العراق الزهاوى) قال فيه من حديث جرى بينه وبين الشاعر فى آخر لقاء له قبل سفره من « بغداد » :

قال – أى الزهاوى – « هل اطلعت على « الأوشال » ؟ قد كنت أظن وقد رق عظمى أن زمنى لن يمتد بى كثيرًا ، فسميت مجموعة قصائدى الأخيرة « الأوشال » ، ثم نظمت بعد ذلك قصائد أخرى ، أعتقد أنها آخر ما أنظم فى حياتى التى أرانى مصدرها قريبًا ، وقد جمعتها فى ديوان سميته الثمالة ليكون آخر مايطبع لى .. »

قلت : « وهل للأستاذ شعر لم يطبع غير الثمالة ؟ » قال : « أجل .. إنه ديوان لا ينشر فى القرن العشرين » .

وكنت قد علمت من « الزهاوى » نفسه أن له شعرًا كثيرًا لا ينشره ، وأنه سيوصى بنشره بعد وفاته . وفارق « القاهرة » وهو يكرر فى حديثه عن الشعر المصرى الذى يعتقد أنه إذا نشر فى يوم من الأيام فلن يتسع لنشره بلد غير القاهرة بين البلدان الشرقية .

وقد سمعت أخيرًا أن كتابًا ظهر فى القاهرة باسم « الزهاوى وديوانه المفقود » فاعتقدت لأول وهلة أنه هو مجموعة الشعر التى تحدث عنها « الزهاوى » إلى الأستاذ « أكرم زعيتر » ببغداد وأومأ إليها إلى فى « القاهرة » ، واطلعت على الكتاب لمؤلفه الأديب « هلال ناجى » فصدق ظنى فى موضوعه ، وإن كان المؤلف الأديب قد توسع فى أبوابه فتناول فيه مباحث شتى عن « الزهاوى » وما كتبه وما كتب عنه ، غير ديوان « النزغات » وهو اسم الديوان المفقود .

وحرص المؤلف على تحقيق نسبة « النزغات » إلى « الزهاوى » . فاستقصى الشواهد والقرائن التى تدل على صحة هذه النسبة . وكلها مقنعة ، بل قاطعة ، فى إثبات نظم الشاعر لجملة القصائد والمقطوعات التى احتواها ديوان « النزغات » ، كما تركه « الزهاوى » عند تسليمه إلى الأستاذ « سلامة موسى » ، وعند انتقاله منه إلى الدكتور « زكى أبى شادى » بغير زيادة فيه ، وهو مرقوم على الآلة الكاتبة غير مصحوب بالأصل المخطوط

على أننا نستطيع أن نصحح نسبة النص فى هذا الديوان إلى « الزهاوى » من الدليل

« الداخل » فى أسلوب الشاعر « النظمى » كما يقول النقاد . وأظهر ما فى هذا الدليل « الداخلى » أن أبيات القصائد والمقطوعات تشتمل على كثير من ذلك الشد والفتل الذى يطوع به الشاعر كلماته لأوزان العروض .

فالشاعر الذى يقول :

عاش فى الغاب الفرد دهرًا طويلا ... قبل أنْ يُلقى للرُّقى سبيلا

هو الشاعر الذى يقول فى ديوان النزغات :

– هذه الدنيا دار كل جزاء –

وهو الذى يقول فيه :

عسى الذى خفف أرضه لن ... تخشنه صمم جديده

وغير ذلك كثير من « الأسلوب النظمى » فى سائر منظومات الديوان ..

أما الأسلوب « الفكرى » فهو كذلك مطابق لأسلوب الزهاوى فى كل ما نظم من الشعر مذ عالج نظمه فى أوائل حياته . ومما لاشك فيه أن أفكار الديوان المفقود ليست شيئًا جديدًا فى تكوين آراء الشاعر مع الزمن كما قد يتوهم القارئ من قول الزهاوى أنه آخر ما نظم . وأنه يحتوى أفكارًا لم ينشرها قبل ذلك فى حياته .

إذ اتضح من معارضة دلائل الشك والتردد ودلائل الإيمان واليقين ، أن هذه الدلائل جميعًا قد وجدت فى مؤلفاته الباكرة كما وجدت فى مؤلفاته الأخيرة ، على درجة واحدة من القوة والوضوح

وأغلب الظن أن العالم الدينى المفكر « محمد فريد وجدى » قد أصاب الحقيقة حين قال فى مجلة الأزهر ما نقله الأديب « هلال ناجى » فى الصفحة الـ ٣٠٠ من كتابه .. « إنه لاحظ أن « الزهاوى » . « يكتب الشئ ثم ينقضه بقول آخر كما فعل فى كتابه الكائنات » فقد جرى فيه على أسلوب الماديين ثم ختمه بكلمة تحت عنوان « انتهاء » حقر فيها كل الآراء التى قررها فى الكتاب . وذكر أنه إنما جرى فيها على أسلوب الماديين ليبان مذهبهم .. أما هو فبرئ إلى « الله » منهم ومن آرائهم ، ويرجو من يقرأ الكتاب ألا يعتد بما قرره فيه » .

ثم عقب الأستاذ وجدى على هذا الأسلوب قائلاً : « إنه أسلوب فى الكتابة كل ما يمكن أن يعتذر عنه أنه يلجأ إليه هربًا مما قرره » .

ركى مازيده على تعقيب الأستاذ « وجدى » إن « الزهاوى » قد يبدر فى مفتتح كتابه إلى تحقير آراء المتهجمين على الحقائق الكبرى كحقائق عالم الغيب وما يسميه الباحثون بحقائق ماوراء المادة : فإنه افتتح كتابه « الكائنات » الذى ألفه فى مقتبل صباه بهذين البيتين

وَمَا الأَرْضُ بَيْنَ الكَائِنَاتِ الَّتِى تُرَى   بِمَجْمُوعِهَا إِلاَّ ذَرَّةٌ مَفْرُدَتْ حَجْمَا
وَأَنْتَ عَلَى الأَرْضِ الحَقِيرَةِ ذَرَّةٌ   تُحَاوِلُ جَهْلاً أَنْ تُحِيطَ بِهَا عِلْمَا

وهذا غاية مايقوله المفكر المتواضع أمام عظمة الكون لكبح الغلاة من الباحثين فى حقائقه عن الشطط الأعوج والغرور الكاذب بقدرة العقل البشرى على إدراك هذه الأسرار المطبقة حول حقائق الوجود.

والذى نلاحظه فى مواقف « الزهاوى » العقلية بين الشك واليقين سهولة شكوكه وسهولة ردوده عليها فى وقت واحد:

فكل شكوك « الزهاوى » بلا استثناء مما يقبل الرد والاستخفاف من النظرة الأولى ، لأنها مبنية على تصور العامة الجهلاء للخرافات والأساطير التى يلصقونها بالدين وهو برئ منها بعيد عنها ، وليس من هذه الشكوك شك واحد يقوم على فهم الدين كما ينبغى أن يفهمه المؤمنون به على صحته ، ولقد كان خطأ « الزهاوى » الأكبر أنه يتلقى حجة العقائد من الأوهام الشائعة بين المقلدين دون الثقات المجتهدين .. وإنما تقوم قضية الدين على الضمير الإنسانى الذى يناط به التمييز بين كل دعوة تشيع فى العالم ، ولم تقم حجة الدين قط على مايفهمه المقلدون أو يفهمه المغرورون من الأدعياء .. وإنما تقوم حجته على البصيرة الصادقة والوحى الأمين .

لاجرم كان تقريره لقواعد الإيمان بعد ذلك سهلاً غنيًا عن جهد التردد والبحث فى أمثال تلك الشكوك ، ومن حق من يبتلى بأمثال تلك الشكوك أن يثوب يقينه إلى يقين « الزهاوى » الذى عبر عنه بهذه الأبيات فى موقف الحساب :

قَالَ مَا دِينُكَ الَّذِى كُنْتَ فِى الدُّنْـ   ـيَا عَلَيْهِ ، وَأَنْتَ شَيْخٌ كَبِيرُ
قُلْتُ : كَانَ الإِسْلاَمُ دِينِى وَهُوَ   دِينٌ بِالاحْتِرَامِ جَدِيرُ
قَالَ : مَنْ ذَا الَّذِى عَبَدْتَ فَقُلْتُ   « اللهُ » رَبِّى وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ

وقبل ذلك يقول من كلمة منثورة : لم آت فى حياتى أمرًا إدًّا ولا ارتكبت منكرًا . أنطقنى الشعر وأودعه عصارة شعورى وتفكيرى ، وأجعله منبرًا أدافع منه عما يتراءى لى أنه الحق ، غير حاسب لمخالفة الناس إياى حسابًا ... وهذا ما كان يثيرهم علىَّ ويحملهم يحملون على مماكسى

حتى همُّوا مرة أن يقتلونى مع أنى معتقد بالوحى مؤمن بالأنبياء وبالمرسلين وملائكة « الله » وكتبه ، وقمت بشعائر الدين كلها فصمت وصليت وزكيت وجاهدت وحججت إلى بيت « الله » وزرت قبر رسوله الكريم ﷺ »

وهو الذى ردد هذه الشهادة فى مواطن كثيرة من شعره ، كما قال فى هذا المعنى غير مرة :

أَنَا مَا كَفَرْتُ كَمُغْتَرِى   بِالكِتَابِ المُنْزَلِ
أَنَا لَسْتُ أَزَلْ أَشْدُو بِنَعْـ   ـتِ لِلنَّبِىِّ المُرْسَلِ

وإنه بمثل هذا اليقين لخليق أن يكذب كل مابك الشكوك التى تثيرها أوهام الجهلاء وخرافات أصحاب الخرافات من المقلدين .

وجملة القول فى الديوان المفقود وفى الدواوين المنشورة أنها طور واحد من الفكر لم يتغير فى مدى خمسين سنة ، ويوشك أن ينقل كل بيت فى ديوان من هذه الدواوين المتتابعة إلى ديوان آخر صدر قبله أو بعده ، بغير اختلاف فى المعنى أو فى النسق أو فى الأسلوب ، إلا ماتقتضيه المرانة الطويلة من تيسير النظم فى نهاية الشوط بعد تعسر فيه عند الابتداء .

والسرعة إلى التفكير ، مع السرعة إلى العدول عن الفكرة فى وقت واحد ، هما آفة العجلة فى موجهة « الزهاوى » مسائل العلم والأدب أو مسائل الاجتماع والأخلاق . فليس أسرع منه إلى اختطاف الرأى الشائع أو اختطاف الرد عليه ، ونحسب أن بنية الرجل « مسئولة » كما يقولون عن هذا الولع بالسرعة والقلق من الاستقرار .. فإن مصابه بالداء الذى أقعده عن الحركة قد بدأ معه اضطرابًا مقلقًا قبل أن يقل على أعصابه ويثقله عن حركته ، وما أكثر ماتكلم فى « الصراط » وصعوبة العبور عليه من شعره الأول ومن شعره الأخير

ولا ريب عندنا ، ولاعند قراء « الزهاوى » شعرًا ونثرًا ، فى قدرته الفكرية ولافى ملكته الرياضية ولكنك تترجمه من بواكيره إلى خواتيمه فيبدو عيبه أنه يثب إلى الآراء وثبة بعد وثبة ولايتطور معها على أمد منتهد يتصل فيه الانتقال من مكان إلى مكان ، فهو فى وثباته المتلاحقة على مكان واحد يصعد منه وينزل إليه ، ويثب عليه صاعدًا ونازلاً ومترددًا ومستقرًا ، وهكذا كان فى آخر ديوان كما كان فى أول ديوان وللقارئ بعده أن يبقيه حيث شاء ، بما هو أهل للبقاء .

٣

جاءني الخطاب الآتي من أحد القراء بـ « تونس » .. قال كاتبه الأديب بعد ديباجة التعارف :

« أما لآن فبقيمكم ضد الترثرين ، وتقريضكم أبناء ما كانوا يحسبونه آثارًا أدبية ، وإماطتكم اللثام عن كل من كنا نعدهم من الشعراء الفحول والكتّاب المبرزين .. قد أسفرت النتيجة عن تجدد حقيقي في اللغة والأدب ، إذ أدركوا ماترمون إليه في انتقاداتكم فهبوا يجارون فيه جاهدين قرائحهم وصارفين مهجهم نحو « الحياة » . نحو « الجمال » .. نحو « المثل العليا » .. تلكم الكلمات الحية التي توجهت طرفي نحو أي سطر من فصولكم ومطالعاتكم ومراجعاتكم ونحو أية صفحة مما تكتبون إلا عثرت عليها . ونصرف مهجتكم إلى هذه المطالب ونقدكم الصحيح الخالص من الأغراض ، وسعيكم وراء الحقيقة – رضي القوم أم غضبوا – أثبت أعرض عليكم كلمة في حق صباي ومرق روحي راجيًا منكم التفضل بإبداء رأيكم فيه ولكم الشكر الجزيل سلفًا .. لأن كل ما أنبأكم الخلال جعلتني كما جعلت غيري يعتبرون نونكم الفصل فيمن تكتبون له أو عليه .

ذلكم الرفيق ياسيدي هو فخر العراق كما تقولون « جميل صدقي الزهاوي » ، لقد عرفته منذ دخلت المدرسة وولعت بديوانه حتى أني كدت أن أحفظه نثرًا ونظمًا ، في رعته في الشعر إلى قوله في القبر :

وَلَسْتُ بِمَسْئُولٍ إِذَا مَا سَكَنْتُه ... أَكُنْتُ عَبَدْتُ « الله » قَبْلاً أَمِ اللاتا

إلى قوله في مهاجميه :

يَا قَوم مَهْلاً مُسْلِمٌ أَنَا مِثْلُكُم ... « الله » ثُمَّ « الله » في حُكمِي

وعندما أسأم استمرار قراءاتي فيه . أعمد بعد تحضير واجباتي المدرسية إلى مطالعة أحد الدواوين فأرى نفسي كأني انتقلت من روضة حافلة بأزهار من كل صنف راهية بالماء الزلال الجاري و« الهزار » على أشجارها يشدو بنغماته العذبة الشجية إلى أرض قاحلة لاماء فيها ولاشجر ولاهزار . فلا ألبث أن أعود إلى ديواني الأول ، وشغفي به يزداد كلما رأيته سابقًا وغيره لاحقًا .. وهكذا .

وما أقوله لكم في ديوانه . أقوله لكم في مباحثه التي تنشر في « الهلال » ، حتى أني إذا لم أجد فيه فصلاً من فصول « الزهاوي » نغصت نفسي لذلكم كثيراً .. وإذا رأيت فيه مبحثًا له قدمته على سائر الموضوعات ، فقرأته وأعدته المرار العديدة حتى تعلق بذهني جمل منه ومن الجمل أفكار ، ومن الأفكار ماقضت . تنتهي بي إلى قضاء جزء كبير من أوقاتي معه . وجماع القول إن السيد « جميل » هو أحق بالنقد من سواه ، ومن يظهر آثاره الأدبية والفلسفية . وهذا لا يتصدى للبحث به إلا أمثالكم الذين يقدرون الأدب حق قدره ، إذ من عهد لمن نبق كما قال فيلسوف العراق لا نعرف قيمة للأديب في قطرنا إلا بعد مماته :

من بعد ما في قبره ... أوصاله نبشه
صلاة من التكريم يسـ ... ـجو ميت لا يشعر

هذا وإني أعتذر إلى سيدي الأستاذ من تجرئي على مكاتبته ؛ إذ لست ممن يراسلون أمثاله .. ولولا إعجابي بـ « جميل صدقي الزهاوي » ورجائي لناقد خبير ينشر للقراء آراءه . ويبين لهم قيمها من ناصيتها ، ماتسرعت في المراسلة أرجو مايقال في فخر العراق وعنه » .

جاءني هذا الكتاب من شهر مضى ، وفيه غير مفترت هنا كلام مسهب في شتى هذا المعنى ولواحقه .. لمحت من لهجته وخلوص إعجابه أدبًا جمًا ونفسًا مستشرفة إلى الحقيقة ، وهممت أن أجيبه إلى رغبته ولكني ترددت لأني أعلم أني أستطيع أن أنبسط في شرح كل رأي أراه في الأدب والشعر ، دون أن أعرض للأستاذ « الزهاوي » نقدًا أو تمجيدًا أو حمدًا أو ذمًا ، ولأني أوقر هذا الباحث الفاضل وأعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته في جهاده وغربته بين قومه ، فلا أحب أن أقول فيه – لغير ضرورة من ضرورات البحث – مقالاً لا يؤدي ذلك التوقير ولايناسب ماله عندي من القدر والرعاية .. ثم عنّ لي أن في الكلام عليه مجالاً لكلمة أخرى تقال عن التفريق بين الملكة العلمية والملكة الشعرية وبين بديهة الفيلسوف وبديهة العالم ، لا ضير منها على أحد عامة ولا على الأستاذ « الزهاوي » ومن يعجبون به خاصة .. إذ هو ممن يدل فيهم قول حق لا يغضب الطبيعة القوية والنفس المروضة وضمير الواثق من قصده وعمله فكتبت هذا الفصل الموجز آملاً أن أجيء فيه بحقيقة سوغ مساس برجل لا أحب أن أمسه بغير مايرضيه .

أول كتاب قرأت لـ « الزهاوي » كان كتاب « الكائنات » أو « رسالة الكائنات » . لأنه رسالة مختصرة من القطع الصغير .. وكان ذلك قبل عدة سنوات ، وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة ومباحث الدين والفلسفة .. فراقني من الرسالة سداد

النظر وقرب المأخذ ووضوح التفكير والجرأة على العقائد الموروثة مع ما فى ختام الرسالة من اعتذار لايخفى ماوراءه ولايغير رأى القارئ فيما تقدمه وكنت كلما عودتها نسيت فيه منطقاً صحيحاً يذكر القارئ بإشارات «ابن سينا» وتجاته ويزيد عليها بالجلاء والترتيب .. ثم قرأت للـ «زهاوى» شعرًا ونثرًا وآراءه فى العلم والاجتماع تدل على اطلاع واستقلال ونزعة إلى الثقة والابتكار ، وكان آخر ماقرأت له رسالة «المجمل مما أرى» ثم شعر ينشره فى الصحف المصرية من حين إلى حين .

هل «الزهاوى» شاعر ، أو عالم ، أو فيلسوف ؟.. إن آثاره فى الشعر والنثر تدعوك إلى هذا السؤال ، فمباحثه مما يتناوله الفيلسوف والعالم ، ونظمه يسلكه بين طلاب المقاصد الشعرية . وقد يختلف جواب الناس على السؤال الذى سألناه فيعده بعضهم من الفلاسفة وبعضهم من الشعراء ، ويميل به بعضهم إلى فريق العلماء . أما أنا فرأيى فيه أنه صاحب ملكة علمية تطرق الفلسفة وتنظم الشعر بأداة العلم ووسائل العلماء .

الشاعر صاحب خيال وعاطفة ، والفيلسوف صاحب بديهة وبصيرة وحساب مع المجهول ، والعالم صاحب منطق وتحليل وحساب مع هذه الأشياء التى يحسها ويدركها أو يمكن أن تحس وتدرك بالعيان ومايشبه العيان ، فإذ قرأت مباحث «الزهاوى» برزت لك ملكته المنطقية لاحجاب عنها .. ولمست فى آرائه مواطن التحليل والتعليل ، ولكنك تفتقد فيها الخيال كثيرًا والعاطفة أحيانًا . وتلتفت إلى البديهة فإذا هى محدودة فى أعماقها وآفاقها بحدود من الحس والمنطق لاتخفى لها مطالع الأمن ولامسارب الأغوار ، فهو يريد أن يعيش أبدًا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار ، ولا تنطبق فيها الأجفان ولاتتناجى فيها الأحلام .. وليست دنيا الحقيقة كلها نهارًا أو شمسًا ، ولكنها كذلك ليل وغياهب لاتهتدى فيها الكهرباء ! وقد خلق الخيال والبداهة للإنسان قبل أن يخلق العقل . ثم جاء العقل يتممها ويأخذ منها لا ليلغيها ويصم دونها أذنيه . فأما «الزهاوى» فهو يحاول أن يلغى الخيال والبداهة ، ويظن أن الإنسان لايتصل بالكون إلا بعقله ولا يهتدى إلى الطريق المقطور إلا بعقله . وليس هذا بصحيح فى حكم العقل نفسه إذا أنصف العقل ووفى لمنشأه الأول وقصارى مطمحه الأخير .

إن كل منطق لايكون صحيحًا إلا إذا دخل فى حسابه أمران محيطان بنا متغلغلان فينا لامهرب منهما ولاروغان .. نعنى بهذين الأمرين «المجهول» أولاً و«العاطفة» ثانياً ، فما رأيتك لكل قصة منطقية يهملانها هدمًا مالم يكن لهما فى زواياها مكان مقدور ، فالعالم لا شأن له بالمجهول وليس له شأن كبير بالعاطفة كما يحسها الشعراء ، وهو ، إذا أراد ، حصر نفسه

فى معمله وخرج منه بنتيجة عملية لاغبار عليها من ناحية النقد والاستقراء . ولكن الفيلسوف إذا خرج إلى الدنيا لامجهول فيها ولاعاطفة توحى إليها إنما يخرج إلى دنيا غير دنيانا هذه .. وإنما يأتى لنا بفلسفة خليقة بعالم آخر غير عالمنا الذى يحيط به مجهوله وتعمل فيه عواطفه . وقد يصيب بمنطقه هذا فى حقائق الأرقام والإحصاءات ولكنه لايصيب به فى معانى الشعور وأسرار الحياة ، إذ كيف يحسب حساباً لهذه المعانى والأسرار وهو لايحسها ولا يتقاد لبواعثها ؟.. وكيف يصيب فى المباحث النفسية وهو لا يحسب حساباً لتلك المعانى والأسرار ؟

من منا يكون محباً معقولاً مطابقاً للمنطق إذا هو نظر إلى حبيبه بالعين التى يراه بها جميع الناس ؟ إن نظرك إليه قد يكون معقولاً مطابقاً للمنطق إذا نظرت إليه بتلك العين التى يراه بها من لا يحبونه ولا يؤثرونه على سواه ، ولكنك أنت نفسك – أنت الناظر – لاتكون «محبا منطقيا» موافقا للمعقول والمعلوم من شئون المحبين حين تتساوى أنت وسائر الناس فى الإعجاب بحبيبتك ، لأن المحب المعقول هو الذى يرى حبيبته بعين لا يراها بها الآخرون .. وكذلك الحياة قد تكون أنت منطقيا إذا عرفتها بالعقل وحده كما يعرفها غير الأحياء لو كان غير الأحياء يعرفون الحياة .. ولكنك لاتكون «حيا منطقيا» إذ أنت لم تعرفها كما يعرفها كل حى مخدوع بها غارق فى غمرة عواطفها وأشجانها .. فكن لنا «حيا منطقيا» أو أنت إذن إنسان لايعتبنا رأيه فى الحياة لأنه ليس منها بمكان قريب أو على اتصال وثيق .

و«الزهاوى» تغريه الحقيقة حيث يسعى إليها على جناح من العقل ، لا يعضده جناح من الشعور .. فلم أغتبط بعرض الشعور لتفكيره مثل اغتبطت به وهو يحاول – بالمنطق – أن يثبت الرجعة إلى هذه الأرض بعد الممات أو إلى عالم آخر ينتقل إليه الإنسان ، فهو يقول فى «المجمل مما أرى» إن «مظاهر الحياة من مظاهر المادة التى ليست فى أصلها إلا قوة . وإن هذا الفضاء الذى صرحت بأنه لايتناهى ، يحتوى على عدد غير متناه من العوالم الشمسية . وإن فى كثير من هذه العوالم نظاماً مثل نظامنا الشمسى ، وإن فى ذلك النظام أرضاً مثل أرضنا ، وفى بعضها أرض تشبه أرضنا إلى زمن محدود ثم تختلف عنها : وإن فى كل أرض مشابهة لأرضنا إنساناً مثلى وآخر مثلك وآخرين مثل غيرنا من الناس ، قد ولدوا من آبائهم كما فى أرضنا ، وقد جرى لآبائهم فيها ماجرى لهم فى هذه تمامًا ..

«وبعض هذه الأرضين اليوم مثل أرضنا فى حالتها الحاضرة ، وبعضها أخذت تهدم ، وبعضها فى بداءة تألفها .. فإذا مات الإنسان فى أرضنا : فهو يولد فى غيرها من نفس آبائه الذين ولد فى أرضه هذه منهم ، وإذ إن هذه الأرضين لا تتناهى فكل فرد من الناس غير

متناهي العدد .. غير أنه في كل أرض واحد يجهل أن له أمثالاً في هذا الكون اللامتناهي ، وإن الذي يشقى في هذه قد يسعد في التي تشبهها إلى زمن محدود ثم تخالفها فإن عدد هذه المخالفات أيضًا غير متناه ، والذي يسعد في هذه قد يشقى في تلك فالطبيعة عادلة قد قسمت السعادة والشقاء على السواء .. فإن ربمّا إذا كان هنا شقيا فهو في أخرى سعيد ، وإذا كان سعيدًا فهو في تلك شقي .. وأرضنا هذه بعد أن تصير إلى الأثير تتولد ثانية بعد ربوات الملايين من السنين ، فيجرى عليها تطوراتها طبق ماجرت في دورها هذا ، ويتولد آباؤنا كما تولدوا ، ونتولد منهم كما تولدنا ، ونموت كما في هذه المرة وقد تكررنا من الأزل وسوف نتكرر إلى الأبد ..

« ورب قائل : ماالفائدة من هذا التكرار وهو لايتذكر مامر به في أدواره الأولى؟ فأجيب : إن فائدة التذكر هي العلم ، فإذا حصل إليه العلم بطريقة أخرى فهو مثل العلم بالذكر وكفى به نفعًا إنه يعلم الإنسان أن موته مؤقت ليس أبديًا . وهذه النظرية مبنية على أسس ثلاثة . الأول أن العالم بما فيه من الأجرام غير متناه . والثاني أن لا شئ يذهب إلى العدم بل ينحل تركيبه وينحل إلى الأثير بعد تطورات متعددة .. وهذا الأثير يتركب من جديد فيكوّن مادة بعد تطورات متعددة ، ثم ينحل ثم يتركب إلى مالا ينتهى . والثالث أن جواهر كل جرم من الأجرام متناهية العدد مهما كثر هذا العدد ، وأقدارها كذلك متناهية .. ولا يمكن أن يوجد جرم واحد غير متناهي السعة والأرض هذه تتألف في أزمنة غير متناهية على أشكال لأن جوهرها متناهية ، وشكلها الحاضر أحد تلك الأشكال غير المتناهية التي تتألف عليها وتدور من أحدها إلى الآخر .. فهو كغيره من الأشكال يتكرر إلى مالا نهاية له والإنسان جزء متمم لشكلها الحاضر .. فهو أيضًا يعود بشكله وعقله وإلا لم يكن الدور تامًا ، والعالم أجمع تابع لهذا الناموس الدوري الأعظم » .

هذه هي نظرية الدور كما أجملها الأستاذ « الزهاوي » في رسالته « الجسم حيا أبدًا » .. فالمنطق هنا يتكلم ، ولكن حب الحياة هو الذي يحركه في الكلام ! .. على أنه يعد منطق لم يمتزج بالحياة في الصميم لأنه يتعزى بالعلم ، والحياة لايعزيها أن تعلم بأنها خالدة وإنما يعزيها أن تشعر بالخلود ، وهو بعد هذا وذاك منطق خاطئ لأنه يستلزم الدور ولا شئ يدعو إلى استلزامه .. فما دامت الجواهر لا تتناهي ، والحركات لا تتناهي ، والفضاء لا يتناهي فالنتيجة أن تكوين الأجرام بأشكالها لا يتناهي .. ولا حاجة إلى تكرارها وعودتها هي بعينها مرة بعد مرة إلى غير نهاية ، ويجب الآن أن نضرب صفحًا عن لا نهاية الزمان التي تخدعنا باحتمال هذا التكرار فيما يلي أو فيما سبق قبل الآن ، يجب أن نضرب صفحًا عن لانهاية الزمان لأن لا نهاية الفضاء موجودة في هذه اللحظة ، فأي شئ فيها يستلزم أن الأرض مكررة في مكان غير مكانها

الذي هي فيه ؟.. لا شئ ! . وإذا لم يكن إنسانًا مكررًا على هذه الأرض بعينها ، فهل إذا نفرض أن كل إنسان مكرر في أرض تشبهها تمام الشبه في هذا الفضاء السحيق ؟

• • •

ثم إلى أين ننتهي من كل ذلك ؟.. ننتهي إلى أن الأستاذ « الزهاوي » صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع ، وأنه يحسب في تفكيره ماهو من المسائل التي يجتزأ فيها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر إلى البديهة والشعور ، فمن ينشده فينشد عالمًا ينظم أو يجمع بين الفلسفة فهو قمين بإصغاء إليه وإقبال عليه في هذا المجال ومن خير مكان له هو بين رجال العلوم ورادة القضايا المنطقية .. فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعراء مثل ذلك المكان .

قرأت في زميلتنا « السياسة الأسبوعية » ردًا للأستاذ « الزهاوي » على مقال كتبته عنه مجيبا به الأديب التونسي الذي سألني إبداء رأيي فيه ، وكان فحوى ذلك المقال أن نصيب الأستاذ « الزهاوي » من الملكة العلمية أكبر وأصلح من نصيبه من الملكة الفلسفية والملكة الشعرية .. ولم يرض الأستاذ عن هذا الرأي فكتب رده في السياسة الأسبوعية بالشه وبناقض الأسباب التي بنيته عليها . فهو يحب أن يقول إنه فيلسوف وإنه شاعر لا يقل حظه من الفلسفة ومن الشعر عن حظه من الملكة العلمية . وليس يضيرني أنا أن يزيد عدد الفلاسفة والشعراء في الأرض واحدًا أو أكثر ، فإنني لم أتكفل بهم ولا تحسب عليّ أخطاؤهم أو يختلس مني صوابهم . ولست ممن يحبون الجدل في غير حقيقة تجلى أو رأي يستوضح . فإن الجدل الذي يطول فيه الأخذ والرد لغير شيء من هذا هو لغو كلام وفضول بطالة .. فإذا رجعت اليوم إلى الموضوع فليست رجعتي إليه لحرص على تقليل حظ « الزهاوي » من الفلسفة والشعر ، ولا المطاولة في الجدل . وإنما هي لاستخراج الحقيقة التي أردتها من رد الأستاذ نفسه ، وبيان للمعنى الذي ذهبت إليه من طريقة الأستاذ في ملاحظة الأشياء وفهم أعمال الناس

ليس للمجهول ولا للعاطفة حساب كبير في إدراك الأستاذ « الزهاوي » لأعمال الإنسان ، ولهذا فإنه يخطئ في تصورها والحكم عليها ومتابعتها إلى أسبابها وغاياتها ، وفي رده أدلة كثيرة على حاجة الفيلسوف – فضلاً عن الشاعر – إلى حسبان ذلك الحساب ، وفهم الإنسان ومكانه في هذا الكون كما هو إنسان في حقيقته لا كما يتصوره الذين يحدونه بالعقل وحده غير معتمدين على البديهة وعلى الشعور .. وإليك بعض هذه الأدلة مأخوذة من ذلك المقال :

(١) يقول الأستاذ « الزهاوي » : « من طار بجناح العقل أخيرا لندبرج وصل إلى باريس من نيويورك في ٣٤ ساعة فليخبرني الأستاذ إلى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة ؟! » .

وأنا مخبره إلى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة : أخبره أنهم وصلوا من نيويورك إلى باريس في ٣٤ ساعة ولعلهم يصلون غدًا في أقل من هذه الساعات ، لأن لندبرج لم يطر على المحيط الشاسع المخيف بجناح العقل بل بجناح العاطفة وحدها طار ، وعلى جناح العاطفة وحدها تلقته الجماهير التي هتفت له هتاف الحمد والإعجاب .

ولم يسبق لندبرغ طائر في الفضاء ، ولن يلحق به طائر مثله ، إلا كانت العاطفة هي محركه وهي جناحه وهي جزاؤه إذا نجح وعزاؤه إذا خاب ، وليس الطيران كله إلا حلمًا من أحلام العواطف لنجح الرغبة ولعب الخيال فجاء العقل كالخادم الأجير يحقق ماتعلقت به الأخيلة واتجهت إليه الرغبات .

وأي عقل يزين للندبرغ أن يخاطر بحياته بعد كارثة المفقودين في هذا المضمار القاتل ؟ وأي عقل يزين له أن يرفض المال الذي انثال عليه من شركات الصور وطلاب المحاضرات والمساجلات ؟ ليس العقل هو الذي أعطانا الطيارين وآلات الطيران ، وإنما هي دوافع الإحساس وبواعث الخيال ، وهي « العواطف » التي تحمل الإنسان على كل جنوح إذا قعد به التفكير وحده في قرارة العجز والجمود .

ونتجاوز نحن هذا الحد إلى مابعده : فنقول إن الغربيين في هذا الزمان يسبقوننا في ميدان الكشف والاختراع لأنهم يطلبون من الحياة فوق مانطلب .. لا لأنهم يحسنون مالا نحسنه من الفهم والتفكير ، فكل مصنوع يصنعه الغربيون نستطيع نحن الشرقيين أن نفهمه ونصنع على مثاله ولكن لا نستطيع السابقة لأنها وليدة البواعث وهي قاعدة عندنا ناهضة عندهم .. فالتفاوت بيننا وبينهم تفاوت في البواعث ، أي في الخلق والإحساس وليس تفوتًا في العقل والتفكير ، وطريقتنا نحن في الإحساس بالأمور هي التي ينبغي أن يتناولها الإصلاح وليست طريقتنا في فهم مايحتاج إلى الفهم والتحصيل

. . .

(٢) ويقول الأستاذ « الزهاوي » : « أنا مادي لا أرى لغير الحواس أبوابًا لمعرفة مستثنيًا من ذلك معرفة ذاتي ، ولا آذن للخيال أو العاطفة أن يجيآ باب الشعر إلا إذا اطمأننت إلى أنهما لا يفسدان وجه الحقيقة التي مازلت أتغنى بها في شعري » .

أما الذي أقوله أنا فهو أن الحياة هي التي خلقت الحواس ، وهي صقلتها وهذبتها وألهمتها أن تعي مايتصل بها ، وإن الحياة لم تطق إفلاسها بعد خلق الحواس ولاقبله فهي شيء أكبر من الحواس وهي على اتصال وثيق لاانفصام له بهذا الوجود قبل أن تفتح بينها وبينه نوافذ الآناف والأذواق والأسماع والأبصار .. وإن الحواس تتفاضل بقدر مافيها من الشعور والاستمداد من باطن النفس لا من ظواهر الأشياء .. فالدنيا لاتتغير. ولكن نظر الشاب إليها غير نظر الشيخ وإحساسه بها على الجملة غير إحساسه .. لماذا ؟ لأن الحواس تستمد شعورها من القوة الحية التي خلقتها ونوعتها وهي قادرة على تغيير الخلق والتنويع . وليس بالمنطق الصحيح ذلك المنطق

الذى يجهل أن الوظيفة تسبق العضو : وأن القوة الحية تنشئ الحاسة وتزيدها وتبدلها .. فهذه القوة الحية تدرك ما هى فيه وإن اختلف أسلوب إدراكها عن أسلوب الحواس فى الإدراك ، بل لولا هذه القوة الحية الخالقة لما عملت حاسة فى الجسم شيئاً ، فلتكن للحواس إذن معرفتها المحدودة التى نعهدها فى العلوم والصناعات : ولكن لايعزب عنا أبداً أن وراء هذه الحواس ينبوعاً لا ينفد من وسائل الادراك ، وإن كان إدراكاً لاحد له من الصيغ والتعريفات

• • •

(٣) ويقول الأستاذ « الزهاوى » : « لو جعلنا الخيال والبداهة فى المنزلة التى يضعها فيها الأستاذ الفيلسوف لوجب أن يكون الإنسان الابتدائى ، بل الحيوان ، أكبر فلاسفة الأرض .. لولا ماينقصها من البصيرة والحساب ، أما الذى أعرفه أنا فى الفيلسوف فهو تحريه للحقائق المستورة عن الأكثرين بنظره النافذ ليكشف أسرار الطبيعة ويستفيد من نواميسها ويفيد غيره ، وما الفيلسوف الذى الذى يرضى عواطفه وإلا كانت الحيوانات كلها فلاسفة كما سبق . وكم جرح « دارون » الشهير عواطف الناس بنظريته فى نشوء الإنسان من الحيوان ، وكم خالفه أهلها وكم مقتوه وعادوه وسبوه لأنه خالف عواطفهم ، ولكن فى النهاية كان هو الفيلسوف ومعارضوه بقوا ذوى عواطف لا غير » .

هذا الذى يقوله الأستاذ « الزهاوى » ..! ويدهشنى منه أنه يتكلم عن العاطفة كما يتكلم عنها المفتنون و« أولاد البلد » حين يتشاكون جرح العواطف ويتناشدون رعاية الإحساس ! فهم إذا قالوا : « فلان صاحب عواطف » قصدوا بهذه الصفة أنه لايجرح عواطف الآخرين وأنه « حسيس » بالمعنى الذى يفهمونه ! وليس هذا مانريد ؛ لأن العواطف قد تجرح العواطف كما تبقى عليها .. فالحب عاطفة ولكنه يجرح كثيراً كثيرة ، والغضب والإعجاب والحماسة والغيرة عواطف كلها ولكنها قد تجرح من النفوس أكثر مما تواسيه . وليس تقسيمنا الناس إلى أصحاب عقول وأصحاب عواطف تقسيماً لهم إلى من يجرحون نفوس الآخرين ومن لا يجرحونهم ، فإن أصحاب العقول ربما عرفوا كيف يسوسون الناس فلا يغضبونهم فكانوا بذلك أقمن ألا « يجرحوا العواطف » بلغة المفتنين و« أولاد البلد » المتظرفين .

وأدعى من هذا إلى الدهشة أن يقول الأستاذ أن نصيب الحيوان والإنسان الأول من الخيال والبديهة أكبر من نصيب الإنسان الأخير ، فالحقيقة أن الحيوان لا خيال له ولا بديهة .. وأن الإنسان الأول أقل نصيباً من الإنسان الأخير فى هاتين الملكتين . وليس نصيبنا نحن من

الفهم ما نعلم أننا نفهمه ، بل نحن نفهم أشياء شتى بالبديهة وبالخيال ولانعلم بها وهى تعمل عملها فى الإحساس والتفكير .

ولقد ذكر الأستاذ اسم « دارون » صاحب « النشوء والارتقاء » .. فهل له أن يذكر أيضاً أن الخيال كان أصدق من العقل ألوفاً من السنين حين كان العقل يجزم بقيام كل نوع على انفراده ، وكان الخيال يقص علينا قصصه ويجزم لنا بتقارب الأنواع وتلاحم الإنسان والحيوان ؟ نعم إن الخيال لم يقص لنا « النظرية » العلمية لأن له شأناً غير هذا الشأن . ولكن لم يعم العقل عن تلك النظرية كل العمى يوم أن كان الخيال يرسمها محرفة بعض التحريف من وراء الظلال والرموز ؟ وهل للأستاذ أن يذكر أيضاً أن « دارون » ما كان ليهتدى بفطنته إلى تقارب الأنواع لولا روح العطف الذى كان يحس به خوالج الحيوان وتعبيراتها على الوجوه والأعضاء ؟ أيمكن أن يؤلف كتاب التعبيرات الحيوانية ودلالاتها رجل لا يخالطه العطف العميق ، ولا يسرى بينه وبين الأحياء سيال من الإحساس الدقيق ؟.. وما هو نصيب العقل بعد كل هذا فى مذهب « النشوء والارتقاء » ؟ ما كان له من نصيب إلا أن يصحح أخطاءه هو لا أخطاء الخيال ولا أخطاء الإحساس . فالحقائق التى استند إليها النشوئيون قائمة منذ الأبد ، والعقل هو الذى كان يداريها أو يضلل فيها الخيال والإحساس .

ويسألنى الأستاذ : « لاأدرى أى مناسبة للعاطفة بالمنطق » وهذا الذى أقوله أنا .. وأقول معه إن مناسبة العاطفة أنها هى شئ موجود لايصح للمنطق إلا إذا حسب له حسابه . فأى منطق يحق له أن يكون هكذا ، أو لا ينبغى أن يكون كذلك إن لم يكن يحس العاطفة الإنسانية ويسكنه معانيها ويقيم لها وزنها ؟ . إن الأستاذ يثبتنا أن العقل أسعد الإنسان بالعلم ، فما هى السعادة ..؟ إن لم تكن عاطفة فهى لا شئ ، وإذا لم يكن العلم علم إنسان « عاطفى » فلا حاجة به للإنسان .

نود أن يتأكد هذا فى العقول لأننا على مرحلة يجهل فيها الشرقيون ما ينقصهم ، فيجب أن يعلموا أن الذى ينقصهم هو « الإحساس القويم » وأن سبيل خلاصهم هو سبيل العاطفة الحية والشعور الصادق الجميل . أما نظرية الدور والتسلسل فهى لاتعنينا فى هذا الصدد ، ولكنى أرجو الأستاذ « الزهاوى » أن يسأل نفسه هذه الأسئلة وهى :

(١) ألا يمكن أن نقول إن عدد « الأشكال » لانهاية له بنفس المعنى الذى نريده حين نقول إن عدد الأجرام والجواهر لا نهاية له فى هذا الفضاء الذى لايتناهى ؟

(٢) لماذا نشترط البعد فى الزمان والمكان لظهور الشخصين المتماثلين كل التماثل ! لماذا يتحتم ن يكون أحدهما فى هذا الزمن والأخر على مسافة ملايين السنين أو ملايين الأجيال ؟ إن المقتضى للتماثل هو أن الأشكال تتناهى والجواهر لاتتناهى فى قول أصحاب الدور والتسلسل .. حسن ، فلا داعى إذن لاشتراط التباعد بين الشخصين المتماثلين فى الزمان والمكان ، بل يجب أن نرى أناساً كثيرين يتماثلون على سطح هذه الأرض فى المدينة الواحدة وفى الوقت الواحد ، وإلا كان رأى أصحاب الدور والتسلسل باطلاً يستند إلى دليل مشكوك فيه .. أم تراهم يشترطون التباعد ليقولوا لنا إذا أنكرنا عليهم دعواهم : اذهبوا فطوفوا الفضاء الذى لاحد له ، وجوسوا فى جوانب الزمان الذى لابداءة ولا نهاية فإن لم تجدوا أناساً يتماثلون وأجراماً تتماثل فنحن إذن المخطئون وأنتم المصيبون ، وإن وجدتم فعودوا إلينا بالنبأ اليقين ؟!

إن اللحظة الحاضرة من الزمان تشمل أشياء مختلفة مضت عليها أزمنة مختلفة وأوضاع مختلفة ، فهى بهذه المثابة ككل لحظة من الماضى أو المستقبل ، وإن هذا الموضع من المكان هو ككل موضع غيره فى انقضاء التماثل إن كان له انقضاء .. فإذا وجب أن نرى شخصين أو أكثر من شخصين يتماثلان كل التماثل على كوكبين بعيدين فى زمنين متباعدين ، فيجب – لهذا السبب عينه – ألا يمتنع ظهور مثل هذين الشخصين فى هذا المكان فى الزمن الحاضر .. وإلا فما هو المانع إن كان أصحاب الدور والتسلسل يثبتونه فيما يزعمون ؟

نرجو الأستاذ أن يسأل نفسه هذه الأسئلة ، ونحن نرجح أنه لا يجيب عنها أجوبة يسهل التوفيق بينها وبين القول بالدور والتسلسل ، وليعلم حفظه الله ، أننى لا أجد عزاء لنفسى فى تكرار « العقاد » إلى غير نهاية بين أحواز الفضاء وأبديات الزمان .. فإذا ثبت له ثبوت اليقين أن فى هذه اللحظة عقادين لاعداد لهم ، يكتبون مقالاتهم فى بلاغاتهم الأسبوعية التى تصدر فى قواهرهم وأفريقاتهم للرد على الزهاويين الذين لا أول لهم يعرف ولا آخر لهم يوصف ، فرجائى إليه أن يكتم عنى هذه الحقيقة فما فى علمها إلا الشقاء بتضاعف الأشغال وتراكم الأحمال ، وما فى ذلك ترفيه ولا عزاء .. !

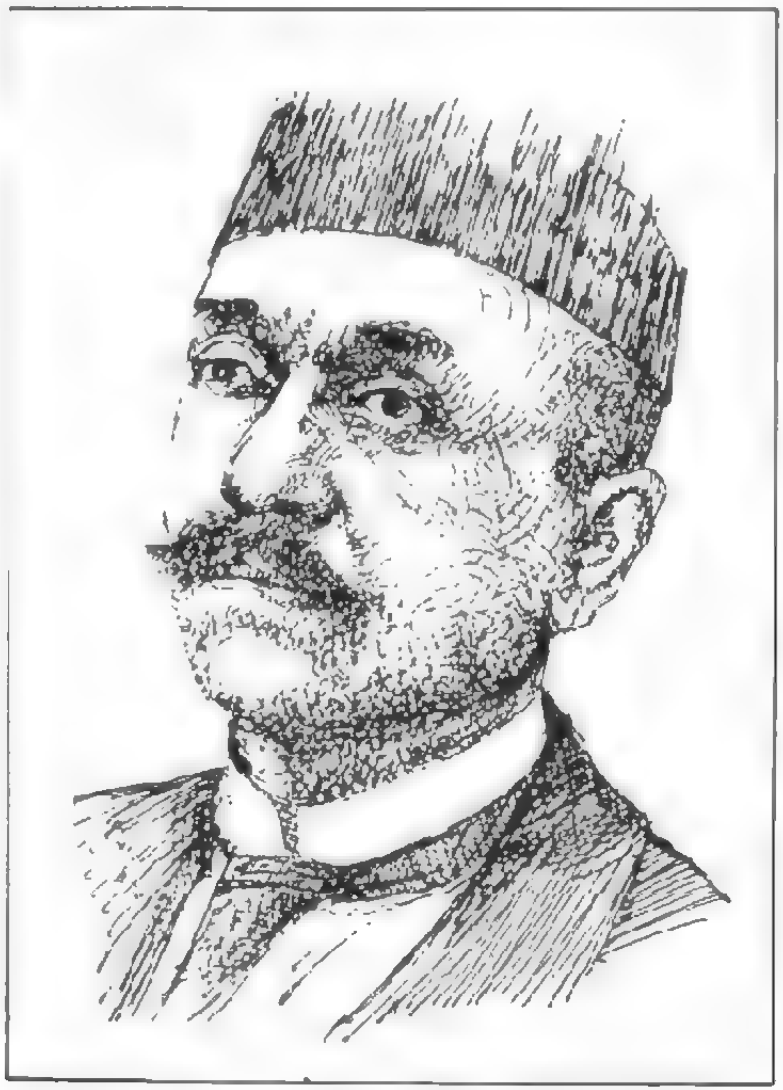

محمد فريد وجدى

محمد فريد وجدى

هو فريد عصره غير مدافع !

وتلك كلمة مأثورة طالت ألفتها حتى رثّت وبليت وأصبحت حروفاً بغير معنى .

ولطالما قيلت عن عشرات من حملة الأقلام فى عصر واحد، كلهم فريد عصره، وكلهم واحد من جماعة تعد بالعشرات .. فلا معنى لها فى باب العدد ولا فى باب الصفات، ولاسيما صفات الرجحان والامتياز .

إلا إننا نقولها اليوم عن «محمد فريد وجدى» لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفاً حرفاً، ولا ينحرف عنها كثيراً ولا قليلاً حتى فى لغة المجاز ..

فقد عرفنا فى عصره طائفة غير قليلة من حملة الأقلام ورجال الحياة العامة . فلم نعرف أحداً منهم كان له فى عالمه الذى تفرد به فى حياته الخاصة أو العامة، وفى خلقه أو تفكيره، وفى معيشته اليومية أو معيشته الروحية، وأوجز مايقال عنه فى هذه الحالات جميعاً أنه لا يخلق فى عصرنا من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل «الفريد»

نعم : الفريد حتى فى سمة الجناس . لأن اسمه فريد . والفريد حتى فى عزلته . لأنه كان فى عزلة النساك والرهبان، عليماً غاية العلم بالتحليل والتحريم[1] ..

بدأ حياته الفكرية على مبدأ لم يخلفه قط فى أيام رخاء ولا فى أيام عسرة، فقصر طعامه على النبات وانفرد بهذا الطعام بين أهل بيته، واجتنب الولائم التى يدعى فيها إلى طعام غير طعامه

وأخذ نفسه بسمت الأولين من عباد الله الصالحين، فتورع عن كل بدعة من بدع الضلالة أو الجهالة ينكرها الدين، وجهر باستنكاره لهذه البدع حين صمت الصامتون من الناطقين .

ذكرنا فى حديث «الخديوى والفكرى» – فى غير هذا الفصل – قصة الطرق الصوفية يوم

(1) إشارة إلى بيت المتنبى فى وصف الأسد : فى وحدة الرهبان إلا أنه – لا يعرف التحريم والتحليلا

توديع المحمل بميدان المنشية وخلاصتها أن السيد « محمد توفيق البكرى » كان محنقاً على الخديو فى بعض السنين فمنع أصحاب الطرق من الخروج لموكب المحمل تحية للأمير فى ميدان الاحتفال ، فخلا الميدان إلا من الموظفين المدعوين .. وغضب الأمير لأنه فهم من ذلك أنه زراية بالموكب الذى تعوّد أن يشهده لعام بعد العام ، فانتهر السيد « توفيق » وقال له بصوت مسموع على ملأ من رجال الدولة : أنت قليل الأدب .. ! وغضب السيد « توفيق » فانصرف من الاحتفال وهو يقول للأمير بصوت مسموع كذلك بين الحاضرين : لست أنا قليل الأدب .. إننى وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك .. »

ولم تأخذ صحيفة واحدة بناصر السيد « البكرى » فى هذا الموقف ، لأن الصحف الإسلامية لا تُغضب الأمير من أجل شيخ الصوفية ، ولأن الصحف غير الإسلامية لم تشأ أن تتعرض لمسألة من مسائل الدين ..

إلا صحيفة « الدستور » التى كان يصدرها « فريد » : فإنها أخذت بناصر « البكرى » وهو من غير المقبولين عند صاحبها لاختلافهما فى المسلك والسيرة ، ولكن صاحب الدستور نظر إلى شئ واحد فى هذا الخلاف ، وهو أن مظاهر الطرق الصوفية بدعة لا يستحسنها ، وأن الأمير لم يكن على حق فى غضبه على شيخ الطرق لمنع حضورها .

وتم هذه الخصلة الفريدة فى صاحب الدستور صباح اليوم التالى ليوم خروج المحمل .. فقد اطلع « البكرى » على الصحيفة فأرسل إلى صاحبها بمبلغ من المال كانت فى أشد الحاجة إليه ، فلم يقبل منه « فريد وجدى » غير قيمة الاشتراك لعام واحد ، ثم رد إليه البقية قبل أن ينتصف النهار .

ولقد كانت أزمة الصحيفة أثراً من آثار « المبدأ » الذى لا ينحرف عنه الرجل قيد شعرة ، وهو الجهر بالرأى ولو خالف القوة والكثرة وخالف أحب الناس إليه ، وقد كان من رأيه عند تأليف الحزب الوطنى أن يكون تبليغ تأليفه والاحتجاج على الاحتلال عامًا غير مقصور على الدولة البريطانية ، فلم يقبل « مصطفى كامل » مقترحه ولم يسكت « فريد وجدى » عن تأييد رأيه ، فانصرف قرّاء اللواء عن قراءة الدستور ولم يكن للدستور قرّاء من الشيع السياسية الأخرى ، فكسدت الصحيفة وعجزت عن النهوض بتكاليفها ولم يقبل صاحبها أن يعوض الخسارة بالمعونة المعروضة عليه من الجهات السياسية التى لا يوافقها .

ومن المعونات التى عرضت عليه فى أحرج أيام الأزمة معونة كبيرة من جماعة « تركيا الفتاة » يبذلونها للدستور مشاهرة ليكون لسانًا عربيًا لحركتهم الدستورية ، ولكن على شريطة

واحدة : وهى أن يُرفع من صدر الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الإسلامية » .. فرفض الرجل هذه المعونة ، ورفض أن يجعل صحيفته لسانًا للحزب إلا بشروطه التى يرتضيها ، ولو وافق الحزب على بقائها لسانًا للجامعة الإسلامية ..

وفى الوقت الذى كانت هذه المعونات تعرض عليها من شتى الجوانب – ومنها جانب الحاشية الخديوية – كان الرجل يتحامل على نفسه وعلى القليل من موارد مؤلفاته لينفق عليها بعد تصغير صفحاتها واختصار أعدادها . فلما استنفد كل ما قدر على إنفاقه فى هذا السبيل أعلن تعطيلها وهو مدين لتاجر الورق وموظفى التحرير والإدارة بمقدار غير يسير .. فأبت عليه نزاهة النفس أن يتخر مليمًا واحدًا لصاحب دين ، واتفق مع تاجر الورق على استخلاص دينه من مؤلفاته بثمن يقل أحيانًا عن عُشر ثمنه فى المكتبات ومنها على ما نذكر معجمه المسمى بكنز العلوم واللغة وثمنه مائة وعشرون قرشًا . فاتفق على حسبانه ثلاثة عشر قرشًا ، واشترط على التاجر أن يشترى النسخ التى تصرف للموظفين بما بقى لهم من متأخر الأجور والمرتبات ، وحضر بنفسه تسليم النسخ واستلام الأثمان

هذا هو الرجل الفريد فى نزاهة نفسه واستقامة خلقه وحفاظه على مبدئه ورأيه ..

وهو كذلك – أو أكثر من ذلك انفرادًا بين كتّاب عصره بجهوده فى مؤلفاته ، فلا نعرف أحدًا منهم توفر وحده على تأليف « دائرة معارف » كاملة ، ولا على التأليف فى تفسير القرآن وفى معجمات اللغة والعلم ، ولا على الجمع بين الدراسات الدينية والقصص الخيالية ، ولا على الاستقلال وحده بإصدار صحيفة يومية ، ولم يكن معه من المحررين غير كاتب هذه السطور ، ولو استطاع وحده أن يؤدى أعمال التحرير خارج المكتب ، ومنها الأحاديث وأخبار الدواوين ، لاستقل وحده بالإدارة والتحرير .

وأشرف ما يكون صاحب المبدأ إذا كان استقلاله برأيه لا يأبى عليه أن يعرف لغيره حقهم فى الاستقلال بما يرون

وقد كنت يوم اشتغلت بتحرير الدستور كاتبًا ناشئًا ، خامل الذكر . ليس لى بحق الشهرة أن يكون لى رأى مستقل مسموع ، ولكنى كنت أخالفه فى بعض آرائه بل فى بعض مبادئه السياسية وبعض معتقداته عما وراء المادة وتحضير الأرواح . وأشهر ما كان من ذلك حول موقف الحزب الوطنى من « سعد زغلول » ، فلم يمنعنى ذلك أن أنشر فى الدستور ما يخالف هذا الموقف ، وأن أحادث « سعد زغلول » حديثًا ينوه كل ما يعوره به كتاب اللواء .. وقد صارحته غاية الصراحة فيما كان يعتقده من تحضير الأرواح وصارحنى غاية الصراحة فى أمر المتشابهات

من العقائد والأحكام فلا أذكر أنني لمحت منه عند أشد المخالفة نظرة غير نظرته حيث تفترق الأفكار والآراء .

ومما انفرد به في صناعة الكتابة أنه كان يكتب منفرداً كما يكتب بين جمع من الزوار والعمال ، وأن سرعة قلمه بالكتابة لم تكن دون سرعة لسانه بالكلام ، وأنه كان سريع النظم للشعر كما كان سريع النسج للنثر البليغ ، وإن لم يكن يشتغل بنظم الشعر في غير موضعه من قصص الخيال ..

ومن شعره في هذه القصص الخيالية قوله :

رُمت المخاوف والمخاطر ... فرزئت ما لم يرزه شاعر
وجمعت ما بين البدا ... وة والحضارة والمظاهر
وشهدت ما لو قلته ... عدوه من عبث الخواطر
وخرجت من ذا كله ... بحقيقة تغني المكابر
هي أن هذا الناس قد ... سحرتهم فتن سواحر
ظنوا السعادة في الثرا ... ء وفي الزخارف والمفاخر
وإقامة الدور التوا ... ئق والحلائل والمقاصر
والجري أعقاب اللذا ... ئذ وغوصهم في الكبائر
بين افتتان بالقشور ... ووقفة حول الظواهر
أما السعادة فهي أن ... أن تمتز الحجب الستائر
وتحصل السر الذي ... تعليه الدوائر
وتنال من مغناك ما ... خزنته همسات الضمائر
أن ترتقي بالروح حيـ ... ـث الحق عالي القدر سافر
هذي السعادة كلها ... فاظفر بها إن كنت ظافر

وله شعر في هذه القصص يبوح فيه عن عقيدة :

مثل أعلى النفسية ... في علاج البدنية
هي من أقوم منهج ... نحلة العلم القوية
هي للجثمان غذا ... وهي للروح بلية
والذي قد غلبه الراء ... ة من أهل الروية
إنها شر مرور ... ت الحياة البشرية

ولو كانت طواعية النظم للناظم آية الملكة الشعرية لكان « فريد وجدي » في طليعة الشعراء المطبوعين ، ولكن سهولة نظمه كسهولة نثره كلتاهما دليل على بساطة في الفهم سلمت من العقد المركبة وتقابلت فيها الأعماق والظواهر بغير حجاب من خفايا النيات وعوج الأهواء . فلا تفوق عليه سلاسة التعبير ولا سلامة التفكير .

ومن صراحة خلقه وإيمانه باستقلال الرأي عنده وعند غيره ، أنه كان يستمع إلى رأيي في شعره فلا يغضبه ولا يهمه أن يكون له حظ من الشعر أكبر من حظه ، وقد قلت له مرة : حسبك من الشعر ما يجمع قلب المتصوف ولسانه . فقال : والله ، إنه لخير كثير ، ومن لنا بمحض هذا النصيب ؟

* * *

روى العالم اللغوي الشيخ « عبد القادر المغربي » ، وهو من تلاميذ السيد « جمال الدين الأفغاني » ، أن السيد عرض عليه الزواج فقال : إن « جمال الدين » وهو متزوج رب أسرة وصاحب بيت يأوي إليه بين أهله وبنيه صورة من صور الخيال أغرب من صورة الشيخ « عليش » وهو يسعى إلى « الأزبكية » ليجلس إلى حانة من حاناتها ويصفق بيديه يستدعي « الجرسون » ليأمره بسؤال من حوله عما يطلبونه من مشارب الحانات .

أقول إنني قد رأيت بعيني في الواقع ما هو أغرب من هاتين الصورتين . وهو منظر « محمد فريد وجدي » يتمشى في قلب « الأزبكية » بين المتاجر والحانات وهي لا تدري من هذا الذي يغيب في أطوائها بين هذا الزحام ، ولعله هو أيضاً لا يدري أن هذه هي « الأزبكية » ، إلا كما يدري الطيف في الصور المتحركة أين يضعه المخرجون بين مشاهد الأفلام .

فقد كان للسير على الأقدام من رياضات الرجل قبيل الأصيل كل نهار ، وكان يمضي في رياضته حيث ساقته قدماه . تارة إلى مفازة الخلاء وتارة أخرى إلى حي « السكة الحديدة » ، وحيناً إلى قصر النيل وحيناً آخر إلى شارع « جلال » أو « عماد الدين » ، ولا يحس من يراه في مكان من هذه الأمكنة . وهو ينظر إلى ملامح وجهه : أنه يفرق بين مكان منها ومكان سواه ، كأنه — لانطوائه على نفسه — يتمشى في عالم السريرة ولا يتمشى في عالم العيان .

وكنت أراه أحياناً في طريقي ولا أعرف من هو بين غمار الناس ، على علمي ببعض آثاره وسماعي ببعض أخباره ، ومنها في قفشات الأدباء « أولاد البلد » أنه يعيش فيما وراء المادة .. في عطفة من عطفات عالم الروح ..

فلما رأيته لأول مرة بعد إعلانه عن إنشاء صحيفة الدستور أسفت لما فاتني من الشعور بتلك الأعجوبة التي كنت أشهدها كما يشهدها غيري من عابري الطريق ، ولا يشعرون بها ..!

« ماوراء المادة » كله ينتقل إلى حي « الزبكية » في ضوء النهار ؟!

إنني لأشعر اليوم أنه منظر عجب غاية العجب : منظر أعجب من « جمال الدين » رب الأسرة والدار ، أو منظر الشيخ « عليش » جليس القهوة والبار ..

وقد صحبته في رياضة من هذه الرياضات أول يوم لقيته فيه ، فعلمت حقًا أنه كان يغشى تلك الأماكن وكأنه لا يغشاها ، لأنه يستطيع أن يمضي في عزلة عما حوله كما يستطيع أن يجلس إلى مكتبه ليكتب ويفكر ويناجي سريرته ولا يدري من يخاطبهم ويخاطبونه .. إنه بعيد عنهم وإنهم بعيدون عنه ، في عالم آخر من وراء المادة .. إذ شاء « أولاد البلد » الظرفاء .

وكنت قد عرفته من كتاباته زمنًا قبل أن أعرفه رأي العين ، ولكنني بعد أن صاحبته في مكتب الدستور من يوم إنشائه إلى يوم تعطيله – إلا فترات من الزمن لا تحسب – أراني أستطيع أن أقول إنني كنت أعرفه من كتاباته كذلك وأنا معه في دار واحدة . لأنه كان يعمل في مسكنه بالدار ولا ينتقل إلى مكتبه إلا لقاء طارئ من الزوار ، أو للاجتماع بلجنة من لجان الصحيفة لمراجعة أحوال الإدارة والتحرير والتوزيع ، وكان يعفيني من إطلاعه على ما أكتب قبل إرساله إلى المطبعة ، فربما مضى الأسبوع ولم ألقه إلا إذا طرأ من شئون الصحيفة ما يدعو إلى مشورته أو تبليغه عنه ليتصرف فيه بما يراه .

قرأت إعلانه عن طلب محرر للصحيفة ، فكتبت إليه أخبره بأنني أرشح نفسي للعمل في الصحافة لأول مرة .. فجاءني الرد منه بعد يوم أو يومين يسألني أن ألقاه بدار مطبعة الواعظ لصاحبها الكاتب المعروف – يومئذ – « محمود سلامة » ، وكنت أقرأ مقالاته النقدية ويعجبني منه ما يعجبني من مدرسته كلها : وهي مدرسة « عبد الله نديم » و « أحمد سمير » ، وكنت أعرف مكان مطبعة الواعظ لأنني فكرت زمنًا في إصدار صحيفة على مثالها وفي مثل حجمها ، قبل أن أستقيل من وظيفتي الحكومية .

فلما ذهبت إلى الموعد – بالدقيقة – أخرج الساعة من جيبه ونظر فيها ، وسكت هنيهة ثم سألني عما اطلعت عليه من مؤلفاته التي أشرت إليها في الخطاب ، ثم اختار صحيفة من الصحف التي كانت على مكتب صاحب الواعظ وقال لي : هل قرأت هذا ؟ فنظرت في الصحيفة فعلمت أنه يشير إلى مقال عن رحلة لكاتب المقال في العاصمة الفرنسية ، كنت قد

اطلعت عليه قبل ذلك . فرددت الصحيفة إليه وأنا أقول : إنني لم أذهب إلى باريس ، ولكن موضع العجب عندي أن الكاتب لم يطرق منها غير الحي اللاتيني ولم يعرف في الحي اللاتيني غير معارض الخلاعة والمجون ، فهل هذه هي باريس ؟ فضحك صاحبنا ضحكة تنم على كل ما في طويته نفسه من براءة طيبة كبراءة الطفولة ، وقال : هذه هي باريس كلها إذا كانت القاهرة كلها هي ماتراه الساعة .. هل لك في رحلة قصيرة تقضي بها رياضة اليوم ؟..

وسرت معه حيث سار ، فلاح لي أنه كان كأنما يسير معي ولا يوجهني إلى مكان مقصود بعينه ، أو كأنني كنت أوجهه كما كان يوجهني على السواء ..

وقال لي في صراحة لا تكلف فيها ، أنه عرض عليّ مقال الصحيفة عن رحلة باريس امتحانًا لرأيي بعد أن أغناه أسلوب خطابي عن امتحاني في الكتابة ، وبعد أن أغناه حضوري إلى الموعد – بالدقيقة – عن امتحان نظامي في العمل .. فلي أن أعتبر نفسي محررًا بصحيفة الدستور منذ تلك اللحظة ، ولي أن أسأله عما أشاء عن نظام العمل المطلوب .

ولم أسأله عن شيء من ذلك ، ولكنه هو قد مضى يسهب في بيان مقصده من إنشاء الصحيفة وبيان خطتها في السياسة الوطنية .. ثم مضت الأيام بعد الأيام في هذا العمل المشترك بيني وبينه لا يعاونه فيه أحد غير أخيه « محمد » الطالب بكلية الحقوق ، وغير آحاد من زملائه الطلبة ومن وكلاء الصحيفة في الأقاليم . ولم ينقطع عملي في الدستور غير بضعة أسابيع تركت الصحيفة فيها لخلاف وقع بيني وبين أخيه ، لاعتراضه على بعض آرائي في السياسة الحزبية ، والحق أنه اعتراض لم يكن فيه ما يسوء لولا أنني استكثرته من الأخ وهو يعلم أن أخاه الأكبر لا يبدي على ما أكتب مثل هذا الاعتراض فيما يخالفه أو يناقضه من الآراء السياسية .

ولم ألق « محمد فريد وجدي » بعد تعطيل الدستور غير مرات معدودات ، وكنت قد برحت « القاهرة » إلى « أسوان » ثم عدت إلى « القاهرة » للعلاج من وعكة قطعتني عن العمل بضعة أشهر

وفي حديث من أحاديث الرياضة على الأقدام كان لقائي الأول له بعد عودتي إلى « القاهرة » ، فإنني عرفت مسكنه بعد انتقاله إليه من مسكنه بدار الصحيفة ، فقصدت إليه على أثر رياضة في الخلاء وبيدي كتاب من كتب الفلسفة الاجتماعية ، فقال لي وقد نظر في الكتاب ونظر على وجهي أعراض السقم : وفي مثل هذا الكتاب تقرأ وأنت ترتاض للاستشفاء ؟..

وأذكر أنني نافحت باعتقادي قصر العمر وقلة الجدوى من الاستشفاء فتبسم ابتسامته

الأبوية ، وفتح الصفحة الأولى من الكتاب وهو يقول لى : اكتب هنا .. ثم أملى علىّ كلامًا فحواه أنى سأعود إلى هذه الأسطر وأنا شيخ معمّر ، لكى أعرف أنى كنت على خطأ كبير حين قدّرت لنفسى نهاية العمر القصير..

رحم الله ذلك القلب الطهور ، وذلك الروح الكريم ، وذلك الحق الفريد ..

إن يكن اليوم لا يُذكر حق ذكراه فما هو بالخمول ولا هو بالقصور عن الخلود ، ولكنه يعيش فى عزلة من دنيا التاريخ كما عاش أيامه فى عزلة من دنيا الحياة .

الشيخ رشيد رضا

الشيخ رشيد رضا

☐ يقول « محمود رشاد بك » في رحلته الروسية : « سألني التتار عن الشيخ « محمد عبده » والشيخ « علي يوسف » والشيخ « رشيد رضا » و« مصطفى باشا كامل » و« فريد بك وجدي » وشكروا لهم صدق غيرتهم على الدين . »

وقد لقيت أنا في بلدتي أناساً من أبناء « إفريقية الغربية » الذين يعبرون « بأسوان » في طريقهم إلى الحج ذاهبين أو عائدين ، فوجدت بينهم من يقرأ مجلة « بأسوان » في مجلة « المنار » ويعول عليها في فهم شعائر الإسلام وأحكامه ...

وقد تكفي نظرة في باب الأسئلة والفتاوى التي كانت تنشر بتلك المجلة لتقدير مدى انتشارها في الأقطار الإسلامية . لأنها كانت تتلقى الأسئلة والفتاوى من جميع الأقطار ..

وقد كنت أطلع على بعض أعدادها حرصاً مني على متابعة آثار الشيخ « محمد عبده » في كل مظنة ، فكنت أحمد لها الدعوة إلى التحرر من ربقة القديم ، ولكني أسأل نفسي دائماً بعد قراءتها : « من أين يلم بالنفس هذا الشعور بشيء « غير مستساغ » في كثير مما يكتبه الشيخ « رشيد » ! »

ولم يكن هذا شأني وحدي فيما كنت أقرأ من كتاباته ، ولكنه كان شعوراً يشاركني فيه عدد غير قليل من القراء . ومازلت أسائل نفسي حتى تبين لي بعد تجربة الحياة والأدب ، وبعد لقاء الشيخ « رشيد » ، إنه ضرب من الحاجة إلى الصقل ، ولاسيما الصقل من ناحية الكياسة والفكاهة ، فما أحسب أن الشيخ – رحمه « الله » – كان يلتفت إلى شيء من طرائف الحياة التي تتجلى في نقائض الدنيا وأعاجيبها ، ولا غنى عنها لتمام التعاطف والتفاهم بين الناس .. لقيته مرات لا أحصي . ولكني لم أتحدث إليه غير ثلاث مرات أو أربع في مناسبات قليلة .

أولها في دار المنار بدرب الجماميز .. كانت داراً صغيرة ، لها سلم ضيق تصعد عليه إلى حجرة لا تزيد في مساحتها على أربعة أمتار مربعة ؛ وفيها ديوان مفروش ، وعلى أرضها حصيرة فوقها فروة يجلس عليها الأستاذ وقد ثنى قدميه وفي يده ورقة ؛ يكتب عليها للمنار .

وكنت أعبر بتلك الدار كثيراً في طريقي إلى دار الكتب ، فلم يخطر لي أن أزورها أو أعرج

الشيخ رشيد رضا

☐ يقول « محمود رشاد بك » في رحلته الروسية : « سألني التتر عن الشيخ « محمد عبده » والشيخ « علي يوسف » والشيخ « رشيد رضا » و« مصطفى باشا كامل » و« فريد بك وجدي » وشكروا لهم سبق خيرتهم على الدين. »

وقد لقيت أنا في بلدتي أناسًا من أبناء « إفريقية الغربية » الذين يعبرون « بأسوان » في طريقهم إلى الحج ذاهبين أو عائدين. فوجدت بينهم من يقرأ مجلة « بأسوان » في مجلة « المنار » ويعول عليها في فهم شعائر الإسلام وأحكامه..

وقد تكفي نظرة في باب الأسئلة والفتاوى التي كانت تنشر بتلك المجلة لتقدير مدى انتشارها في الأقطار الإسلامية. لأنها كانت تتلقى الأسئلة والفتاوى من جميع الأقطار..

وقد كنت أطلع على بعض أعدادها حرصًا مني على متابعة آثار الشيخ « محمد عبده » في كل مظنة، فكنت أحمد لها الدعوة إلى التحرر من ربقة القديم، ولكني أسائل نفسي دائمًا بعد قراءتها: « من أين يلم بالنفس هذا الشعور بشيء « غير مستساغ » في كثير مما يكتبه الشيخ « رشيد » !!

ولم يكن هذا شعوري وحدي فيما كنت أقرأ من كتاباته، ولكنه كان شعورًا يشاركني فيه عدد غير قليل من القراء. ومازلت أسائل نفسي حتى تبين لي بعد تجربة الحياة والأدب، وبعد لقاء الشيخ « رشيد »، إنه ضرب من الحاجة إلى الصقل، ولاسيما الصقل من ناحية الكياسة والفكاهة، فما أحسب أن الشيخ – رحمه « الله » – كان يلتفت إلى شيء من طرائف الحياة التي تتجلى في تناقض الدنيا وأعاجيبها، ولاغنى عنه لتمام التعاطف والتفاهم بين الناس.. لقيته مرات لا أحصي.. ولكني لم أتحدث إليه غير ثلاث مرات أو أربع في مناسبات قليلة

أولها في دار المنار بدرب الجماميز.. كانت دارًا صغيرة، لها سلم ضيق تصعد عليه إلى حجرة لا تزيد في مساحتها على أربعة أمتار مربعة، وفيها ديوان مفروش: وعلى أرضها حصيرة فوقها فروة يجلس عليها الأستاذ وقد ثنى قدمه وفي يده ورقة، يكتب عليها للمنار.

وكنت أعبر تلك الدار كثيرًا في طريقي إلى دار الكتب: فلم يخطر لي أن أزوره أو أعرج

عليها ، حتى أعلن الشيخ « رشيد » من كتابه فى ترجمة الأستاذ الإمام ، وصدر منه جزءان ، هما الجزء الثانى والثالث ، وأرجئ صدور الجزء الأول إلى حين .

كان الجزء الثانى يشتمل على طائفة من مقالات الأستاذ الإمام ورسائله التى نشرت بتوقيعه أو بغير توقيعه .

وكان الجزء الثالث يشتمل على المراثى الشعرية والنثرية التى قيلت فيه إلى مابعد حفلة الأربعين ، ومعها بعض كلمات المقدرين والمؤمنين من أبناء البلاد الشرقية والغربية .

ولم تكن « ميزانية » الكتب يومئذ تسمح لى بشراء جزأين كبيرين فى وقت واحد ! فاخترت أن أبدأ بالجزء الثانى ، وأرجئ شراء الجزء الثالث بضعة أسابيع .

ولقيت عاملاً على السلم فأخبرته بما أطلب ، فلم يبد مانعاً .. وذهب ليجيئنى بالجزء الذى طلبته ، وعاد به وأنا فى حضرة الشيخ « رشيد » .. وتناولت الجزء وأخرجت الثمن — فسأل الشيخ « رشيد » : « ماهذا؟ »

ثم قال : « إن الجزأين لا يباعان على انفراد .. »

ولا أخفى على القارئ أننى حين سمعته يسأل : ماهذا ؟ خطر لى أنه سيعفينى من الثمن ، بعد أن تناول الحديث بينى وبينه سيرة الأستاذ الإمام ، ولمحت منه الرضا عن رأيى فى خصومه ونقديه

فلما فهمت مرمى سؤاله شعرت بخيبة أمل ، وازداد شعورى هذا حين أصر على بيع الجزأين ، مع توكيدى له أنى سأعود بعد فترة لشراء الجزء الأخير ..

ثم تأخر صدور الجزء الأول أكثر من عشرين سنة ، وهو الجزء الذى يحتاج من المؤلف إلى عناء ومراجعة وتحضير ، فهدأت تلك المساومة نفسى لاعتقاد خاصٍ فى حق الرجل ، ووقع عندى أنه بادر إلى إصدار الجزأين لما فى هذه المبادرة من كسب لايجشمه شيئاً من الكلفة والمشقة ، وأنه أخّر الجزء الأول لما يتجشمه فيه من التعب ، ومايلقاه فى سبيله من الخصومات ..

ولكن الجزء الأول صدر بعد طول التأخير ، وظهر من وقائعه وأخباره أن الشيخ « رشيد » كان موفور العذر فى إرجاء صدوره ، لأنه لم يكن يستطيع نشره فى عهد عباس الثانى ولافى إبان الحرب العامة ، فانتظر حتى زالت المحظورات التى حالت دون إصداره طوال تلك السنين .

ولقيت الرجل مرة أخرى مع اللجنة التى تألفت للاحتفال بعيد المقتطف الذهبى ، وكان الدكتور « فارس نمر باشا » قد دعانا إلى حفلة شاى فى داره للإعراب عن شكره لجنة الاحتفال وشكر زميله العلامة « يعقوب صروف » .

وجلست مع « سعيد شقير باشا » والشيخ « رشيد » ..

وطاف « فارس باشا » بضيوفه يحييهم فقال للشيخ : « إنك ياسيد تسمن كثيراً ، ألاتعود رياضة المشى؟ مش بقدر ماتستطيع

ثم استطرد الحديث إلى الصحة ، فقال « سعيد باشا » : إنه يحسن إحياء وخواء يشبه « المدرخة » .

فسألته : هل كشفت عن الكبد؟

قال : إن القصة كلها من هذه الكبد !

ولاح على الشيخ « رشيد » كأنه قد سمع منى نبوءة ، فسألنى : وهل درست الطب ؟

قلت : إن علاقة الكبد بهذه الحالة لا تحتاج إلى علم طبى .

ثم تبين لنا من جملة الحديث أن عناية الشيخ بالاطلاع على معارف العصرية العامة أقل بكثير من عنايته بالاطلاع على مسائل الفقه والدين .

وتحققنا من هذا حين صدر الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام ووجدت فيه إشارة استفهام بعد اسم « عبد الله متو؟ »

فاستغربت أن يكون الشيخ على غير علم بتاريخ هذا القائد الفرنسى وقد دان بالإسلام وكانت له علاقة فى مصر ببيت من أكبر البيوتات الإسلامية ، ولكن الاطلاع على هذه المسائل التاريخية لم يكن على مايظهر من همّ الشيخ .

• • •

ولقيته مرة أخرى فى قطار « المترو » ليلة من ليالى شهر رمضان ومعه قريب له يسمى على ماأذكر « عاصماً » .

فجرى الحديث على المعجزات ..

وقال الشيخ : « إن المحقق من سيرة النبى عليه السلام كاف للدلالة على وحى القرآن ،

لأنه عليه السلام لم يأت بمثل هذه البلاغة قبل الأربعين ، وكان يشكو انقطاع الوحي فترة بعد نزول القرآن الكريم عليه .»

قلت : « إنه دليل حسن ولكنه غير ملزم ، فقد اشتهر مثلاً عن النابغة الذبياني أنه ينظم الشعر قبل الأربعين أو نحوها ، وذلك تعليل لقب « النابغة » في بعض الروايات . واشتهر كذلك عنه وعن غيره أنه « نبغ » ، أي انقطع عن النظم فترة ثم عاد إليه . فحرمت قبيلته الذبائح فرحًا بانطلاق لسانه ، لأنه أنفع لها من غزوة تنتصر فيها على أعدائها . .

« إنما المعجزة الكبرى هي الرسالة المحمدية التي لا ينهض بها فرد ولا أمة بغير معونة إلهية . .

وإنما المعجزة الكبرى هي أثر القرآن في الصحابة وأثره في تواريخ الأمم الإسلامية وغيرها .»

ومن حق الشيخ أن أذكر له في هذا السياق أنه لم يغضب ولم ينكر وجاهة التعقيب على كلامه .. ودعاني ملحًّا إلى زيارته في « دار المنار » . .

ولكنني لم ألقه بعد ذلك ، وإن كنت ألقاه حينًا بعد حين في صفحات مجلته « المنار » ، لأنها من المجلات العربية التي حرصت على اقتنائها من أول أعدادها إلى آخرها .

عبد العزيز جاويش

عبد العزيز جاويش

☐ كلما ذكرت الشيخ عبد العزيز جاويش ، ذكرت زيه على الخصوص .. لأنه كان أول ما لفتني إليه ، ولم يزل موضع التفاتي بعد ذلك كلما رأيته أو سمعت بخبر من أخباره في بعض المناسبات ..

كان لنا زميل في مدرسة «أسوان الأميرية» ، لا تقل شهرته بيننا بالجهل عن شهرته بالعبث وقلة المبالاة ..

وتخرج بعدنا من المدرسة ، فعينته وزارة المعارف مدرسًا بها للترجمة ، لشدة الحاجة يومئذ إلى المدرسين ..

وكنا نعجب لكتابته العربية أكثر من عجبنا لكلامه باللغة الإنجليزية ، فهو يعرف الإنجليزية كما يعرف العربية ، ومعرفته للعربية بعد ذلك هي موضع الشك الكبير ..

وإنه ليلقي درسه في الترجمة ذات يوم إذا بمفتش معمم يدخل عليه ، فظنه مفتشًا للغة العربية قد ضل طريقه إلى هذه الحصة ، فاطمأن على جهله وعلمه .. ومضى في درسه بغير اكتراث ، ولم يكن من دأبه كما أسلفنا أن يكترث لشيء من الأشياء .

وفوجئ باعتراض من المفتش المعمم ، فقال له بغير تردد : «إن هذه القطعة منقولة من كتاب مقرر».

وسأله المفتش : ما هو؟ .

قال : كتاب مرشد المترجم .

وطلب منه المفتش أن يريه القطعة في الكتاب . فقلب الصفحات كأنما يبحث عن واحدة معينة منها ، ثم أشار إلى جملة في الصفحة .. وقال للمفتش بكل ثقة واطمئنان :

هي هذه القطعة !

وهنا الباغتة التي كان أهون منها على صاحبنا أن ينفتح أمامه قمقم مغلق ويخرج منه مارد من الجن ، لأن الشيخ المعمم قد أخذ يقرأ القطعة الإنجليزية ويسأله عن العلاقة بينها وبين العبارة العربية ..

إن المفتش المعمم هو الشيخ « عبد العزيز جاويش » مؤلف كتاب مرشد المترجم ، مع زميل من المعلمين !

وضجت المدينة ليلتها من الضحك ، ولم يزل شاهدو القصة يذكرونها إلى الآن .. لاعجب إذن أن يظل زى الشيخ عالقًا بذهنى على تعاقب الأيام .

• • • •

وذهبت سنة وجاءت سنة ، وتتابعت سنوات بعد سنوات ، وألفت فى « القاهرة » منظر الشيخ فى جبته الفراء .. وهى فى أشد شتائها قلما أحوجتنا يومئذ – نحن أبناء الصعيد – إلى معطف ثقيل ..

ثم استقال الشيخ من وظيفته بوزارة المعارف ، بعد إنشاء مدرسة القضاء الشرعى وإسناد نظارتها إلى المربى الكبير « عاطف بركات بك » ، وأخذ فى حملته على وزارة المعارف على النحو الذى يذكره قراء اللواء فى تلك الأيام .

وحضرنا يومًا إلى مكتب الصحافة بوزارة الداخلية ، فسألنا موظف فيه : « هل صحيح أن الشيخ جاويش اعتزل عمله فى تحرير « اللواء » ؟

فقال زميل صحفى : « إن صحيفة « الوطن » قد نشرت الخبر » وقال زميل آخر : « إنى أشك فى صحة الخبر » فقلنا جميعًا : « إن « دار اللواء » قريبة ، والسؤال هناك أيسر من الشك بغير دليل . »

ودخلنا مكتب الشيخ فوجدناه فيه ، وتبين من الكلمة الأولى أن الخبر غير صحيح .. ثم مضى الشيخ فى كلامه من التعليق على صحيفة الوطن إلى تعليق على الصحف عامة ، وعلى السياسة والأحزاب ، ثم إلى الكلام عن حرية الصحافة وحرية الزعماء السياسيين .

وجلست أسمع وأنا أعجب لرجل يتهم الوطنية المصرية فى نهضة المطالبة بالاستقلال . ثم ازداد عجبى حين قدم للمحاكمة ، فكان دفاعه الأول أنه « غير مصرى » لأنه ينتمى إلى أسرة تونسية ، و« تونس » خاضعة للحماية الفرنسية ..

ثم ازداد العجب حين سافر إلى « الآستانة » ، وأنشأ فيها صحيفة « الهلال العثمانى » ينشر بها دعوته السياسية على الوجه الذى كان يفهمه ولم يعدل عنه بقية حياته ، وبلغ غايته حين علمنا أنه أنشأ فى « الآستانة » حزب « الوطن العثمانى » ليعارض به حزب « محمد فريد » الذى جعل شعاره « مصر للمصريين »

وكانت صحيفة « الهلال العثمانى » تصل إلينا سرًا فى فترات متقطعة ، فكنت أسأل نفسى : هل بلغ من يقين الشيخ بمذهبه فى الوطنية أن يفترض قبوله على كل مصرى يسمع باسمه من بعيد ؟

وعدنا إلى زى الشيخ حين سمعنا نبأ الحملة التركية على هذه البلاد ، فقد قيل يومئذ إن كسوة المشيخة الإسلامية كانت فى حقيبة الشيخ ، وإنه قد حيل بينه وبين مصاحبة الحملة فى اللحظة الأخيرة لامتعاض شيخ الإسلام هناك من حركاته حول مصر والحجاز .

• • •

وانتهت الحرب ، ولقيت الشيخ اتفاقًا قبل تعيينه مرة أخرى بوزارة المعارف . فإذا هو هو فى تفكيره وتقديره عن السياسة الوطنية .. « أنقرة » هى صاحبة القول الفصل فى السيادة المصرية ، « أنقرة » هى المرجع الأخير فى الامتيازات الأجنبية ، معاهدة سنة ١٨٤٠ هى أساس ما نطالب به من حقوق !

قلت : « الحمد لله » .. لقد تغيرت « مصر » كثيرًا فى عشر سنوات ، وإن لم يتغير الشيخ « عبد العزيز جاويش » ومن جرى على غراره .

• • •

لقد ذكرنا « رشيد رضا » فى الفصل السابق ، وبين الشيخ « رشيد » والشيخ « جاويش » جامعة لاغنى عن الإشارة إليها لتقدير كل منهما معًا ، وكل من دخل معهما فى هذه الجامعة .. فبعد « جمال الدين » ، و« محمد عبده » ، أصبح من هم كل شيخ ناشئ أن يصبح أستاذًا إمامًا أو نمطًا آخر من « جمال الدين » ..

ومن هنا نشأت مدرسة « رشيد رضا » ، و« مصطفى المراغى » ، و« طنطاوى جوهرى » ، و« عبد الحميد الزهراوى » ، و« محمد الخضرى » ، و« محمد المهدى » ، و« النجار » ، وغيرهم .

ولكن الشيخ « عبد العزيز » كان يتشبه بـ « جمال الدين » حيث يتشبه أقرانه على الأكثر بالأستاذ الإمام ..

وفرق آخر بينه وبين الشيخ « رشيد » ، أن الشيخ « رشيد » كما قلنا كانت به جفوة عن المكاهة والكياسة ..

أما الشيخ « عبد العزيز » ، فقد كانت فيه من « أبناء البلد » الظرفاء مشابهة كثيرة ..

ذهبت يومًا لزيارة الأستاذ «محمد صادق عنبر» بمكتب صحيفة العلم على ما أذكر، فوجدت الشيخ «عبد العزيز» يصيح صيحة الحنق الذي يغالب ضحكًا مكظومًا:

إنه خبر أدهش البقر.. إنه خبر أدهش البقر!

فسألت الأستاذ «صدق عنبر»: ماهذا الخبر؟

فجعل يتبسم بين الضحك والخجل وهو يقول: إنه مصحح عندنا من أهل الشرقية جاءه من بلده خبر عن بقرة قتلها قطار السكة الحديد، فاختار للخبر عنوانًا يليق بهذه الفاجعة العالمية.. وكتبه بهذا العنوان: «خبر أدهش العالم!».... وفي رأى الأستاذ كما سمعت أن الدهشة من حق البقر في هذا المقام!...

قلت: صدق أبو العيناء.. رأوه يأكل في الطريق أمام الغادين والرائحين فلاموه..

فقال: أمن البقر حياء؟...

«وأراد أن يثبت لمن لاموه أن القوم بقر فوقف ونادى: أيها الناس! قال «حيّ بن حيّ» عمن لا يوثق له برأى: من بلغ طرف لسانه أرنبة أنفه دخل الجنة فلم يبق من حوله أحد إلا أخرج لسانه يحاول أن يبلغ أرنبة أنفه!»

«ومضى أبو العيناء وهو يقول لمن لاموه: ألم أقل لكم؟» وقد أبى الأستاذ «صادق» إلا أن ينقل الحديث المروى لصاحب الخبر ليرى أين هو من قول الشيخ «عبد العزيز» ومن قول «أبي العيناء».

إبراهيم الهلباوى

ابراهيم الهلباوى

كان فى مصر قبل الثورة العرابية حزبان سياسيان : أحدهما حزب « محمد شريف باشا » والآخر حزب « مصطفى رياض باشا » ..

وقد يخطر للقارىء المصرى أن تعريف الأحزاب بالأشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج السياسية .. ولكن الواقع أن تعريف الأحزاب بالأشخاص كانت سنة معروفة فى ذلك العصر حتى فى أعرق الأمم البرلمانية ، فكان الحزبان المتناظران فى إنجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب « جلادستون » وحزب « بيكنسفيلد » . ولم يكن ذلك دليلاً على وحدة البرامج بين الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين فى البرامج ، ولم يكن الخلاف بينهما مقصوراً على الانتماء إلى هذا الوزير أو ذاك الوزير .

كان حزب « شريف » أقرب إلى التجديد السريع ..

وكان حزب « رياض » أقرب إلى المحافظة مع التقدم فى رفق وأناة ..

وكان « الهلباوى بك » ناقماً على « رياض باشا » لسبب من الأسباب ، فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه ما لا يرضيه ..

فأمر عالماً من رجال الدين أن يستجوب الشيخ « إبراهيم الهلباوى » تمهيداً لـ[illegible] [illegible] العالم المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشئ ، واستطرد قائلاً :

إن ناظر النظار سيخرب بيتك إن لم تكف عن الحملة عليه

فضحك الشيخ « إبراهيم » وأجابه ساخراً :

- إنه لا يستطيع .

فعجب العالم المحقق وقال : كيف لا يستطيع وهو ناظر النظار والحكومة كلها فى يديه ؟

قال الشيخ « إبراهيم » : « ولكن ناظر النظار ، أو أكبر من ناظر النظار لكن أمير البلاد .. لكن خاقان البرين والبحرين ، بل لكن « الله » جل جلاله ، فإنه لا يستطيع أن

يجرب لى بيتًا » فعزع العالم المحقق ، وخيل إليه أن المسألة تنتقل من التمرد والعصيان إلى الكفر « بالله » ، والعياذ بالله !

فصاح بالشيخ الناشئ حنقًا : أهذا الذى تعلمتموه من « جمال الدين » ؟ .

وكان « جمال الدين » مظنة « الزندقة » عند بعض العمم فى ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد فى كلام التلميذ برهانًا على زندقة الأستاذ ..

وكان الشيخ « إبراهيم الهلباوى » من تلاميذ « جمال الدين » ، فلم يكن أسرع منه إلى رد التهمة إلى المتهم ، وقال لصاحبنا : بل هذا الذى تعلمناه منكم قبل أن نتعلمه من « جمال الدين » ! .

قال الرجل أعلمناكم نحن الكفر ؟ .

قال الفتى المتحذلق : بل علمتمونا أن قدرة « الله » لا تتعلق بالمستحيل .. وخراب بيتى مستحيل لسبب واحد ، وهو أنه ليس لى بيت ! .

على أن تلمذة « الهلباوى » « لجمال الدين » لم تكن تمنعه أن يستطيل عليه بمثل هذه الحذلقة إذا « حكمت الغابة » كما يقولون : فلعله هو التلميذ الوحيد الذى كان يجترئ على السيد بالدعابة فى مجالس الدرس أو مجالس الحديث ..

قال لى عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرًا من تلك الأحاديث - أو تلك الدروس - وكانت كل أحاديث « جمال الدين » من قبيل الدروس : إن السيد كان يتكلم يومًا عن بعض الرذائل التى تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض الرذائل التى تصيب الجسد ولا تمس النفس الناطقة ..

فقاطعه « الهلباوى » قائلاً : ياخبر ! وهل السيد من هؤلاء ؟ .

فانتفض السيد مغضبًا وصاح به : « أغرب عنى أيها الخبيث .. لعنة « الله » عليك !

و« الهلباوى » الذى تدل عليه هاتان النادرتان هو « الهلباوى » الذى عرفه الناس طوال حياته . ويمكنك أن تلخصه فى عبارة واحدة ، وهى أنه رحمه « الله » كان « ذلاقة لسان لا تعبق نفسها ولا تريح صاحبها » .

ومن هذه الذلاقة المتعجلة ، كان يؤخذ على « الهلباوى » كل ما هو مأخوذ عليه .

• • •

سمعنا عنه قبل أن نراه ، أو نسمع عنه ممن رآه ..

كان أشهر المحامين بين الفلاحين بلا استثناء ، وكان من آيات شهرته أنها دخلت فى « النكتة المصرية » .. فكان الذين يساومون القصابين فى شراء لسان الذبيحة يقولون إذا اشتط عليهم القصاب فى الثمن : « والله » ولا لسان الهلباوى ! .

وسمعنا بشهرته كاتبًا كما سمعنا بشهرته محاميًا ، فكان عنوان مقالاته « إلى أى طريق نحن مسوقون » يتردد على كل لسان ، وكنا نسمع به ونحن لم نقرأ تلك المقالات ..

ثم أدركته آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول فى الوطنية إلى خطة « الاعتدال » وتستر الاعتدال بمصانعة الاحتلال ..

ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعنى بها قضية « دنشواى » التى وقف فيها موقفًا ظل نادمًا عليه طول حياته ..

وعن قضية « دنشواى » قلت فى كتابى « سعد زغلول » : لقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ فى « أسوان » ، فغشى على واحد منا ولم نستطع إتمام القراءة إلا بصوت متهدج تخنقه العبرات .

ويستطيع القارئ إذن أن يتخيل مبلغ السخط الذى أثارته فى نفوسنا رؤية « الهلباوى » أمامنا وجهًا لوجه فى دار الجريدة ، يوم أتى الأستاذ « لطفى السيد بك » خطابه الذى أشرنا إليه فى الكلام عن صاحب « المؤيد » ..

لقد كان اغتباطى شديدًا بما أصابه من الأذى فى ذلك اليوم ، ولكنى أقول إنصافًا له أننا رأينا فى الرجل شجاعة لم نرها فى غيره من المقصودين بالهتاف لعدائى ذلك المساء .. فقد أوى بعضهم إلى حجرات الدار حتى اطمأن إلى انصراف الجمهور الغاضب ، وأبى « الهلباوى » إلا أن يقتحم الجمع خارجًا من الدار فى إبان الهياج ، ولم يحفل بما تعرض له فى طريقه من اللكم والإيذاء .

وغاب « الهلباوى » زمنًا عن ميدان السياسة ، ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معارضًا لـ « سعد زغلول » .. وكانت المساجلات بين الأحزاب يومئذ على أعنفها ، ولكنى أشهد القارئ أننى ما وجدت القلم ينبعث فى يدى انبعاثًا إلى القول القارص العنيف كما كان ينبعث فى الرد على خطب « الهلباوى » وأحاديثه ، فردودى عليه فيما أعتقد كانت أعنف ما كتبت على الإطلاق ..

ثم مضت الأيام ، وشاء القدر أن يكون « للهلباوى » شأن فى موقف من أهم المواقف فى

حياتي السياسية ، لأنه الموقف الذي اعتزمت فيه جدياً أن أترك الهيئة الوفدية مستقلاً عن جميع الأحزاب ..

كان « الوفد » و« الأحرار » الدستوريون مؤتلفين على عهد الوزارة « الصدقية » التي عدلت الدستور ..

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر ، فعقد « الأحرار » الدستوريون اجتماعًا في دار حزبهم ، وذهبنا إليه تأييدًا لمظهر الائتلاف ..

وإذا « بالهلباوي » هو خطيب الاجتماع ..

وإذا بي جالس أمامه على قيد خطوة واحدة . وإذا به يحتال في كلامه ليهملني عند مناسبة ذكري ، ويتجاوز الإهمال إلى التعريض ..

وعلقت على الخطبة في اليوم التالي ، ورآها فرصة سانحة لإرغامي باسم الائتلاف ..

وجاءتني دعوة إلى بيت الأمة حيث تجتمع طائفة من أعضاء « الوفد » على رأسهم « مصطفى النحاس باشا » .

ما الخبر؟ ..

الخبر - كما قالوا - أن مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب أن نتلوه عليك ..

قلت : وما شأني في هذا البيان ؟

قالوا : بل الشأن شأنك .. لأن فحوى البيان أن الوفد لا يقر ما كتبت عن « الهلباوي بك » .

قلت : إنكم أحرار فيما تكتبون ، ولكنني سأرد لا محالة على هذا البيان ، وأقول لكم سلفًا إنني أنا المسئول عما أكتب ، ولم يعلم الناس قط أنني أكتب بإشارة من أحد .

ثم ذكرت لهم سابقة « سعد » مع اللورد « جورج لويد » حين حملت على اللورد من أجل زياراته للأقاليم ، وثار « اللورد » ثورته التي أوشكت أن تعصف بالبرلمان : وأرسل إلى « سعد » من يقول له أن « اللورد » يعتقد أنه هو الموعز بتلك الحملة ، فقال سعد كلمته المأثورة : « إنها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » .. ولم يفاتحني في الأمر حتى انقضت الأزمة ، لكي لا أفهم أنه يقترح على الكف عن الكتابة في هذا الموضوع ! .

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا أن صدور البيان من « الوفد » أمر لا محيص عنه ، فإن شئت فاسمعه لتقترح تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك .

قلت : « لن أسمعه . ولن أسكت عن الرد عليه .. » .

في ذلك المساء زارني « مكرم عبيد باشا » : والمرحوم « صبري أبو علم باشا » ، وسألاني : ماذا صنعت ؟

قلت : كتبت ردًّا على البيان سينشر في عدد الغد من جريدة « مصر » - وكانت من الصحف الصباحية - وفيها كنت أكتب مقالاتي كل يوم ..

فحاولا وقف المقال ..

فقلت لهما : إذا كنت لا أستطيع أن أقنعكم بوقف بيانكم . فلن تستطيعوا إقناعي بوقف المقال ...

ثم قلت لهما : إنني أملك أن أنشره في غير الصحيفة الوفدية إذا حيل بيني وبين نشره فيها .

وكان قد جاءني فعلاً من يعرض على العروض الطوال العراض لأعطيه المقال وينشره حيث يشاء ..

وبعد مناقشة طويلة قال « مكرم باشا » : إننا كنا نود لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك .. أما وأنت مصرٌّ على نشره فاقبل منا رجاء آخر

قلت : ما هو ؟

قالا : أن يخلو المقال من الملام الشديد .

قلت : إنني إذا ذكرت الحقائق كما حصلت ، فلا حاجة بي إلى ملام شديد » .

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها و« الهلباوي بك » لا يقع لي في طريق .

وحدثت في خلال ذلك جفوة بيني وبين المرحوم « عبد القادر حمزة » لمناقشة دارت بيني وبينه حين كنت أكتب في صحيفة « الجهاد » .

ثم زارني يومًا بعد طول القطيعة ، وهو يقول لي : لقد مررت بدارك وأنا في « مصر الجديدة » فحمدت هذه الفرصة وقلت لنفسي : فلنزره إن كان هو لا يزورنا .. فما رأيك ؟ .

قلت : إنه فضل لك سبقتني به ، وعلىَّ أن أشاركك فيه .

وزرته فى دار « البلاغ » – بعد يوم أو يومين – فإذا « بالطباوى بك » هناك ..

فكدت أهمُّ بالرجوع ..

بيد أن « الطباوى بك » كعادته هجّام لا يتردد ، فجذب يدى وبدأنى بالحديث .

ولقد خطر لى فى تلك اللحظة أن واقعتى معه آخر ما يذكره فى تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره وأسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : كنت « والله » يا رجل أحب أن يكتب « الله » لى ثواب إخراجك من تلك الجماعة .. ولكنه فاتنى ، وأراك خارجًا منها على التسعين ... ! .

وبعد حديث متشعب ، دعانى والأستاذ « عبد القادر » إلى قضاء سهرة فى منزله .. فاعتذرت ، وخرج معى حين انصرفت حتى افترقنا عند دار « محمد محمود باشا » رحمه « الله » .

ويظهر أن رغبته فى زيارتى له بقيت تساوره زمنًا حتى صدرت صحيفة « روز اليوسف » اليومية ووليت الكتابة فيها ، فدعانا جميعًا إلى قضاء السهرة عنده ، وذهبنا إليه مع السيدة « روز اليوسف » والدكتور « محمود عزمى » ، وكانت فى الحق من أمتع السهرات ، لأن الرجل محدث ظريف لا يمله المستمع إليه .

ولقد كانت أحاديثه فى تلك الليلة أكثر من أن تذكر ، إلا أننى أذكر من طرائف السهرة أن السيدة « روز اليوسف » كانت تخاطب قرينته وهى تظن أنها زوجة ابنه ، لبعد الفارق بينها وبين زوجها فى السن .. ولم تزل على ظنها حتى نبهها إلى خطئها بنكتة من نكاته التى تناسب المقام ..

نابغة من نوابغ عصره لا مراء .. كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحبوة التى أقلقته وباعدت بينه وبين الصبر والاستقرار .

جرجى زيدان

جرجي زيدان

كنت حوالى سنة ١٩٠٥ أعمل فى دواوين الأقاليم : «قنا» ثم «الزقازيق» ..

وكنت أزور القاهرة مرة كل أسبوعين ، أو كل شهر ، عندما كنت أعمل فى «الزقازيق» ..

أزورها لغرضين فى وقت واحد : أن أشهد التمثيل بفرقة «سلامة حجازى» ، وأن أبحث عن الكتب التى لا تصل مع الباعة المتجولين إلى الأقاليم ..

وفى مرة من هذه المرات ، قصدت إلى حى الفجالة لأسأل عن كتاب ما – أى كتاب – فى فلسفة الجمال ..

ولم أكن أعرف باسم الكتاب الذى أبحث عنه لأنه – كما ظهر لى بعد ذلك – لم يوجد من قبل باللغة العربية ، ولم يوجد إلى اليوم . وإنما كنت أتصفح فصول الأديب الخطيب الإنجليزى «إدمون بيرك» عن الجليل والجميل ، فخطر لى أن مثل هذا المبحث لابد أن يكون مطروقاً باللغة العربية ، وكان اعتقادى فى كتابنا المحدثين منذ أواسط القرن التاسع عشر كاعتقاد أجدادنا فى الأوائل إذ يقولون : ما ترك الأول شيئاً للآخر .. فإذا كانت اللغة الإنجليزية قد اشتملت على بحث فى فلسفة الجليل والجميل ، فأكبر الظن أن كتابنا المترجمين لم تفتهم ترجمة بحث من هذه البحوث ..

ودخلت المكتبة فوجدت على شمال المنضدة المعدة لعرض الكتب رجلين يجلسان على كرسيين متجاورين : أحدهما مطربش والآخر معمم ، وطرق مسمعى اسم السيد «توفيق» و«مصابيح اللؤلؤ» ، فسمعت الرجل المطربش يقول لمحادثه المعمم : إن السيد «توفيق» قد عاد بالنثر العربى خمسمائة سنة إلى الوراء .

وسألت البائع : هل يوجد عندكم كتاب فى فلسفة الجمال ؟

قال مستغرباً : فلسفة ماذا ؟

فأعدت قولى بلهجة التوكيد : فلسفة الجمال !

والتفت الرجل المطربش إلى هذا الحوار ، فنظر نظرة استفهام إلى البائع ، فأجابه هذا :

— إن الأفندى يسأل عن كتاب فى فلسفة الجمال !

فتمهل الرجل المطربش ، ثم قال : ما أظن كتابًا فى هذا الموضوع قد ألف باللغة العربية . ثم سألنى هل رأيت الكتاب المطلوب وعرفت اسمه ، أو اسم مؤلفه !

قلت : كلا .. ولكنى رأيت شيئًا فى بحث الجليل والجميل بالإنجليزية فخطر لى أن البحث مطروق بلغتنا ..

قال فى تؤدة وهو يبتسم : ينبغى حقًا ، ولكنه لم يطرق فى كتب مستقلة . ولا نزيد ما كتب عنه على بعض الإشارات المتفرقة فى المجلات .

علمت من البائع أن الرجلين المتحادثين هما : جرجى زيدان صاحب « الهلال » ، و« أبو بكر لطفى المنفلوطى » أخو « مصطفى لطفى المنفلوطى » الكاتب المعروف ، و« أبو بكر » نفسه كاتب لم يشتهر شهرة أخيه ، وهو الذى كان يكتب بعد ذلك بسنوات فى جمعية « مصر الفتاة » مقالات يحكى بها مقالات أخيه فى « المؤيد » بأسلوب كأسلوب « صهاريج اللؤلؤ » فى التفخيم والإغراب .

ولا أزال أذكر صورة « جرجى زيدان » كما رأيته فى ذلك اليوم : رجلاً بسيط المظهر بعيدًا عن كل تكلف فى زيه وجلسته وحديثه : يتكلم فى الأدب والبلاغة والأحاديث العامة بأناة العالم المحقق ، ولكن بسهولة المتحدث المفيد ... كأنه يقول ما يقوله للتعلم دون أن يبدو عليه مظهر المدرس فى حصة التدريس ، ولا أذكر أننى رأيت من أبناء عصره كاتبًا بمثل شهرته ومكانته وبمثل هذه البساطة فى المظهر والحركة والحديث ، وقد رأيته بعد سنوات فى داره وفى ساعات فراغه فلم أجد بين مظهره وهو بعيد من الناس ومظهره وهو فى المكتبة العامة أقل خلاف .

• • •

وقد طبعت أول ما طبعت من كتبى بمطبعة « الهلال » ، وهما كتاب « خلاصة اليومية » ، ثم « رسالة الإنسان الثانى عن المرأة » وتاريخ طبعها كما هو مكتوب عليها (سنة ١٩١٢) .

وبهذه المناسبة كنت أرى « جرجى زيدان » أحيانًا فى مكتبة « الهلال » وأحيانًا أخرى فى مطبعة الهلال ، فإن لم يكن فى المطبعة ووجب سؤاله عن شأن من شئون الطبع فالدار التى يسكنها غير بعيدة من دار المطبعة ، والاستئذان بالتليفون قبل الزيارة لم يكن من مألوفات ذلك الزمن ، ولم يكن شيوع التليفون بين المكاتب والمنازل كشيوعه فى هذه الأيام ، وإنما كان

طالب الزيارة يطرق الباب ويسأل عن صاحب الدار : أهو حاضر ؟ وهل يمكن لقاؤه ؟ . وغالبًا ما يجاب بغير حرج إلى موعد آخر محدود .

وكان العمل مقسمًا بين الإخوة الثلاثة : « جرجى » للمجلة و« متري » للمطبعة و« إبراهيم » للمكتبة ، وليس بين المطبعة ومسكن صاحب الهلال غير خطوات قلائل .. أما المكتبة فقد كانت بينها وبين المطبعة مسيرة دقائق معدودات ..

وأحسب أن الأمر لم يدع إلى مقابلتى إياه بداره أكثر من مرة واحدة سألته فيها عن رأيه فى فلسفة التفاؤل والتشاؤم ، وعلمت فيما عدا هذه المقابلة — عرضًا — مبلغ عناية الرجل بالاطلاع على موضوعات العلوم من شتى المباحث والمطالب ، وإن لم تكن لزامًا من موضوعات النشر بمجلة « الهلال » .

سألته : أيهما أصح وأصوب ، نظرة المتفائل أو نظرة المتشائم ؟

وربما كان السؤال : أى الفلسفتين أصدق : فلسفة التشاؤم أو فلسفة التفاؤل ؟

لست أذكر نص السؤال بكلماته ، ولكننى أذكر موضوعه العام لأننى كنت مشغولاً فى كل مطالعة وكل نظرة إلى مسائل الأدب والحياة ، وفى كلا الكتابين اللذين طبعتهما بمطبعة « الهلال » إشارة إلى الإمامين المتشائمين : « أبى العلاء » ، و« شوبنهور » ، وهما متلازمان فى ذهن كل قارئ عربى يسمع بالتشاؤم فى الثقافة الأوربية ..

فى خلاصة اليومية أقول بعنوان القول والقائل : « انظر إلى ما قيل لا إلى من قال — قاعدة لا يصح إطلاقها فى كل حالة — فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها ، فإن كلمة مثل قول المعرى :

تَعَبٌ كُلُّهَا الحياةُ فما أعـ ـجَبُ إلاَّ مِنْ راغبٍ فى ازديادِ

يؤخذ منها ما لا يؤخذ مما نسمعه فى كل حين بين عامة الناس من التذمر من الحياة وتمنى الخلاص منها .. فإننا نثق بأن المعرى درس الأمور الجوهرية فى الحياة ودرس الشئون التى تكون منها عذبة أو مرة ، نكدًا أو رغدًا ، ولم يسبر منها أولئك العامة إلا ما يقع لهم من الأمور التى لا تكفى للحكم على ماهية الحياة » .

وفى « رسالة الإنسان الثانى » بعنوان « عصر المرأة » أقول :

« وقفت على آرائه فى المرأة للفيلسوف الألمانى « آرثر شوبنهور » ، فأعجبنى حذق الرجل وجرأته على المجاهرة بأقوال يعد قائلها فى أوربا خلوًا من التهذيب وسلامة الذوق ، وإن كنت

أراه قد غلا فى مذهبه إلى حد ربما كان الدافع به إليه غلو المدنية المصرية فى نظرها إلى المرأة ورعايتها إياها » .

وقد سألت صاحب الهلال فى هذا الموضوع لأنى انتظرت أن أعرف الرأى الراجح من تجاربه كما أعرفه من اطلاعه ودرسه .. فسمعت منه الجواب المفيد عن الأمرين .

قال لى فى بساطة الرجل الذى يتحدث عن الجو أو أحاديث السمر العارض :

« إننا نعرف من التشاؤم مزاج صاحبه كما نعرف ذلك من التفاؤل . وقد يكون رأيهما واحدًا فى حقيقة من الحقائق العملية ، أو الفكرية . ولكن هذا يجعله سببًا للرضا والآخر يجعله سببًا للسخط على حسب مزاجه .. فليست المسألة معهما مسألة صحة أو بطلان ، ولكنها مسألة التأثر على حسب المزاج .

وأحسب أنه قال أيضًا : إننا نترك البحث عن الأصح ونبحث عن الأصلح ، فنرى أن التفاؤل أصلح للعمل فى الحياة والنجاح فيها . لأنه أصلح لاحتمال الشدة وأصلح للأمل فى النتيجة .

وأحسن ما حسن عندى من سمت الرجل ، ومن بساطته فى حديثه وبساطته فى كتابته — أنه لم يتخذ من قواعد العلم كنفًا لعقله تحجر عليه وتخرجه إخراج الموسوس الذى يكرر الواقعة مرة بعد مرة ليستوثق من صحتها وضبطها من جميع نواحيها وأطرافها ، ثم يرى أنها هى العلم وكل ما عداها فليس من العلم فى شىء .

وكذلك لم يتخذ من قواعد العلم كساء مزركشًا يخشى عليه اللابس أن تنكسر قصة فيه إذا طلوع عنقه فى الحركة بعض المطاوعة . ولا يتخشب مع الكساء المزركش ، على سنة الوقار أو على سنة الجمود .

لقد كان على اطلاع واسع فى العلوم التجريبية كاطلاعه على بحوث التاريخ والاجتماع ، ولكنه كان فى سماحة الفكر وسهولة النظر بحيث يحس كما يفهم أن العقل قد يكون « عصبًا » وهو يخوض فى كلام لم يقرره العلم ولم يقرر نقيضه كذلك .

ولهذا كان « جرجى زيدان » يبيح لفكره أن ينظر فى « علم الفراسة الحديث » وليس هو من العلوم التى فرضت التجربة من قوانينها كما فرضت — مثلاً — من قوانين الحركة .

وكان يبيح لفكره أن ينظر فى أصول اللغات وأصول الكلمات وأصول القواعد النحوية دون أن يكون للعلم حكم قاطع فى كل أصل من تلك الأصول .

فإن لم يكن ما يقوله علمنا مصبوبًا فى قالبه الأخير ، فهو — بلا شك — مادة علمية يجب أن تهيأ لقالبها على شكل من الأشكال . ويمتنع علينا أن نترك بعيرًا لفتات إليه . فإن صعب علينا تشكيل المادة قبل ثباتها على شكل من الأشكال أوجب من صب القوالب على شكل الأخير .. وأوجب من ذلك ألا يكون « الشكل الأخير » هذا هو كلمة الختام ، وهو حكم الذى لا يقبل النقض والتنقيح .

وقد كتب « جرجى زيدان » فى كل مسألة من مسائل عصره الاجتماعية والفلسفية والأدبية . فكان فى كل منها يبسط تلك البساطة التى عهدناها منه وهو يتكلم عن « نسوب البكرى » أو عن كتاب فلسفة الحب ، أو عن فلسفة التفاؤل والتشاؤم . ولكنه قال فيها جميعًا رأيه الذى لم يناقضه العلم وما يأت بما هو أثبت منه على اختلاف النظر فى الأمور .

ولسنا نحسب أن تناول الدراسات المختلفة بمثل هذه البساطة مسموح به لكل صاحب قلم مشتغل بالبحث والتفكير .

إنما يسمح به — فى غير حاجة إلى الرخصة من أحد — للعقل الذى يستمد بساطته من مصدر واحد : وهو مصدر القوة التى هى أكبر من قيود البحث ومراسم الدراسة . وهى فى طمأنينته إلى قدرته على سبك القوالب وصهر المادة التى تملؤها تعالج المادة فى دور تشكيل كما تعالجها فى قالبها الأخير .

فــــرح أنطـــون

فرح أنطون

☐ مضت عدة سنوات على احتجاب ذلك الطيف الذى كان كثيرًا ما يُرى فى هذه العاصمة غاديًا أو رائحًا فى خطوة وئيدة وعزلة معتدة ؛ كأنما يسرى من حيث لا يعلم الناس إلى حيث لا يعلمون ، ذاهب الطرف أنى سار كالعابر من عالم لا يذكره إلى عالم لا يرجوه غير مشغول بأمر الطريق .. على وجهه سماحة تظللها سحابة من أسف شجىّ ولوعة حائرة ، وفى عينيه حيرة قرت من فرط القلق فعادت فى مرأى العين طمأنينة راسبة ، وعلى شفتيه صمت مصرّ كظيم يصف لك من صاحبه هتفاً دعا ثم ألحف داعياً مناديًا حتى ملّ وفتر ، فلم يستمع إليه مصيخ ولم يجب إلى صوته صدى ، فأطبق شفتيه إطباقة من لا ينوى اقرارًا ولا يهم بصيحة ولو علقت الدر برداته .

.. مضت سنوات على احتجاب ذلك الطيف واحتباس حركته ، فكان مغيبه فى نفوس المحبين والعارفين رزءًا فادحًا وألمًا بارحًا ونزعة شديدة وشقة بعيدة ، وكان فى تصور الخيال خطوة واحدة كخطوة الطيف الهائم جمعته لواحظ الأصوات فأوى إلى ظلمته الساكنة ...

مضت سنوات على وفاة « فرح أنطون » ..

ولقد رأيت « فرحًا » مرارًا ، ولكنى لم أكلمه إلا مرتين أو ثلاثًا . وكانت مرة منها فى مكتب « الأهالى » إذ كان يعمل فى تحريرها ، فتلاقينا فى غرفة الأستاذ صاحبها وتعارفنا على يديه ، فشعرت من نبرة صوته وفاق ما رأيت من خشوع نظراته ، وأحسست موضع دائه فقلت له مؤاسيًا – وكان كلامنا عن النهضة السياسية – أنك يا « فرح أفندى » طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة ، وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر ، وستكون حين تفترق الطريقان خيرًا مما كانت فى هذا الملتقى المضطرب . فأومأ برأسه إيماءة شاكرة وحرك يده حركة فاترة وقال : « إنه يا أخى تيار جارف .. فماذا يحفل المستقبل بالحاضر ، وماذا يبالى السائر الغد بمن كان قبله فى مفترق الطرق ؟ ! » فبدا لى أن الرجل يئس من الحياة ، وأنه جرب كل سهامه حتى ساء ظنه بالسهام والهدف . على أنه كان إلى يوم وفاته ممسكاً بالقوس لا يحول بصره عن الهدف الذى خدعه ، وذلك ديدن غالب فى النفوس الراجية . وهو كهامة الأمل تتردد حتى تفيض روحه ..

ما يشير ذلك الفاضل الأبي! هذا اليأس إلا لأنه بعد منزع الرجاء ، فلم يكن غريبًا أن ينى بحسرة المضيع المتبت عن غايته .. لم يكن ذلك غريبًا ولو أنه كان فى بلاد الغرب الناشط مشؤه ، وفى ذلك الميدان الممهد جهاده . فكيف به وقد نشأ فى هذا الشرق المسرف الذى يمشى بين الأمم فى إطار الفاقة ، ويمزق ما يمشى عليه من نسيج المعقول تمزيق البازخ والفتى ! ! لأننا نقول : من أين لشرق المسكين أن يفعل غير ما فعله ؟ ومن أين لعظمائه المغبونين أن يفعلوا غير ما يفعلون ؟ ! .. كفاهم عزاء أنهم أضخم من عظماء الغرب واجبًا وأجلُّ منهم قربانًا ، فمن يكن أمدهم بعد الأين والنصب قريبًا وأثرهم بعد الجهاد ضئيلاً قليلاً فلتكن سلواهم – لا بل فخرهم – أن واجبهم ثقيل وأن سفرهم على قرب الأمد سفر طويل ..

و « فرح أنطون » : كسائر الكتاب الذين يستوحون قلوبهم ويقطرون على القرطاس من دمائهم . مفكر تؤزُّ فى تفكيره عوامل الحياة وتنبث فى نفسه ألوان الجو الأدبى الذى يحيط به . وقد فاتنى أن أحيط بكل ما كتب ذلك الأديب الفقيد ، ولكن الذى قرأته من كتبه ناطق بحياة صاحبه ، يدل على أنه من وحى ذهن لا تمر به مذاهب الفكر الشائعة فى زمانه عبثًا ولا تعارض حوله تيارات الحياة بغير جدوى ، ولعل أصوب ما يقال فى كتاباته أنها خير دليل على اتجاه تيار الفكر فى أيامه بخاصة فى نشأته الأولى ، أى فى عهد الصبا المتفتح للدنيا ، المقبل على كل جديد ، الذى قل أن يوصد بابه فى وجه طارق من طوارق الأفكار الجميلة ، أو يضن بموضع فى نفسه على ضيوف الأحلام اللاعبة والخواطر الوسيمة .

نشأ « فرح أنطون » فى سورية ، وكانت نشأته فى أواسط النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فبقى فى حياته الفكرية أثر واضح من وطنه المكانى ووطنه الزمانى . فأما وطنه المكانى فظاهر الأثر فى حملته على رجال الدين وشغفه بالمؤلفات التى تنحى عليهم أو تستخف من دعواهم وتقوض من دعائم سلطانهم .. فمن ذلك إكثاره من الكتابة عن « تلستوى » وتلخيصه لكتاب « رينان » فى « تاريخ المسيح » واشتغاله بالمقارنة بين « الدين والعلم والمال » وبين ما يتنازعه سدنة هذه الأرباب الثلاثة من سيادة على الضمائر والأجسام . ومن ذلك دعوته إلى الفصل بين الكنيسة والحكومة ، ورأيه الذى ارتآه فى كلامه عن ابن رشد ذهابًا به إلى انتقاد الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية فى الخلافة الإسلامية ، وهو الرأى الذى كان من أسباب فشله وكساد مجلته « الجامعة » .

ولعل سائلاً يسأل : ولماذا يكون التحدى البين للنفوذ الدينى خاصة من خواص النشأة السورية ؟ .. فأقول لهذا السائل : إننى كنت كذلك أعجب لهذا الأمر وأستغرب الغيظ

الشديد الذى تتوهج به كتابة السوريين الأحرار حين يحملون على النفوذ الدينى فى بلادهم ويصفون تغلغله فى شئون قومهم .. وكنت لا أعرف لذلك علة حتى تذكرت القوة التى يقبض على زمامها رجال الدين فى سورية ، فخطر لى أنه لا عجب ! لأن رجال الدين هناك ربما كانوا أقوى الطوائف الدينية فى العالم . وأوسع رعاة الكنائس إشرافًا على حياة أتباعهم .. فقد جمعوا بين الزعامة فى الدين والزعامة فى السياسة والزعامة فى العلم .

وناهيك بها من سطوة هائلة تغرى بالتحدى وتغرى بالمناجزة ! أما سبب اجتماع هذه السطوة لهم ، فللحوادث التاريخية التى حدثت عقب غارات الصليبيين وعقب الاتفاق على الامتيازات الأجنبية دخل عظيم فيه . وخلاصته القريبة أن طائفة رجال الدين كانت فى البلاد السورية – ولا تزال – معقد آمال الشعب المسيحى فى الحرية السياسية ، لما بينها وبين الحكومة الفرنسية والحكومات الأوربية الأخرى من صلة معروفة ، وأنها كانت ولا تزال قادة الأفكار وقدوة المسترشدين لأنها منشئة المدارس وطابعة الكتب ومربية الصغار والكبار . وإذا اجتمعت لفئة واحدة أزمة السطوة الروحية من كل جانب – كما اجتمعت لفئة القسيسين السوريين – فغير عجيب ألا يرضى عنها ، وأن يتبرم بها ، فريق الشبان المتعطشين إلى المعرفة الحرة ، التواقين إلى الآراء المتجددة من أصحاب النفوس الأبية والعقول الطليقة والأخلاق المعتقة من أسر التقاليد والعادات .. وغير عجيب أن يجعلوا تحديها والإغراء بها هجيراهم وشغلهم الشاغل فى كل ما يدرسون ويكتبون . وهذا ما تراه فى كتابات « فرح أنطون » مع شىء من الرفق والاعتدال ، وتراه على تفاوت فى الجرأة وغلو فى اللهجة – فى كتابات الأدباء السوريين المهاجرين إلى الأقطار الأمريكية .

أما وطنه الزمانى ، فأثره ظاهر فى الطريقة الكتابية التى تبعها منذ عهده الأول ولم يغيرها إلا قليلاً فى عهده الأخير ونعنى طريقة الكتّاب القائلين بالعودة إلى الطبيعة .. وهى كما لا يخفى الطريقة التى كانت كتبها وآراؤها ميسورة للقارئ الشرقى فى ذلك العصر حين يأخذ فى مطالعة الآداب الفرنسية ، ولاسيما الخفيف القريب المتناول منها ، فلما ترعرع « فرح » واشتاقت نفسه إلى ما عند الغربيين من زاد الفكر ولذة النفس ، ألفى بين يديه كتب « روسو » « وبرناردين » وغيرهما تدعوه إلى موائدها السهلة الهنيئة .. فأقبل عليها ولهج بها وتملكت لبه وأصابت من فطرته الوادعة الكريمة موقعًا حسنًا .. وحق لها أن تصيب ذلك الموقع لأنها كانت فى عصرها أصدق ما يعبر به عن سآمة النفوس من آفات المدنية وأدرانها وجور الطغاة من ساسة القرن الثامن عشر ، ويخيل إليك أن أديبنا كان يكتب بقلم من أقلام أولئك الفلاسفة والأدباء الذين تعشقهم وأغرم بآرائهم لقرب مأخذه من مأخذهم ومشاكلته إياهم فى أسلوبهم وطلاوة

عباراتهم . ولا أقول أنه كان يقلدهم أو يترسم خطاهم ، فإنى أجله عن ذلك ولا أضعه دون « برناردين » مثلاً فى منزلة أرصفة ، ولكنى أقول أنه ترافق فى الفطرة وتطابق فى النظرة يسلكه فى مضمارهم ويتقدم به إلى صف الكثيرين منهم .

على أننى لا أحسبه استمر طويلاً على الإيمان بعقيدة العود إلى الطبيعة وبناء السلام فى حظيرتها ، إذ هى عقيدة لا تثبت على تجارب الأيام واختبار حقائقها ولا تبهر النظر فى ضوء المذاهب المستحدثة بعد « روسو » وتلاميذه . ولا أشك فى أنه اجتواها وأعرض عنها بعدما زاول من حقائق الدنيا ونظر فى « دارون » و« نيتشه » .. فإن الاطلاع على « دارون » و« نيتشه » ومن حذا حذوهما ينشئ للنفس إحساساً جديداً « بمسئوليات » الحياة . يغض من قدامة الرجعة إلى الطبيعة » ويجعل النكوص من المعترك وصمة وعاراً . هذا فضلاً عن أن الطبيعة التى يصورانها ليست بالملاذ الأمين ولا بالملجأ الأمين من شرور المدنية وأوضار المجتمع .. إنما هى والمدنية سواء فى حكم تنازع البقاء وبطش الأقوياء بالضعفاء والأشرار بالأتقياء .

وفى مناجاة الكاتب لشلال « نياجرا » وقصة تريك العابد يمسح صنمه ويؤنبه ويسبح باسمه ويذكر له قلة غنائه عنه .. تريك « فرحاً » يعيب العقيدة وينكرها ويلومها ويعذرها ويقول فيها ما يقوله الكافر الذى يود لو يؤمن والمؤمن الذى شق عليه أن يكفر .. ففى مزاجه حنين إلى عقيدته القديمة فيها ، وفى عقله نبو عنها وسوء ظن بها . ومن هذا النزاع بين مزاجه وعقله استمل مقالاً من غرر ما يقرأ على نمطه فى آدابنا الحديثة ، وبث زبدة حياته وصفوة تجاربه فى بضع صفحات لا يمل تكرارها .. وعندى أنها حسب كاتب من أثر فى عالم الكتابة إن لم يكن له قط أثر سواها ..

كان « فرح أنطون » كاتباً ذا استعداد للرواية والقصص ، وكانت ملكته القاصة تظهر أحياناً فى مقالاته الأدبية والسياسية كما تظهر فى رواياته وحكاياته .. فمال به هذا الاستعداد إلى وضع الروايات فأحسن وارتفع فى روايته « أورشليم الجديدة » ثم تقلبت به صروف ، وألمت به محن ، وتجرع من مرارة الخيبة مراراً .

.. وطلب إليه وهو بين اليأس والرجاء أن يترجم أو يكتب للمسرح ، فلبى وبدأ بداءة حسنة ، ولكنه لم يحقق بغيته ، ولم يصنع شيئاً يليق به أو يضاف إلى محاسنه .. وقد حضرت إحدى رواياته التلحينية ، فما أطقت الصبر على أكثر من فصل منها .. ولم أر فى موضوعها ، ولا فى فنها ، ولا فى غنائها ، ولا فى ممثليها ، ولا فى الجمهور الذى يسمعها ، أثراً لـ « فرح

أنطون » الذى نعرفه ، ولا علامة على ملكته السامية ومكانته الأدبية ، وهى زلة نأسف لها ونعتب بها . ولكن هل هو أول من يلام على اضطراره إلى هجر ملكته والخروج عن جدته ؟ ألم يكن يربح فى الرواية الواحدة من هذه الروايات ما يعادل ربحه من جميع مؤلفاته ومترجماته الصالحة ؟ .. فمن المسئول عن ذلك ؟ . أهو أم الجمهور الأحمق المأفون ؟ ! وماذا كان يصنع « فرح أنطون » إن لم يؤلف تلك الروايات ؟ ! .. ألا فلنعلم أننا إذا كنا لا نختار للأديب النابغ المريض المنقطع الموارد إلا أن يموت بيننا على « الكتان » جوعاً ، فقد يحق لذلك الأديب أن يختار لنفسه خاتمة أسلم وأكرم من تلك ..

« مَي »

رجـال حـول " مى "

في سجل الأدب « الخاص » من عصر النهضة العربية الحديثة مكان فسيح لصفحات جميلة لا تزال مطوية إلى اليوم ، وإن كانت منها ما يهم أن يطلع إلى عالم النور من طيات الخفاء ..

ونعنى بالأدب الخاص ، ذلك الأدب الذى لم يقصد للنشر وإن كان فيه ما يشوق الاطلاع عليه كثيرين غير أصحابه فى حياتهم الخصوصية . وعلى رأس هذه الصفحات صفحة « الندوة » التى كانت تعقدها نابغة جيلها « مارى زيادة » وقد اختارت لتوقيعها الأدبى اسم « مى » من الحرفين الأول والأخير فى اسمها بدفتر الميلاد ، وتأتى هذه الصفحة على رأس أشهر بين صفحات هذا الأدب الخاص . لمكان « مى » من نهضة الأدب ونهضة المرأة فى آن .

لو جُمعت الأحاديث التى دارت فى ندوة « مى » لتألفت منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة « العقد الفريد » ومكتبة « الأغانى » فى الثقافتين الأندلسية والعباسية .

ولو جُمعت الرسائل التى كتبتها « مى » أو كُتبت إليها من نوع هذا الأدب الخاص لكانت ذخيرة لا نظير لها فى آدابنا العربية ، وربما قلّ نظيرها عند الأمم الأوربية التى تصدرت فيها مجالس الأزياء الأدبية والأزياء الاجتماعية ، إلا أن يكون ذلك فى عصر « الصالونات » أو عصر النهضة منذ القرن السابع عشر إلى ما قبل القرن العشرين

أذكر هذا بعد قراءة الرسائل التى نشرتها مجلة « الهلال » للعلامة الفاضل أستاذ الجيل « أحمد لطفى السيد » . فإن هذه الرسائل تعرفنا بصورة « للطفى السيد » لا نعرفها من كتابته فى الجريدة ولا فى كتابته فى تراجم « أرسطو » ، ولا فى كتابته بدواوين الوزارة ، ولعلها من صميم الشخصية ، وطابع الندوة ، وطابع العصر ما نحسبه خاصاً إن شئت . ونحسبه ملكاً عاماً من ناحية الفن لقرّاء الأدب الذى قرن باسم « لطفى السيد » ، واسم « مى » ، وأسماء كتاب الندوة وأدبائها الكثيرين .

وعند « مى » — على ما نعلم — أنماط عديدة من الرسائل التى تسلكت فى عداد هذا الأدب الخاص ، ولا ندرى أين موضعها الآن ، وإن كنا نخشى أن تكون قد أحرقتها أو ردتها إلى كتّابها تستنزد منهم كتبها إليهم ، كما صنعت فى غمرة من غمرات الحزن ، غلبتها على صبرها بعد وفاة والديها ..

رجـــال حـــول « مى »

□ فى سجل الأدب « الخاص » من عصر النهضة العربية الحديثة مكان فسيح لصفحات جميلة لا تزال مطوية إلى اليوم ، وإن كانت منها ما يهم أن يطلع إلى عالم النور من طيات الخفاء ..

ونعنى بالأدب الخاص ، ذلك الأدب الذى لم يقصد للنشر وإن كان فيه ما يشوق الاطلاع عليه كثيرين غير أصحابه فى حياتهم الخصوصية . وعلى رأس هذه الصفحات صفحة « الندوة » التى كانت تعقدها نابغة جيلها « مارى زيادة » وقد اختارت لتوقيعها الأدبى اسم « مى » من الحرفين الأول والأخير فى اسمها بدفتر الميلاد ، وتأتى هذه الصفحة على رأس أمثالها بين صفحات هذا الأدب الخاص : لمكان « مى » من نهضة الأدب ونهضة المرأة فى آن .

لو جُمعت الأحاديث التى دارت فى ندوة « مى » لتألفت منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة « العقد الفريد » ومكتبة « الأغانى » فى الثقافتين الأندلسية والعباسية .

ولو جُمعت الرسائل التى كتبتها « مى » أو كُتبت إليها من نوع هذا الأدب الخاص تمت بها ذخيرة لا نظير لها فى آدابنا العربية ، وربما قلّ نظيرها عند الأمم الأوربية التى تصدرت فيها المرأة مجالس الأزياء الأدبية والأزياء الاجتماعية ، إلا أن يكون ذلك فى عصر « الصالونات » أو عصر النهضة منذ القرن السابع عشر إلى ما قبل القرن العشرين

أذكر هذا بعد قراءة الرسائل التى نشرتها مجلة « الهلال » للعلامة المفضال أستاذ الجيل « أحمد لطفى السيد » ، فإن هذه الرسائل تعرفنا بصورة « للطفى السيد » لا نعرفها من كتابته فى الجريدة ولا فى كتابه فى ترجمة « أرسطو » ولا فى كتابه بدواوين الوزارة ، وهى من طابع الشخصية ، وطابع الندوة ، وطابع العصر ما تحسبه خاصاً إن شئت ، وتحسبه معك عاماً ، من ناحية الفن ، لقرّاء الأدب الذى اقترن باسم « لطفى السيد » ، واسم « مى » ، واسم كتاب الندوة وأدبائها الكثيرين .

وعند « مى » - على ما نعلم - أنماط عديدة من الرسائل التى تسلكت فى عداد هذا الأدب الخاص ، ولا ندرى أين موضعها الآن ، وإن كنا نخشى أن تكون قد أحرقتها أو ردتها إلى كتّابها لتسترد منهم كتبها إليهم ، كما صنعت فى غمرة من غمرات الحزن ، غلبتها على صبرها بعد وفاة والديها

ولكن الذى بقى منها فى موضعه أو عند أصحابه ، يساوى الجهد الجميل الذى يبذل فى جمعه وإنقاذه ، وتسليمه لأصحاب الحق الأخير فيه ، وهم قرّاء الآداب ومحبو الفنون ..

كم كان زوّار تلك الندوة العالية ؟ وكم كان كتّاب الرسائل منها وإليها ؟

إننى أعدُّ ممن رأيتهم غير مرة نحو الثلاثين ، أذكرهم كما ترد أسماؤهم على القلم فى هذه الساعة : « لطفى السيد » ، « عبد العزيز فهمى » ، « شبلى شميل » ، « سليمان البستانى » ، « أحمد شوقى » ، « خليل مطران » ، « أنطون الجميل » ، « داود بركات » ، « نجيب هواوينى » ، « توفيق حبيب » ، « توفيق اسكاروس » ، « أمين واصف » ، « مصطفى عبد الرازق » ، « مصطفى صادق الرافعى » ، « هدى شعراوى » ، « إحسان القوصى » ، « إدجار جلاد » ، « سليم سركيس » ، « يعقوب صروف » ، « حافظ إبراهيم » ، « إسماعيل صبرى » ، « إدريس راغب » ، « فؤاد صروف » ، « عبد القادر حمزة » ، « منصور فهمى » ، « طه حسين » ، « ملك حفنى ناصف » ، « مجد الدين حفنى ناصف » ، « عبد الستار الباسل » ، ونخبة من هذا الطراز على اختلاف التشكيل ومع حفظ المقام ، كما يقال فى هذا المقام .

وكل زائر من هذه النخبة كان حقاً له أن يزور الندوة فى موعدها فى أصيل يوم الثلاثاء ، وكان يرى من حقه ، أو واجبه ، أن يعتذر لفوات موعده منها بعض الأيام : بل كان من حقه أن يكتب رسائل الاعتذار أو رسائل السؤال والتحية وإن لم يكن من مطمعه دائماً أن يتلقى الجواب ..

أكُلّ هؤلاء عشاق ؟ ..

وعلى كل من هؤلاء ينبغى - « مى » ، إذا أجابت ، أن تجيب جواب المحبوبة التى تتقبل العشق ممن يدعيه ؟

هذا هو الخاطر العاجل الذى يسبق إلى الوهم كلما ذكرت نفحات الرسائل ، أو القصائد أحياناً ، من غير واحد فى هذه الزمرة المختارة .

وهذا هو الخاطر الذى تصححه لمحة سريعة أيضاً ، إلى طبيعة الندوة وطبيعة النخبة « العرفية » التى تناسبها ، بل تستوجبها بقانون الشعر والفن ، وإن لم نقل بقانون الجنتلمانية والفروسية !

فتاة جميلة أديبة ، يزورها أدباء وشعراء وكتاب قصة وأصحاب ذوق فى جمال الكلمة وجمال الطلعة .

ولكن الذى بقى منها فى موضعه أو عند أصحابه ، يساوى الجهد الجميل الذى يبذل فى جمعه ، وإنقاذه ، وتسليمه لأصحاب الحق لأحبر به ، وهم قراء الآداب وعبر القرون ..

كم كان زوّار تلك الندوة العالية ؟ وكم كان كتّاب الرسائل منها وإليها ؟

إننى أعدُّ ممن رأيتهم غير مرة نحو الثلاثين ، أذكرهم كما ترد أسماؤهم على القلم فى هذه الساعة : « لطفى السيد » ، « عبد العزيز فهمى » ، « شبلى شميل » ، « سليمان البستانى » ، « أحمد شوقى » ، « خليل مطران » ، « أنطون الجميل » ، « داود بركات » ، « نجيب هواويني » ، « توفيق حبيب » ، « توفيق اسكاروس » ، « أمين واصف » ، « مصطفى عبد الرازق » ، « مصطفى صادق الرافعى » ، « هدى شعراوى » ، « إحسان القوصى » ، « إدجار جلاد » ، « سليم سركيس » ، « يعقوب صروف » ، « حافظ إبراهيم » ، « إسماعيل صبرى » ، « إدريس راغب » ، « فؤاد صروف » ، « عبد القادر حمزة » ، « منصور فهمى » ، « طه حسين » ، « ملك حفنى ناصف » ، « مجد الدين حفنى ناصف » ، « عبد الستار الباسل » ، ونخبة من هذا الطراز على اختلاف التشكيل ومع حفظ المقام ، كما يقال فى هذا المقام .

وكل زائر من هذه النخبة كان حقاً له أن يزور الندوة فى موعدها فى أصيل يوم الثلاثاء ، وكان يرى من حقه ، أو واجبه ، أن يعتذر لفوات موعده منها بعض الأيام ، بل كان من حقه أن يكتب رسائل الاعتذار أو رسائل السؤال والتحية ومن لم يكن من معصمه دائماً أن يتلقى الجواب ..

أكلُّ هؤلاء عشاق ؟ .

وهل كل من هؤلاء ينبغى لـ « مى » ، إذا أجابت ، أن تجيب جواب المحبوبة التى تتقبل العشق ممن يدعيه ؟

هذا هو الخاطر العاجل الذى يسبق إلى الوهم كما ذكرت تحيات الرسائل ، أو القصائد أحياناً ، من غير واحد فى هذه الزمرة المختارة .

وهذا هو الخاطر الذى تصححه لفتة سريعة أيضاً ، إلى طبيعة الندوة وطبيعة التحية « العرفية » التى تناسبها ، بل تستوجبها بقانون الشعر والفن ، وإن لم نقل بقانون الجنتلمانية والفروسية !

فتاة جميلة أديبة ، يزورها أدباء وشعراء وكتاب قصة وأصحاب ذوق فى جمال الكلمة وجمال الطلعة .

إن فات أحداً من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام ، فما هو بز

الزيارة ، ولو لم تكن زيارة عشق وصبابة .

وإن فات « مى » أن تتقبل هذه التحيات ، أو وجب عليها — كم

الأقدمين — أن تصدها بالعبوس والغضب ، فليست هى زيارة « ندوة » إذ

واحدة قد تنتهى كم تنتهى عند آخر مدار .

وهذا هو تأويل الرسائل عن أسلوب فن الناطق ، أو العاطفة الفنية ،

وأكثر من زائر من نخبة هؤلاء الزوار

ولكل منهم أسلوبه فى تعبيره داخل هذا الإطار من التحية .

« لطفى السيد » وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف ..

و« عبد العزيز » وأسلوب صمت حصيف ، كأنه الصبى فى محضر

و« أنطون الجميل » وأسلوب بائع الجواهر فى معرض الخواتم ..

و« شبلى شميل » وأسلوب المصارع فى حلبة الفكر والشعور ..

و« خليل مطران » وأسلوب « موليير » على غير مسرح التمثيل ..

و« سليم سركيس » وأسلوب الدعاية للبيوتات فى صالونات من أشه

و« مصطفى صادق الرافعى » وأسلوب المفاجأة بالكتابة التى يخ

السماع ..

و« إسماعيل صبرى » وأسلوب الشاعر الذى يعلم أن حق الغزل للش

حق الكتابة والتلميح ، وهو الذى كان يكتب الأبيات قبل يوم الزيارة

إن لم أمتع بمرأى حضرتى هذا لا كان صحك

و« أحمد شوقى » وأسلوب الإيماء من بعيد ، ومنه تعليق الفيلسو

تتألف لجنة من لجان الشئون الثقافية ، فيخرج « شوقى » من صمت

تكون « مى » سكرتيرة اللجنة ، وإلا فلا لجنتان ..

ويدركه « لطفى السيد » فيسأل . أهذا اقتراح شعرى أو اقتراح

وانطلق ذات ليلة في نوادره ومداعباته وأخباره لا يكاد يسكت أو يؤذن السامعين بالسكوت ، فهمست في أذن الآنسة أنول : يحق للسيد «خليل» أن يعجبه كلامه كما يعجبنا ، فإنه محدث ظريف خبير بأفانين السمر .

وسمعت والدتها هذه الملاحظة الهامسة فابتسمت وقالت بصوت مسموع : إنه كأمه تماماً .. أمه مثله كمة كلمة !

وقد كنت – كلما أزددت معرفة بـ «مي» ، وعجباتها في ندوتها وفي بيتها – أشعر بحنان هؤلاء الأفاضل الأبوين نحوها ، فإنهم – ولا ريب – كانوا يقصدون التسرية عنها ، ويدركون من بواكير صباها أن فرط الترمت في صوتها يجاوز حده المأمون ، وإنما يوشك أن تعاني كثيراً من عادة العزلة النفسية التي جنت عليها في أخريات أيامها ، وأنها تغالب شجناً كميناً لانطوائها الشديد على ذاتها ، يخيل إلى أنه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق في سليقتها الدينية .

أحمد لطفى السيد

أحمد لطفي السيد

١

كان فى فكره « أفلاطونياً » بجميع معانى هذه الكلمة ، ومن معانيها « الأفلاطونية » التى هى فكرة بغير منفعة أو بغير داع من دواعى الأثرة والأنانية ، كالحب العذرى كما نفهم بالعربية ..

ومن معانيها ، وهو أقرب إلى ما نعنيه فى هذا المقال ، أن الرجل إنما ينبغى أن يعيش للمصلحة العامة تطوعاً وحسبة بغير جزاء ، وألا يشتغل بخاصة أموره « الشخصية » لأن الدولة التى يتجرد لخدمتها هى التى تتكفل له بكل وسائل التفرغ لتلك الخدمة . وليس له بعد ذلك حق فى وقته الخاص لغير القيام بحقوقها ..

وهذا هو دستور الحكم الأفلاطونى كما شرحه الفيلسوف اليونانى فى كتابه الموسوم باسم « الجمهورية » وقد اشتهر فى العالم القديم والعالم الحديث باسم « جمهورية أفلاطون » .

ولقد كان « لطفى السيد » يعيش فعلاً على وفاق هذا الدستور ، وكان — من زمن بعيد — يعهد فى زراعة أرضه وتثميرها إلى بعض أقربائه ، ولا يتعرض لتفصيلات حسابها ، مكتفياً بما يقدمه وكيله عليها من حساب مجمل عن غلاتها ونفقاتها . وكانت طريقته فى تدبير نفقات البيت كطريقته فى تدبير حساب ضيعته ، وهى الضيعة التى أبى أن يملكها كلها حين أراد أبوه أن يختصه منها بحصة فدان ، لا تدخل فى تقسيم الميراث بينه وبين إخوته . فأبى ذلك وأصر على الإباء ولم يقبل من الميراث غير حصته التى يستحقها مع سائر الورثة على سنة المساواة .

يفكر للكون كله

طال حديث اللغة والمجمع يوماً حتى وصلنا إلى نادى « محمد على » . وكان النادى على مقربة من المجمع اللغوى ، إذ كان مقره بأول شارع قصر العينى ، فدعانى إلى إتمام الحديث فى علبه المختار بالنادى حيث كان يقضى أوقات الفراغ ويتناول أحياناً طعام الغداء أو العشاء .

وحضر إلى النادى صديقه الدكتور « بهى الدين بركات » ، فعلم منه عرضاً أنه ينوى السفر إلى عزبته لبعض أعمال زراعية تستدعى حضوره ، فسأله مصطنعاً الجد كعادته فى توجيه بعض الأسئلة التى يريد أن يستطرد منها إلى مناوشة من مناوشاته الفلسفية :

أحمد لطفي السيد

١

كان في فكرته « أفلاطونيًا » بجميع معاني هذه الكلمة ، ومن معانيها « الأفلاطونية » التي هي فكرة بغير منفعة أو بغير داع من دواعي الأثرة والأنانية . كالحب العذري كما نفهم بالعربية ..

ومن معانيها ، وهو أقرب إلى ما نعنيه في هذا المقال ، أن الرجل العام ينبغي أن يعيش للمصلحة العامة تطوعاً وحسبة بغير جزاء ، وألا يشتغل بخاصة أموره « الشخصية » لأن الدولة التي يتجرد لخدمتها هي التي تتكفل له بكل وسائل التفرغ لتلك الخدمة ، وليس له بعد ذلك حق في وقته الخاص لغير القيام بحقوقها ..

وهذا هو دستور الحكم الأفلاطوني كما شرحه الفيلسوف اليوناني في كتابه الموسوم باسم « الجمهورية » .. وقد اشتهر في العالم القديم والعالم الحديث باسم « جمهورية أفلاطون » .

وقد كان « لطفي السيد » يعيش فعلاً على وفاق هذا الدستور . وكان — من زمن بعيد — يعهد في زراعة أرضه وتثميرها إلى بعض أقربائه ، ولا يتعرض لتفصيلات حسابها ، مكتفياً بما يقدمه وكيله عليها من حساب مجمل عن غلاتها ونفقاتها . وكانت طريقته في تدبير نفقات البيت كطريقته في تدبير حساب ضيعته . وهي الضيعة التي أبى أن يملكها كلها حين أراد أبوه أن يختصه منها بخمسمائة فدان ، لا تدخل في تقسيم الميراث بينه وبين إخوته ، فأبى ذلك وأصر على الإباء ولم يقبل من الميراث غير حصته التي يستحقها مع سائر الورثة على سنة الشريعة ..

يفكر للكون كله

طال حديث اللغة والمجمع يوماً حتى وصلنا إلى نادي « محمد علي » ، وكان النادي على مقربة من المجمع اللغوي ، إذ كان مقره بأول شارع قصر العيني ، فدعاني إلى إتمام الحديث في مجلسه المختار بالنادي حيث كان يقضي أوقات الفراغ ويتناول أحياناً طعام الغداء أو العشاء .

وحضر إلى النادي صديقه الدكتور « بهي الدين بركات » . فعلم منه عرضاً أنه ينوي السفر إلى عزبته لبعض أعمال زراعية تستدعي حضوره . فسأله مصطنعاً الجد كعادته في توجيه بعض الأسئلة التي يريد أن يستطرد منها إلى مناوشة من مناوشاته الفلسفية :

قال يخاطب الدكتور « بهي الدين » : وهل من حق « الرجل العام » أن يفرغ لخاصة شئونه ؟

ففهم الدكتور مقصده من هذه المقدمة التي تعودها منه — على ما يظهر — كما تعودها محدثوه ، وقال ما معناه :

— وهل العمل في الأرض محرم في شريعة الحكم ؟

قال : أنا لم أقل هذا

وأردت أن أشترك في المناوشة فقلت : إنما هو سؤال ليس إلا ..

قال الدكتور « بهي الدين » : أهو سؤال بريء ؟

قال الأستاذ : أما أنه سؤال بريء فلا .. !

ومضى الدكتور « بهي الدين » يتحدث عن العمل الذي يسافر إلى العزبة من أجله ، ومنه مشروعات التعاون والخدمة الاجتماعية لمصلحة الفلاحين

فعاد الأستاذ يقول . أما هذا فرخصة به للرجل العام ..

وقد كان أقدم زملائه وأصدقائه من يوم الدراسة الثانوية « عبد العزيز فهمي باشا » يداعبه كثيراً من هذه الناحية ، ويقول كلما خالفه في رأي من آرائه الفلسفية أو اللغوية : إنك يا « لطفي » تفكر للكون كله ولا يعنيك أمر الزمن القريب ولا أمر هذه الخلائق الفانية .

وكان أمتع ألوان الحديث بين الرجلين الكبيرين تلك الأحاديث التي كانت تجري بينهما في السيارة أثناء الطريق من دار المجمع إلى « مصر الجديدة » . حيث يقيمان وأنا على مقربة منهما ، ويتفق كثيراً أن يدعواني إلى صرف سيارتي ومصاحبتهما بعد انتهاء جلسات المجمع ، ولا سيما الجلسات التي يطرأ عليها بعض الخلاف بيني وبين « عبد العزيز باشا » في مسائل اللغة أو الأدب .. وحدث ذلك كثيراً أيام المناقشة على كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وهو موضوع شغل صاحبنا القانوني الكبير يومئذ عدة شهور ، ولم يكن يطيق المعارضة فيه .

فقال لي مرة ، وقد أنس من الأستاذ « لطفي » شيئاً من الميل إلى ترجيح رأيي :

— « أرح نطلع فيها يا عقاد على طريقة أستاذنا « لطفي » .. إن « لطفي » ينظر إلى هذه الأمور التي نشتغل بها نظرة الأرباب . قل له ما رأيك إذا كتبت العربية بغير الحروف الصينية ؟ يقل لك على الأثر : وه يجري إيه » ؟

قال يخاطب الدكتور « بهى الدين » : وهل من حق « الرجل العام » أن يفرغ لخدمة شئونه ؟

ففهم الدكتور مقصده من هذه المقدمة التى تعودها منه — على ما يظهر — كما تعوده محدثوه ، وقال ما معناه :

— وهل العمل فى الأرض محرم فى شريعة الحكمة ؟

قال : أنا لم أقل هذا .

وأردت أن أشترك فى المناوشة فقلت : إنما هو سؤال ليس إلا .

قال الدكتور « بهى الدين » : أهو سؤال برئ ؟

قال الأستاذ : أما أنه سؤال برئ فلا .. !

ومضى الدكتور « بهى الدين » يتحدث عن العمل الذى يسافر إلى العزبة من أجله ، ومنه مشروعات للتعاون والخدمة الاجتماعية لمصلحة الفلاحين .

فعاد الأستاذ يقول : أما هذا فرخص به للرجل العام ..

وقد كان أقدم زملائه وأصدقائه من يوم الدراسة الثانوية « عبد العزيز فهمى باشا » يداعبه كثيراً من هذه الناحية ، ويقول كلما خالفه فى رأى من آرائه الفلسفية أو اللغوية : إنك يا « لطفى » تفكر للكون كله ولا يعنيك أمر الزمن القريب ولا أمر هذه الخلائق الفانية .

وكان أمتع أوقات الحديث بين الرجلين الكبيرين تلك الأحاديث التى كانت تجرى بينهما فى السيارة أثناء الطريق من دار المجمع إلى « مصر الجديدة » ، حيث يقيمان وأقيم على مقربة منهما ، ويتفق كثيراً أن يدعوانى إلى صرف سيارتى ومصاحبتهما بعد انتهاء جلسات المجمع . ولا سيما الجلسات التى يطرأ عليها بعض الخلاف بين وبين « عبد العزيز باشا » فى مسائل اللغة أو الأدب .. وحدث ذلك كثيراً أيام المناقشة فى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وهو موضوع شغل صاحبه القانونى الكبير يومئذ عدة شهور ، ولم يكن يطيق المعارضة فيه .

فقال لى مرة ، وقد أنس من الأستاذ « لطفى » شيئاً من الميل إلى ترجيح رأيى :

— « أوع تطلع فيها باعتماد على طريقة أستاذنا « لطفى » . إن « لطفى » ينظر إلى هذه الأمور التى نشتغل بها نظرة الأرباب .. قل له : ما رأيك إذا كتبت العربية غداً بالحروف الصينية ؟ يقل لك على الأثر : « ويجرى إيه » ؟

فقال لطفى : « ويجرى إيه » ؟

وعاد « عبد العزيز » يكرر الحديث عن نظرة الأرباب وصديقه يكاد يهم بالتأفف من هذا التكرار ، حتى قال متأثراً :

ألا ترى أنك تسخر منى بهذا الحديث عن الأرباب والنظرات الكونية ؟

فأسرع « عبد العزيز » يرد على صديقه ببهجة جافة . كلهجة الدائن الذى يخاطب مدين مماطل :

— ما هذا التجنى يا أخى ؟ !

فصرف لطفى موضوع هذه المناقشة قائلاً :

— ليكن حديث أرباب .. دع الأرباب هى التى تحتج عليك هذه المرة !

• • •

معركة ولى العهد

وأشهد أننى ما عرفت خليقة الحلم فى « لطفى السيد » ، ولا فضل هذا الحلم فى دوام الصداقة بينه وبين أصدقائه وأخصهم « عبد العزيز فهمى » ، إلا من أمثال هذه المساجلات التى تنتهى بالجفاء فى الخطاب ، وقد اشتد بعضها حتى بلغ من الشدة أن « يقفل » « عبد العزيز فهمى » التليفون فى وجه صديقه ، على أثر محادثة سريعة كان موضوعها أيضاً ذلك الموضوع الشائك عن الحروف اللاتينية .

وروت إحدى الصحف عن الأمير « محمد على توفيق » أنه يستنكر الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية . فثارت عليه ثائرة « عبد العزيز فهمى » وبسط لسانه فيه بكلام حاد على مسمع من أعضاء نادى « محمد على » ، وقد كان الأمير « محمد على » رئيسه يومذاك ، وكان أيسر ما قاله فى تلك الحملة خطابه لسامعيه وهم يجتهدون فى تهدئته :

— أتحسبون أننى لا أحترم الأمير « محمد على » ؟ أتحسبون أنه حين يتكلم عن الكتابة بألفاظه الفصيحة « كخنفروف الوايلد » يستحق منى غير الاحترام ؟ .. كلا . إننى مطالب باحترام ولى العهد بحكم الدستور !

ثم خرج من النادى تواً إلى قصر عابدين فكتب اسمه فى دفتر التشريفات وجعل مناسبة هذه

فقال لطفي : « ويجرى إيه » ؟

وعاد « عبد العزيز » يكرر الحديث عن نظرة الأرباب وصديقه يكاد يهم بالتأفف من هذا التكرار . حتى قال متأثراً :

ألا ترى أنك تسخر من بهذا الحديث عن الأرباب والنظرات الكونية ؟

فأسرع « عبد العزيز » يرد على صديقه بلهجة جافة ، كاللهجة الدائن الذى يخاطب مدين مماطل

– ما هذا التجنى يا أخى ؟ !

فصرف لطفي موضوع هذه المناقشة قائلاً :

– ليكن حديث أرباب [illegible] الأرباب هى التى غلبت عليك هذه المرة !

• • •

معركة ولى العهد

وأشهد أنني ما عرفت حلقة [illegible] لطفي السيد » . ولا [illegible] هذا الخلق في [illegible] الصداقة بينه وبين أصدقائه وأخصهم « عبد العزيز فهمى » ، [illegible] من [illegible] هذه المساجلات [illegible] تنتهى بالجفاء في الخطاب . وقد اشتد بعضها حتى [illegible] « عبد العزيز فهمى » التليفون في وجه صديقه . على أن [illegible] كان موضوعها بعيداً للموضوع الشائك عن الحروف اللاتينية

روت إحدى الصحف عن الأمير « محمد على توفيق » أنه [illegible] دعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، فثارت عليه ثائرة « عبد العزيز فهمى » [illegible] فيه بكلام [illegible] سمع من أعضاء نادى « محمد على » ، وقد كان الأمير « محمد على » رئيسه يومئذ . وكان [illegible] في تلك الحملة [illegible] لسامعيه وهم يجتهدون في تهدئته .

– أتحسبون أنى لا أحترم الأمير « محمد على » ؟ أتحسبون أنه حين يحكم من الكتابة بالحروف اللاتينية « كخدروف الوليد » يستحق منى غير الاحترام ؟ .. كلا . [illegible] مطالب بحرمه [illegible] بحكم الدستور !

ثم خرج من النادى توا إلى قصر عابدين فكتب اسمه في دفتر التشريفات وجعل مناسبة هذه

الكتابة في غير موعد من مواعيد التهنئة أو المعايدة أنه يسأل « الله » أن يرزق الملك ولى عهد رشيداً تقر به عيناه !

وسمع « لطفي السيد » بهذه الجملة ، فخاطبه تليفونياً يرجوه أن يترك الأمير وشأنه على الأقل في أحاديث النادى .. فوضع « عبد العزيز » سماعة التليفون بعنف شديد ، ولم يعتذر من هذا المسلك مع صديقه إلا بعد أيام ، وإن كان على هذا في سائر أحواله عظيم الإكبار له عظيم الثناء عليه

• • •

ولا شك أن كلام القاضى الكبير عن نظرات صديقه الكونية لم يخل من أسلوب الدعابة التى تبيح بعض المبالغة ، ولكنها – بعد السماح للمبالغة تعصمنا في وصف هذه النظرات – لم تخل من العدل في تقرير الواقع إلى حد محدود

فـ « لطفي السيد » كان ينظر إلى المسائل الفكرية والاجتماعية نظرة محيطة واسعة يوشك أن تتعادل فيها جميع الجوانب والأطراف ، ولكنه كان من أشد المفكرين اهتماماً بما يعتقد فيه الخير والصلاح . وكنا نلمس على محياه أمارات الهم الصامت كلما خولف اعتقاده وجرت الأمور على غير ذلك الاعتقاد في الحياة العملية ..

إلا أن الأمر الذى كان يبيح لصديقه أن يحسبه من الأرباب في تفكيره . أنه مع كل إيمانه بعقائده العقلية والخلقية لا يرى من المستحيل أن يكون لغيره الحق في إيمان كهذا الإيمان ، على خلاف ما يراه بعقله ووجدانه ..

وكان كثيراً ما يقول لمن يحتم أمراً من الأمور : وهل في هذه الدنيا شيء ضرورى ؟ وهل في هذه الدنيا أحد ضرورى ؟ وهل يمتنع بعد أن تتساوى النتائج وتتلاقى الأضداد التى نحسبها الآن على افتراق بلا لقاء ؟

رأى لـ « سعد زغلول »

وهذه النظرة المحيطة هى سر « ديمقراطيته » في مسلكه بين الناس ومسلكه بين زملائه في العمل ، وإن خالفوه أبعد المخالفة في الآراء ، ولا أذكر مرة واحدة في نحو عشرين سنة قضيناها معه بمجمع اللغة العربية ، أنه حاول بالتصريح أو التلميح أن يؤثر في اتجاه المناقشة أو يقاطع صاحب رأى يعارضه وينفر منه ، وإنما كان على الدوام يصغى باهتمام إلى سير المناقشة ولا يشعر المخالفين له بعد ذلك أنه كان معهم على خلاف ..

الكتابة فى غير موعد من مواعيد التهنئة أو المعايدة : أنه يسأل « الله » أن يرزق الملك ولى عهد
رشيداً تقر « به » عيناه !

وسمع « لطفى السيد » بهذه الجملة ، فخاطبه تليفونياً يرجوه أن يترك الأمير وشأنه
الأقل فى أحاديث النادى .. وسمع « عبد العزيز » سماعة التليفون بعنف شديد ، ولم يعتذر
هذا المسلك مع صديقه إلا بعد أيام ، وإن كان على هذا فى سائر أحواله عظيم الإكبار له عظيم
الثناء عليه .

* * *

ولا شك أن كلام القاضى الكبير عن نظرات صديقه الكونية لم يخل من أسلوب الدعابة
التى تبيح بعض المبالغة ، ولكنها – بعد السماح للمبالغة بحصتها فى وصف هذه النظرات –
تخل من العدل فى تقرير الواقع إلى حد محدود

فـ « لطفى السيد » كان ينظر إلى المسائل الفكرية والاجتماعية نظرة محيطة واسعة يوشك أن
تتعادل فيها جميع الجوانب والأطراف ، ولكنه كان من أشد المفكرين اهتماماً بما يعتقد فيه الحق
والصلاح . وكنا نلمس على محياه أمارات الألم الصامت كلما خولف اعتقاده وجرت الأمور على
غير ذلك الاعتقاد فى الحياة العملية ..

إلا أن الأمر الذى كان يبيح لصديقه أن يحسب من الأرباب فى تفكيره . أنه على كل إيمانه
بعقائده العلمية والخلقية لا يرى من المستحيل أن يكون لغيره الحق فى إيمان كهذا الإيمان ، على
خلاف ما يراه بعقله ووجدانه ..

وكان كثيراً ما يقول لمن يحتم أمراً من الأمور : وهل فى هذه الدنيا شىء ضرورى ؟ وهل
هذه الدنيا أحد ضرورى ؟ وهل يمتنع غداً أن تستوى النتائج وتتلاقى الأضداد التى نحسبها
الآن على افتراق بعد اللقاء

رأى لـ « سعد زغلول »

وهذه النظرة المحيطة هى سر « ديمقراطيته » فى مسلكه بين الناس ومسلكه بين زملائه فى
العمل ، وإن خالفوه أبعد مخالفة فى الآراء ، ولا أذكر مرة واحدة فى نحو عشرين سنة
قضيناها معه بمجمع اللغة العربية ، أنه حاول بالتصريح أو التلميح أن يؤثر فى اتجاه المناقشة أو
يقاطع صاحب رأى يعارضه ويتفر منه ، وإنما كان على الدوام يصغى باهتمام إلى نهاية المناقشة
ولا يشعر المخالفين له بعد ذلك أنه كان معهم على خلاف ..

لك اسماحة فى سعة فى تقدير وجوه الخلاف التى جعلته مرجعاً للمشورة الصادقة بين
تلاميذه وتلاميذه من المشتغلين بالحكم والقائمين بأعباء الوزارات . فقد كان يمحضهم رأيه
وشأنه بجميع جوانبه ويوازن لهم بين جميع احتمالاته ، ويتركهم أحراراً فيما يختارون ، ومن كان
منهم يحتاجاً أحياناً أخرى على باب التيه يحاورون بين مضطرب الأفكار ومفترق الظنون
والتقديرات . ولا أدرى ممن سمعت – أمن « سعد زغلول » أم من « محمد محمود » – أن
لطفى السيد » قوى التفكير ولكنه قد يكون فى بعض تقديراته واحتمالاته قوتين متعارضتين
يقف به هذا التعارض دون العمل المستطاع . أو يقف به دون حماسه لرأى من الرأيين ،
لا بد من الحماسة ذات النظر الواحد لمن يريد أن يمعن إمعان الحماسة والعناد فى طريق مقصود
لغرض محدود . ولم يكن « لطفى السيد » قط ذا نظر واحد يحجب عن تفكيره سائر
الأنظار .

فلم يكن من طبعه أن يصادم أحداً أو يصطنع فى الخصومة قسوة ولدداً .. ولكنه كان يثبت
فى مكانه ويترك من يخالفه أن يصطدم به إذا شاء . ولا سماحة فى وراء ذلك إذا ساومه مساومة
يتحول عن مكانه الذى استقر عليه . فهو عند رأيه لا ينحرف عنه وإن أعطاه من العوض
تمكينه ما يدفع عنه شر الضغينة والافتراء ..

مصر للمصريين

... من مبادئ « لطفى السيد » – كما هو معلوم – أن استقلال مصر مقدم على الأغراض
السياسية والمذهبية . وكان هذا معنى شعاره وشعار زملائه فى الرأى والعقيدة . ..مصر
للمصريين .

ووقعت الجفوة بينه وبين الخديو « عباس الثانى » لأن الخديو وحده على غيره كان يحسب
من اختاره عضواً فى الجماعة السرية التى تنشر الدعوة إلى العصبية الوطنية فى الخديو الأمير
واتفقا مع أعضاء هذه الجمعية على سفر « لطفى » من مصر وإقامته بسويسرا سنتين لأ...
الجنسية السويسرية والانتفاع بهذه الحماية فى مكافحة الاحتلال ، فلم يستحسن « لطفى
السيد » هذه الحيلة ولم يلبث أن تنحى عن الجماعة حين أحس أن الخديو يريد أعضاءها جنداً
لشخصه وأعواناً لسلطته على غير المبادئ الدستورية ، وتمت القطيعة بينه وبين القصر بعد رئاسة
« لطفى » تحرير « الجريدة » لسان حال حزب الأمة .. فتحمل القصر وحاشيته ما ... دفع
الدعوى الجنائية عليه ، واتخذوا من مناداته الصريحة بالاستقلال التام دليلاً « ...» على

« خيانة » السيادة المعترف بها للخليفة العثماني واتفق عليها في المعاهدات الدولية . بمنطق الأستاذ « محمد رمضان » – لقد خرج بمثل هذه الهزيمة من معركة الانتخاب وكان الشاب ... المعاهدات التي يبرمها المحتلون ولا يستطيعون ، قانوناً ، أن يستقصوا لعقوبة حمس جرج عبهاسين ، كمثل هذه الدعاية تكن جوبه للأستاذ . إني أقبل تجربة ولكنني أرجو بأستاذ ...

وخطر « للطفي السيد » ، أن يحط هذه المكيدة بعد أن جهرت بها صحف موالية للقصر ونصها . !

ومنها « المؤيد » الذي كان له وزنه ونفوذه في الصحافة العربية ..

قال « لطفي السيد » مدافعاً عن رأيه . إنه يدعو إلى استقلال مصر ولا يكتفي من هذه الدعوة ، ولكن التام غير الكمال .. وقد يقال أن الطفل إنسان تام ولكن الإنسان الكامل لا وجود له بين الأطفال ولا بين الكبار . وكان من حجته التي أعدها للدفاع عن رأيه أن الخلافة لا يقتضي أن تكون مصر مسلوبة السيادة ولا أن يكون استقلالها ناقصاً غير تام ..

وشاءت المصادفات في دراسات المجمع أن تعرض مسألة الفرق بين التام والكامل . وأن أذكر رئيسنا برأيه القديم ، فابتسم وقال : لعله من الوجهة السياسية رأى مقبول . ولكنني لم أندم على شيء ندمي على ذلك التفسير الذي أحبطت به دسيسة القوم .. وودت لو أنني تركتهم يدعون ما يدعون ولم ألحق مبدأ « الاستقلال التام » بأي تفسير .

وبني الرجل على شعار « مصر للمصريين » ومبدأ « الاستقلال التام » بغير تفسير .. وكان هو ثالث ثلاثة وضعوا صيغة توكيل الوفد في طلب الاستقلال التام . أما الاثنان الآخران فهما صديقاه « عبد العزيز فهمي » و « سعد زغلول » .. ولولا أنه لم ينتخب عضواً للجمعية التشريعية لكان ثالثهما في زيارة دار الحماية للمطالبة بإلغاء الحماية البريطانية والاعتراف لمصر بالاستقلال التام ، مع إنكار لسيادة العثمانية وحماية بريطانية على السواء .

المرشح الديموقراطي

وقصة سقوطه في انتخابات الجمعية التشريعية إحدى أعاجيب الدعاية الانتخابية التي تعرض لها من جراء المناداة بالحقوق الديموقراطية . إذ كان منافسه يشيع عنه أنه يطلب للمرأة الحق في الجمع بين أزواج أربعة لأنه يطلب لها مساواة ديموقراطية . ويسألونه : هل أنت حقاً من طلاب الديموقراطية ؟ فيجيبهم بالتأكيد ويعيد لهم الشرح من جديد

ومما أذكره أنني ذهبت إلى مكتبه بالجريدة لمواساته في هذه الخيبة المؤسفة ، فوجدته قد تلقاها بصبر الحكماء ومكاهنة لطلة والاعتذار وهو لا يجد إلا ... الريف « الذكر » الذي غلبه باسم الديموقراطية ! .. ثم حضر « الشيخ طه حسين » وأنا عنده ، وكان شاباً يلبس العمامة لا يزال .. فإذا بالأستاذ ينبسط معه ويعزيه لأن زميله في ترجمة بعض كتب

وهذه الديموقراطية التي نادى بها لطفي السيد – فكرة وقولاً – لقد عاش لها وعاش بها عملاً وإيماناً . وقد كانت هي الصبغ الذي طبع به مزاجه قبل أن يطبع عليه بتفكيره ودراسته ، ولم تمنعه شيمته التي تتمثل فيها كل خلائق الوجاهة الفطرية أن يكون « أرستقراطياً » بالشكل ديموقراطياً بالموضوع ، إذا جاز هذا التعبير .

كان هذا الرجل الممتاز بشخصيته وحقه فكرة في حياة ، أو حياة سكنتها الفكرة في حوصة شأنه ومادة عمله وقوله .. وإنما نشبهه في مقامه الوطني بين مفكري العصور حين نقول إنه في عصرنا هذا زميل عربي « لأرسطو » اليوناني ، تجدد مع الزمن في مدرسة الثورة الفرنسية مدرسة « فولتير » و « روسو » و « مونتسكيو » . وعاش بعدهم فتبدل من حكمة العصر ما كانوا يشيرون إلى قوله من حكمة القرن العشرين ، ولكنه لم يزل بعد منتصف هذا القرن العشرين على نمطه السلفي الأفلاطوني ، مفكراً في إهاب إنسان .

حول مذكرات عبد العزيز فهمي

بعد وفاة « لطفي السيد » رحمه الله ظهرت لزميله وصديقه « عبد العزيز فهمي » باشا مذكرات عن تاريخ حياته يتكلم فيها عن أعمالها في الحياة العامة وفي حركة الوفد المصري لمدى كان عضواً فيه . واستوقفني خلال المذكرات بعض مواضع للملاحظة والتصحيح ولم يتسع المجال لتعقب عنها جميعه ، فكتبت ... عن مقدمات الحركة وهو كاف للإبانة عن مدى الاختلاف بين الواقع والرواية في سائر المذكرات . وهذا هو التعقيب كما نشرته في صحيفة الأخبار :

قرأنا في مذكرات الأستاذ « عبد العزيز فهمي باشا » فصلاً عن تأليف الوفد المصري ومن الأعضاء الثلاثة الذين دخلوا الندوب البريطاني « سير ريجنالد ونجت » ، قال فيه : « هؤلاء الثلاثة هم « سعد زغلول » و « علي شعراوي » و « عبد العزيز فهمي » .. ومما يجب ملاحظته هنا أن اختيار هؤلاء الثلاثة إنما وقع بطريق المصادفة والاتفاق ، ولولا ذلك لكان من إخوانهم فيهم من هو أكفأ في النصاب المطلق وأولى بالصدارة مثل حضرة الكبير « أحمد لطفي السيد » ، ولعل التقدم في السن كان هو السبب الطبيعي الذي أدى إلى اختيارهم »

هذا ما جاء في المذكّرات بنصه منقولاً عن أحد الأعضاء الثلاثة ، يليه كلام عن المناقشات التي دارت بين « سعد » وزملائه حول الاستعداد لإثارة القضية المصرية أمام مؤتمر الصلح ، يدل كله على ضرورة « التبييض » في كل كلام يتعرض لمسائل الخلاف في السياسة لأنه يحتمل السهو والنسيان كما يحتمل إيثار الميول والخصومات . ولكنا نكتفي منه بالفقرة الأولى من هذه القصة كلها لأن الحقيقة فيها أظهر من أن تحتاج إلى المراجعة والمناقشة ، وهي تتعلق بسبب اختيار الأعضاء الثلاثة لمقابلة ممثل الدولة البريطانية دون غيرهم من المشتركين في الوفد بعد تأليفه :

لم يكن اختيار هؤلاء الأعضاء الثلاثة مصادفة واتفاقاً ولم يكن للتقدم في السن على سائر الأعضاء ، ولكنهم كانوا هم نواب الجمعية التشريعية بين الأصدقاء الخمسة الذين تألفت منهم نواة الوفد في المرحلة الاولى ، وهم كما ذكرهم الأستاذ « أحمد لطفي السيد » في قصة حياته : « سعد زغلول » و« عبد العزيز فهمي » و« علي شعراوي » و« محمد محمود » و« لطفي السيد » .. ولم يكن الاثنان الأخيران من أعضاء الجمعية التشريعية . فتقرر الاكتفاء « بسعد » وكيلاً للجمعية و« شعراوي » و« عبد العزيز » عضوين فيما يكون للثلاثة صفة الوكلاء بالنيابة عن الأمة

وقد كان الانتخاب للجمعية التشريعية أهم أسباب هذا الاختيار لهذه الأعضاء . ولكنه لم يخل من أسباب أخرى لوحظت فيه – كما سمعنا من « سعد » بعد ذلك – ومنها أن « علي شعراوي » يمثل أعيان الفلاحين ، وأن « عبد العزيز فهمي » الذي كان نقيباً للمحامين يمثل طائفة المتعلمين ، وأن الأول من الوجه القبلي والثاني من الوجه البحري . فهم يصلحون لتمثيل الناحيتين في أوسع نطاق ..

ولما تقرر القبض على الزعماء الأربعة ونفيهم إلى جزيرة مالطة ، لم يكن هذا الاختيار أيضاً من قبيل المصادفة والأتفاق في نظر الجهات الرسمية ، ولكنه كان عند هذه الجهات موافقة لتقاليد « البروتوكول » في نظام الأولوية . فكان « سعد زغلول » رئيس الوفد ووزيراً سابقاً ، وكان « إسماعيل صدقي » عضواً يليه في الأسبقية الوزارية : وكان « محمد محمود » مديراً من كبار الموظفين ، وكان « أحمد الباسل » يحمل لقب الباشوية ويمثل رؤساء العشائر في البلاد .

فلم يكن هنالك محل للمصادفة ، ولا لاعتبارات السن ، في اختيار الزعماء من جانب الوفد أو من جانب السلطات الرسمية . ولكنه عمل من أعمال النظام متفق عليه ، وقد سها

عن ذلك رجل من أولى الناس بذكر مسائل النظام فضلاً عن كونه أحد هؤلاء فكيف بسائر الروايات ؟ وكيف بسائر الرواة ؟ ..

أما بقية الكلام على المناقشات التي دارت عند التفكير في إثارة القضية الوطنية . فهي أحوج من هذه القصة إلى التعقيب ، وهي لحسن حظ التاريخ لم يبق للتعقيب عليه مجرد البيان الوجيز .

كان حزب الأمة يضم بين أعضاء مجلس إدارته وسائر أعضائه البارزين فئة كبيرة من السروات وأصحاب الجاه والثراء في البلاد . وكانت الصلة الجامعة بينهم كافة أنهم من « غير المرضى » عنهم في قصر الأمير ، وأرادوا أن يتخذوا لحزبهم صحيفة على « أوجه » طراز بين الصحف الأوربية ، وخاصة صحافة « فرنسا » التي كان معظم المتعلمين من رؤساء الحزب يتثقفون بثقافتها ويفضلون صحفها على صحف « انجلترا » دولة الاحتلال . فاجتمعوا زمنا على اختيار إحدى الصحيفتين الكبيرتين في باريس مثالاً لصحيفة الحزب اليومية ، وهما « الطان » و« الجرنال » .

أما « الطان » فكان المرجح له عند العارفين بالشئون الصحفية أن ترجمة اسمها « الزمان » تجعلها أصلح للثناء عليها في اللغة العربية .

ولكن « الطان » صحيفة شبيهة بالرسمية وعلى صلة بالدواوين العليا . فليس من الموافق لحزب يسمى بحزب الأمة ويتجنب الاتصال بقصر « عابدين » وقصر « الدوبارة » على السواء أن يتخذها مثالاً لصحيفته القومية .

فانتهى الخلاف إلى اختيار « الجورنال » نموذجاً لصحيفتهم .. و « الجريدة » هي ترجمة اسم الجورنال

وظهرت « الجريدة » على مثال الجورنال في الصبغة « غير الرسمية » وفي نظام التحرير وترتيب الصفحات ، وأظهر ما كان في هذا النظام فتح صفحات « الجريدة » للكتابة الأدبية بأقلام ناشئة الجيل الحديث ، وربما أفسحت في صفحتها الأولى – إلى جانب المقال الافتتاحي – موضعاً بارزاً لقصيدة حافلة أو مقال طويل من مقالات الوصف والنقد اللغوي ، وترددت على صفحاتها أسماء « هيكل » و« عبد الرازق » و« طه حسين » و« محمد السباعي » و« شكري » و« المازني » و« الفاياتي » وكاتب هذه السطور ، وغيرهم وغيرهم كثيرون .

وكان « اللواء » لسان حال الحزب الوطني ، و« المؤيد » لسان حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية يحتفلان بالكتابة بأقلام الناشئين ، ولكنهما يقصرانها على الناحية السياسية ولا يرحبان

بالكتابة الأدبية إلا إذا كانت بأقلام الشعراء والكتاب التابعين من طراز « شوقي » و« حافظ » و« مطران » و« المويلحي » و« المنفلوطي » وأمثالهم بين أدباء الجيل المتقدم ، فاتجه الأدباء الناشئون إلى « الجريدة » ولا سيما الطلبة والموظفون ، إذ كانت الكتابة في السياسة محظورة عليهم ، وكانوا يكتبون فيها أحياناً إلى الصحف عامة – ومنها الجريدة – بتوقيع مستعار .

وكنت أرسل مقالاتي أو منظوماتي الشعرية بالبريد فتنشر بعد يوم أو يومين من وصولها ، ولكني قدرت لإحدى المقالات أنها لا تخل عند قلم التحرير محل الترحاب إذا وصلت إليه محولة من مدير التحرير ، فتعمدت أن أسلمها إلى المدير يداً بيد . ولم أجد صعوبة في لقائه عندما قصدت إلى مكتبه على غير ميعاد ..

كانت المقالة على ما أذكر نقداً لكتاب الأستاذ « محمد لطفي جمعة » عن « كلمات نابليون » .. وكان الأستاذ « جمعة » قد نقل بعض هذه الكلمات كما ترجمتها حروفها ولم يشر إلى هذه الترجمة ، فلما نبهت إلى ذلك في تعليق على كتاب الأستاذ « محمد لطفي جمعة » تذكرت أنه صديق لأكثر المحررين « بالجريدة » . فكان ذلك من دواعي التفكير في لقاء الأستاذ « أحمد لطفي السيد » لتسليمه المقالة ، ولإرضاء فضول الشباب برؤية ذلك « الفيلسوف » الكبير الذي كنا نقرأ له ولا نراه

واستقبلني مدير الجريدة استقبال الرعاية والترحاب ثم تصفح المقالة على عجل وأمر بإرسالها إلى المطبعة على الأثر ، وهو يقول مبتسماً : ألا تخاف من نابليون يا بني ؟ ! .

قلت وأنا أعلم أن كلمة الديموقراطية من أحب الكلمات إليه وأكثرها ترددا على لسانه وقلمه : الحمد « لله » على نعمة الديموقراطية ! !

ولفت نظري أن إمام الديمقراطية المصرية يلبس « البونجور » ويحرص على السمت الأرستقراطي في زيه وتقاليد سلوكه المهذب مع زواره ومرءوسيه ، فثبتت في ذهني هذه الصورة ولا تزال ثابتة إلى اليوم .. فإذا ذكرت « لطفي السيد » في غيبته لست أذكره إلا وهو يلبس البونجور ، بعد أن رأيته عشرات المرات بالزي « الأفرنجي » المألوف .

وعزز هذه الصورة عندي أنني رأيته بعد ذلك يخطب بدار الجريدة وهو يلبسها ، ورأيته وهو يلبسها بديوان الأوقاف ، إذ حضر يوماً لزيارة وزيرها « محمد محب باشا » وكنت في حجرة استقباله ، لأسلم مدير المكتب بعض المذكرات التي تعرض على مجلس الإدارة .

أما أن « لطفي السيد » ديموقراطي المبدأ في تفكيره وسياسته ودعوته الوطنية فلا مراء في ذلك ، ولا خلاف ..

ولما أنه « أرستقراطى » السمت والشارة فى مظهره ووجاهته فذلك أيضاً مما لا مراء فيه ، ولا خلاف .

ولم تطل بى الحيرة للتوفيق بين الحالتين ولا بين أمرين نقيضين .

لأننى لم ألبث أن شعرت من مراقبته ومراقبة الوجهاء من أبناء الفلاحين أنهم جميعاً ديموقراطيون على هذا المثال ، فهم كلهم ديموقراطيون لأنهم ينكرون سيادة الطبقة التركية واستئثارها بشرف الوجاهة الاجتماعية . وقد كان الوجيه التركى يأبى على أكبر الوجهاء الفلاحين أن يساويه أو يصاهره أو يتخذ من المظاهر الاجتماعية مثل مظهره ، وقد سمعنا الكثير من تعليقات البيوتات التركية على قبول رئيس الوزراء لمصاهرة « سعد زغلول » ، وهو — على وجاهته بين أبناء الفلاحين — علم مشهور من أعلام القانون فى عصره

قال لى « عبد العزيز فهمى باشا » مرة أن « لطفى » ديموقراطى الرأى والعقيدة ، ولكنه طول عمره أرستقراطى بين الأرستقراطيين . وحكى لى أنه كان يقتنى جواداً خاصاً يتنقل به من بلد إلى بلد للتحقيق والتفتيش وهو وكيل للنيابة . ولا يكلف نفسه أن يطلب جواداً من خيل الشرطة كغيره من وكلاء النيابات . وأنه كان يتحدى عظمة التركى بعظمة الفلاح . فيلبس قفطان الوجيه الريفى . وهو فى الدار .

إن « أحمد لطفى السيد » أشهر المنادين فى الصحافة بمبدأ مصر للمصريين ، قد كان ديموقراطياً ليساوى المصريين بغيرهم من أصحاب السيادة فى بلادهم ، وكان أرستقراطيا ليتحدى الأرستقراطيين من أولئك السادة المتغطرسين ، وقد أصهر إلى أسرة رجل كان من أقران الخديو « إسماعيل » فى زمنه ، وهى أسرة المفتش « إسماعيل صديق » .

فليست ديموقراطية « لطفى السيد » إلغاء للعرف الاجتماعى فى آداب الطبقات ، ولكنها ديموقراطية المساواة بين أبناء كل طبقة من المصريين وغيرهم من الغرباء — كل الغرباء فى الأصل ، لأنهم شركاء الطبقة فى المجتمع وأجانب من جميع الأجناس على عهد سيادة المحتلين .

والديموقراطية من هذه السنة بجميع معانيها هى المبدأ الواسع الذى كان يلحظه هذا الفيلسوف الوجيه فى حقوق الرأى وفى حقوق الطبقة . فليس إيمانه بتغليب رأى الكثرة مانعا عنده للقلة أن تبدى رأيها وتقابل به آراء الأكثرين من المخالفين .

كان شعار « الجريدة » كلمة للفيلسوف الأندلسى « ابن حزم » ، وهو من قرائه فى مسائل الأخلاق والعقائد واختلاف الطوائف والعادات .

وكان « ابن حزم » يقول : « من حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى حقائق وإن آلمتها لأول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكبر من مدحهم إياه »

وقد وضع هذا الشعار تحت عنوان « الجريدة » منذ صدورها فى شهر مارس سنة ١٩٠٧ إلى احتجابها بعد ذلك بنحو ثمانى سنوات ، لأنه كان فى طوال هذه المدة يعلم أن معارضيه بالرأى أضعاف مؤيديه ، وكان أنصار الأحزاب من القائلين بالسيادة العثمانية والمشيعين للحاشية الخديوية والجانحين من الطرف الآخر إلى مشايعة السلطة الفعلية أو مشايعة الاحتلال . كل أولئك الأنصار كانوا أضعاف أنصاره فى حزب الأمة ، وقد فارقه شطر كبير من هؤلاء الأنصار فى منتصف الطريق ، وجنحوا إلى ناحية القصر احتجاجاً على ما سموه « استبداد محرر الجريدة بسياستها » وبها ما فيها من مناصبة الأمير .

وهذا الديموقراطى الذى يبيح للقلة أن تعلن رأيها فى غير مداراة ولا مواربة ، وهو هو الديموقراطى الذى يسلم للكثرة بحكمها عند مفترق الطريق . وعند مفترق طريق هذا سلم للكثرة من أعضاء اللجنة المصرية ، قرنه فى المفاوضات التى أجرتها وزارة « محمد ماهر » ، وهو على رأى فى تلك المفاوضات غير ما تراه

وقد هاتفنى فى الصباح الباكر على مقال كتبته بالأهرام مؤيداً فيه خطة الوزارة « الماهرية » ، فلما وافقت اللجنة أخيراً على قرارها سألته فى ذلك ونحن عائدان فى سيارته من المجمع إلى مصر الجديدة ، فقال : إذا كانت كثرة اللجنة وكثرة أهل البلد مع هذا القرار فالكثرة لها حكمها الذى لا حيلة لنا فيه .

وذكرته يومئذ — مازحاً — بمخالفته للزعيم « سعد زغلول » بعد مفاوضات « ملنر » ، فقال : بل هذا — أيها الأخ — من ذاك .. فقد خالفت « سعداً » ، ولكنى لم أخالف كثرة الوفد فى الرأى .

على أن المبالاة بالعرف الكلاسى لم تكن شيئاً هيناً فى تقديرات هذا السرى الفيلسوف ، فقد كان يولى تلك العرف فوق حقه من المبالاة ، إلى جانب تقديراته الفكرية أو تقديراته المنطقية . ثم تزل رعايته للتفكير مع المراسم والتقاليد أرجح عنده من هذه الرعاية له إلى غير الجانب الموافق لتلك المراسم والتقاليد .

وليس من التناقض أن يكون « لطفى السيد » الفيلسوف كذلك ، وهو الثائر على الجمود والرجعة بلا مراء : فإنه فى ثورته يقف إلى جانب مجتمع كبير ، ولا يقف إلى جانب الشذوذ

والانفراد ، وإنما كان إيمانه بمبادىء الحرية على قواعد الثورة الفرنسية إيماناً أيده مع الزمن أضعاف من خالفوه .

• • •

لقد كانت لهذا الثائر تقاليده التي يثور عليها ويعلن الحرب على أنصارها ..

ولكنه لم يكن يحاربها إلا من أجل تقاليد أخرى يسالمها ويقرها ويعمل على إقرارها ..

وإنما كان يفضل بعضها على بعض بشفاعة لوثق ، أو بشفاعة « قانون » متقدم كما آمن به الثائرون العلميون في إبان القرن الماضي ، وثبت عليه بعضهم إلى هذه الأيام من القرن العشرين .

• • •

لقيته بمكتبه وهو مدير لدار الكتب لتجديد رخصة الاستعارة ، وقدم زميله العالم الجغرافي « رأفت بك » مدير المتحف العربي التابع لدار الكتب في آن واحد .. ومحياه تعلوه مسحة يلوح عليها شيء كثير من الامتعاض والابتئاس ، والتفت إليه الأستاذ « لطفي » يسأله : كيف حال متحفك وآثارك يا « رأفت بك » ؟ .. قال « رأفت بك » ولم يفارقه امتعاضه وابتئاسه : إنها أثر بعد عين .. شباب هذا العصر لا يحفلون بماض ولا حاضر .. لا يقرأون .. لا يدرسون .. لا تجدهم في متحف آثار أو معرض فنون فلا تجدهم ولا تسمع خبراً عنهم ، ولكنهم موجودون ليلاً ونهاراً بين المراقص والقهوات ، والبارات .. رقت وقطرات .. رقت وقصرات .. ألا يسمع هؤلاء الشبان بأحوال أندادهم في البلاد الأوربية ؟ ألا يسمعون بأندادهم من الأوربيين في بلادنا ؟ .. ألا يعرفون المفازة والغابات ومصاعد الجبال التي ينطلق إليها الشباب يستجلون فيها جمال الطبيعة وينشدون فيها صحة الجسد والذوق ؟

فنظر إليه الأستاذ « لطفي » مليا ، وقال له معاتباً في لهجة لا تخلو من الدعابة اللطيف : « الله » .. ومالك منفعلاً ثائراً هكذا يا سيدنا البك ؟ ..

فهدأ « رأفت بك » ثم قال بصوت كصوت الصدى يحاكيه في لهجته : عفواً يا سيدنا البك ..

قال الأستاذ « لطفي » : يغضبني ذلك أكثر مما يغضبك ، ولكن الحق على من في هذه التقاليد الرثة ؟ .. أرأيت هناك شاباً يخرج إلى المفازة والغابات وحده ؟ . ألا يخرج الفتى ومعه

الفتاة أو تخرج الفتاة ومعها الفتى ؟ .. ألا يعرفون الحب بينهم قبل أن يعرفوا حب الجمال في السهول والجبال ؟

وشاركت الأستاذين في الحديث قائلاً : وهل يبعد الفتيان عندنا عن الفتيات حيث يذهبون إلى المراقص والبارات ؟

قال الأستاذ « لطفي » : وماذا يصنعون ؟ إنهم يسرقون الحرية في المرقص والبار ، وإن نصيبهم من الحرية المشروعة لا يزيد عن نصيب الفتيات في الخدور

وهنا نلتقي « بالجنتلمان » الديموقراطي في مجلسه وفي تفكيره .. إنه لم يستطع أن يجيز لزميله ذلك « الاختلاط » الممنوع في قانون « الأتكيت » .. ولم ينتصر للثورة على تقاليد الرثة إلا لأنه ينتصر لتقاليد أخرى لا تزال في ثوبها القشيب .. ولكنها ، على أية حال تقاليد لها شفاعة من « قانون » التقدم المتفق عليه . وقد ظل الفيلسوف المصري على إيمان بهذا التقدم المتفق عليه حتى نهاية حياته ، وحتى بعد تعديل ذلك القانون بقانون آخر ينسخ منه مادة مرفوضة كلما أقر منه مادة مقبولة ، وهو قانون التطور الذي لا يقول بالتقدم المطلق المطرد في كل سبيل ، ولا يستلزم أن يكون كل حديث في عصرنا أصلح من كل قديم في ماضي العصور وخاصة في مسائل الأخلاق والآداب

وكلما أباح فيلسوفنا لنفسه أن يمضي مع « ابن حزم » في شجاعة الرأي ومخالفة الإجماع ، عاد إلى رأيه المخالف فلم يتقبله إلا لأنه قانون العقل اتفق عليه سلفاً . لو سارت الأمور حيثما يبغي أن تسير . وقد قال في ذلك من نصائحه للشباب : « كل ما تفكر فيه أو تلفظه أو تفعله انظر هل ترضى أن يكون قانوناً للناس أولاً .. فإن رضيت فافعله في غير خوف ، وإن لم ترض فلا تفعله أبداً » .

• • •

وقد رأيت « أحمد لطفي السيد » مديراً للجريدة ومديراً لدار الكتب ومديراً للجامعة وعضواً بمجلس الشيوخ ووزيراً ورئيساً للمجمع اللغوي ورئيساً للجمعية الخيرية ، فلم تحجب عني خصلة من خصلتيه في وظيفة من هذه الوظائف المتلاحقة .. وهما السمت الوجيه والديموقراطية الصادقة ، وكانت « ديموقراطيته » أجمل ما تكون في مجال الرأي ومباحث التفكير ، وقد شهدناه نحو عشرين سنة في هذا المجال بعد أن عملت معه عضواً بمجمع اللغة العربية ثم رئيساً للمجمع بانتخاب أعضائه ، فكان أقدر رئيس عرفناه في مجمع من مجامع البحث العلمي دانت له ديموقراطيته بغير كلفة ، ودان لها بملازمة احترام حق الحرية الفكرية ،

واحتراماً لرئاسته الأبوية .. تلك الرئاسة التي كان لها سند من العطف المتبادل أقوى من أسناد المراسم والتقاليد .

وكان رحمه الله يشترك في المناقشة ويورد الشواهد في أثنائها من محفوظاته الكثيرة ، وأولها القرآن الكريم وفي جملتها قصائد الشعراء الأقدمين من الجاهليين والمخضرمين والأمويين والعباسيين ، وربما حفظ للمحدثين كما يحفظ للأقدمين ، ولكنه يقصر شواهده في مقام الاحتجاج بالسند المقبول ، على الأولين دون الآخرين .

وكان إجماع الأعضاء على توقيره وحبه يريحه كثيراً من كلفة الرجوع إلى النظام في رعايته لسنة المساواة التامة بين الأعضاء عند إبداء الآراء ، ولكنه كان يعمد إلى الصمت الوديع كلما احتدم النقاش وحميت وقدة الخلاف وتكلم من يتكلم ورد عليه من يرد واعترض عليهما من يعترض دفعة واحدة ، تختلط فيها الأصوات وتحار معها الأسماع .

ويميل الرئيس إلى أقرب الأعضاء إليه يسأله مستسلماً هل آمنت معي بأننا في المجمع اللغوي ويتفق أن أكون إلى جواره فأقول : بغير شك يا أستاذنا . وتمكين [illegible] في هذه الساعة ! .

ويعود النظام تواً في لمحة عين . وقبل أن يحوجه الأعضاء إلى دق الجرس : لأنهم يفهمون من همسته في أذن جاره أو انضوائه على صمته أنه يدق لهم أبلغ الأجراس ! ..

وقد عرفناه من قبل ، ومن بعد ، على صورته التي لا تتغير ولا يختلف مظهر منها عن مخبر ، لأنها صورة المفكر الذي تتجلى عمق أفكاره في مسالك حياته ، والذي يعيش لفكره ويفكر وعلى وفاق فكره : ثائراً محافظاً على قدره ، وديموقراطياً في قرارة طبعه ، يزيده من الديموقراطية ولا ينقصها عنده أنه لم ينسها قط وهو في صمت العنية وفي عزوف الحكيم الفيلسوف .

[illegible] « لطفي السيد » من ترحيب بالظاهرة الأدبية التي تمثلت في فن « المنفلوطي » ، وفي أسلوبه [illegible] ، قبل ظهورها في [illegible] الصحافة وبعد جمع المقالات في كتاب « النظرات » . لأن مقالة الإنشائية كانت [illegible] لا صلة له بمعنى قبل « المنفلوطي » ، [illegible] « محمد المويلحي » في فصول « عيسى بن هشام » على التحقيق . فكانت كتابة « المنفلوطي » على عهد « الجريدة » التي كان يحررها « لطفي السيد » ظاهرة ملحوظة بين المنشئين .

وقد كتب في تقريظ مقالات « النظرات » يقول :

« من الكتاب من هو ضنين بشخصيته لا يدعها تتلاشى في بيئة الكتاب ، لا يتكلف تقليد شيخ من أشياخ الكتابة ولا يكتب للكتابة .. بل لا يكتب إلا إذا قامت بنفسه أغراض [illegible] الأذى في خاطرة [illegible] . وكتاب هذا الصنف قليلون عادة في كل أمة وفي كل حين [illegible] الوحيد للأمم والعامل الأولى التي تدفعهم إلى الأخذ بكل نوع من أنواع الرقي والنجاح . وهي خير النفثات وأبقاها ... »

ثم [illegible] عن أسلوب « المنفلوطي » [illegible] هذه الأساليب :

« [illegible] مصطفى المنفلوطي » .. أكاد لا أجد له في طريقته مثلاً [illegible] يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص فلا يلبس معنى [illegible] يشاركه فيه معنى آخر » .

والمساواة والخصوص في هذا السياق كلمتان من تعبيرات « لطفي السيد » ، لم يكن معناها غيباً عن التعبير عند مستخدميه بمعنى الذي أراده .. فقد أراد بالمساواة أن تكون العبارة [illegible] مساوية للعرض الفكري الذي تؤديه ، وأراد بالخصوص أن يكون اللفظ على قدر معناه . أو يكون باصطلاح العرف الحديث كثوب « التفصيل » وليس كالثوب الجاهز لكل لابس على التقريب بعد القص والتوسيع .. وقد يصح أن يقال عن أسلوب المساواة والخصوص أنه هو أسلوب « القصد » بمعنييه : معنى الاقتصاد ومعنى الإرادة . لأن أسلوب القصد هو الأسلوب المحكم الذي لا فضول فيه ، وهو الأسلوب الذي يؤدي به الكاتب لفظة

لأنه يقصده بذاته ومانعاً لغرضه ولا يقصد غرضاً سواه . ولولا أن كلمة القصد أقرب إلى الإحكام والتقدير منها إلى التسوية والتنسيق لكان فيها الغنى عن كلمتى المساواة والخصوص .

والتفات « لطفى السيد » إلى هذه « الخاصة » فى الأسلوب الإنشائى لم يكن بالأمر الغريب من كاتب « القصد » عنده محكم « فى اللفظ والمعنى ، لأن تحديد ما يريد بالكلمة كان هو طبيعة عقله الغالبة على تفكيره وحيرته . بل على تقديره للأمور وتقديره للأعمال ، فلم يكن للعمل عنده شأن أكبر من شأن مطابقة للكلمة والمطابقة للفكرة التى تدل عليها ، وكانت حياته لفكرته هى الحياة الأولى التى تتلوها بعد ذلك كل حياة عملية تعنيه ..

وكانت مزاولة عقله على تحديد عباراته تشغله للتسلية والرياضة كما تشغله للجد والتدبير ، كأنه الخبير الرياضى الذى يداعب صحبه بالضغط على أكفهم عند المصافحة أو بالشد على ظهورهم عند الملاقاة ، يوهمهم أنها ملاكمة ومصارعة وليست بمصافحة وعناق .. وكذلك كان « لطفى السيد » يصنع بتحديد معانى الألفاظ كلما عانت له الدعابة مع صاحب أو زميل ، بين يدى عمل من أعمال الفكر والنظر أو أعمال الإدارة والتنفيذ .

دخل إلى مكتبه بوزارة الداخلية وكيل الوزارة بعد حفلة الحركة الإدارية يبادره قائلاً :

- ماذا كانت يا حسن[1] ... خيرًا ؟!

قال حسن : نعم خير إن شاء « الله » ... الحركة الإدارية !

قال « لطفى السيد » متجاهلاً : حركة ؟ ... وهل هذه حركة فى الزمان أو فى المكان ؟

وربما كان الكلام على حركة الزمان والمكان أول كلام من نوعه ورد على مسمع وكيل الداخلية الحائر فى أمره بين يدى هذا الفيلسوف الوزير ، فعاد يقول : بل هى حركة التنقلات بين المديرين ووكلاء المديريات والمأمورين وموظفى الإدارة على العموم

قال الفيلسوف : وهل هى حركة بغير مقتض ؟ ولماذا يتحركون ؟ هل طلبوا منك أن تحركهم ؟

ثم انقضت هذه الحدوتة كما شاء الوكيل أن يقضيها وكانت فكاهة الليلة فى مجلس رئيس الوزراء « محمد محمود » !

* * *

(1) حسن رفعت « باشا » أقدم وكلاء الداخلية فى عهده .

وعاد إلى مصر مع ثلاثة أعضاء من « الوفد » لمراجعة الأمة فى المقترحات البريطانية ، فقابله الصحفيون على الميناء وسأله أحدهم : هل أنتم قادمون بمهمة سياسية ؟ فكان جواب الصحفى القديم على الصحفى الناشئ :

- ماذا تعنى بالسياسة : دبلوماسية أو بوليتيقية ؟

وحاول صاحبنا أن يخلص من الورطة بقوله :

- أعنى الاثنتين !

قال الفيلسوف : ليس لنا مهمتان ، ولسنا سفراء فتكون لنا مهمة دبلوماسية ، ولا وزراء فتكون لنا مهمة بوليتيقية ! .. ولقد ذهب الصحفى الحائر فكتب هذا اللغز الفلسفى كما استطاع ، وبدل فيه وعدل كما أراد ..

* * *

ولما ألف أصدقاؤه « الأحرار » الدستوريون حزبهم كان هو معارضاً لهذه التسمية ، وظل معارضاً لها بعد تأليف الحزب بزمن طويل ، وإنما كان اقتراحه أن يسمى الحزب باسم « الحريين الدستوريين » وحجته فى تفصيل هذه التسمية أن كلمة حريين هى التى تقابل كلمة « ليبرال » بالفرنسية والإنجليزية ... وإلا فلماذا تسمى المحافظين خصوم الأحرار ؟ هل تسميهم « بالعبيد » وهم لا يقصرون بالحرية وحدها دون السيادة على نظائرهم ؟!

ولم يكن يكرثه أن يداعبه إخوانه من ظرفاء الحزب قائلين : أهلاً بالحرى .. سلامًا على الحرى ، ذهب الحرى .. جاء الحرى . ولا أروه متسمياً مع هذا التحديد

قال « لطفى السيد » فى قصة حياته :

« نشأت من الصغر ميالاً إلى العلوم المنطقية والفلسفية . وقد لفت نظرى « أرسطو » أنه أول من ابتدع علم المنطق وأكبر مؤلف له أثر خالد فى العلوم والآداب .. ولما كنت مديرًا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض أصدقائى فى وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الأوروبية .. ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة « أرسطو » فلا جرم أن آراءه ومذهبه أشد المذاهب اتفاقاً مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الأقرب إلى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية ... » .

والحق أن « لطفى السيد » كان « أرسطياً » قبل أن يعرف « أرسطو » أو يفكر فى ترجمته ، لأن تكوين عقله المنطقى هو الذى حبب إليه منطق « أرسطو » حين أطلع عليه . وحبب إليه صاحب المنطق حتى كان يتحدث عنه متبسطاً فيسميه « سيدنا أرسطو رضى الله عنه » .. وقد استفاد من أرسطو ما كان يستفيده من مراجعة عقله بغير اصطلاحات المنطق وألفاظه « المخصوصة » على حد تعبيره ، فإن الفكرة المحددة كانت ديدناً طبيعياً عنده ولم تكن من الدروس التى تكتسب بالتعلم ، وقد كان حرصه على حد الفكرة أشد وأكمل من حرصه على حد العمل . لأنه عرف بالتجربة أن نتائج الأعمال قد تختلط بها وقد تتناقض المقدمات والنتائج فيها . بكثرة العوامل المنطقية وغير المنطقية التى تحيط بها . ولكن حدود الفكرة فى ذهنه لم تكن تلتبس بين معنى ومعنى ، ولم تكن تخرج عن حدود المساواة بين أغراضها وعباراتها ، وقد كانت كلمة « يجرى إيه » تجرى على لسانه - كما لاحظ صديقه « عبد العزيز فهمى » - عند التسوية بين نتائج الأعمال ولو كانت فى ظاهرها على أبعد ما تكون من التناقض والاختلاف ، ولكن « يجرى إيه » كانت تنقلب إلى « يجرى كل شىء » إذا حدثت التسوية بين كلمة وكلمة لا تتساويان فى النتيجة المنطقية . لأن حدود المعنى واضحة أمامه بمقياس الشعرة وبغير لبس ولا اختلاف بين أقرب النتائج وأشدها شبهاً فى ظاهرها .

- وقد ذكرت فى غير هذا المقال أن أستاذ الجيل كان يتجنب التصريح برأيه أثناء مناقشات المجمع اللغوى تورعاً منه عن التحيز إلى جانب من جوانب المناقشة ، ولكنه كان فى اللجان التى تعد القرارات للفصل فيها يشترك فى المناقشة ولا يترخص فى رأيه عند المعارضة بين اقتراحه واقتراحات غيره ، بل أذكر فى جلسة من جلسات اللجان أن قضينا نصف الوقت فى الخلاف على كلمتى المفكرة والمذكرة . أيهما أصلح لترجمة عند التفرقة بين اليومية والقائمة والمدونة وللمذكرة ، فكانت معارضته لكلمة « المفكرة » طويلة فى غير هوادة ، واستغرقت نحو نصف الوقت كما تقدم .. لأنه - كما قال - لا يفهم كيف ينسب التفكير إلى المفكرة وكيف يكون الخلط بين مدلول التفكير ومدلول التذكير .

* * *

فى أوائل عهدى بالصحافة قرأت مقالات لبعض رحالى السياسيين حكموا فيها على إحدى الأمم الشرقية حكمهم الذى يداخله الهوى كما يداخل أحكام الساسة على العموم .. ثم قرأت نقداً للرحلة ولأمثالها من الرحلات يدور على فكرة واحدة ، وهى أن رحلة الأسابيع المعدودة فى أمة من الأمم - كبيرة كانت أو صغيرة - لا تكفى للحكم عليها .

وقرأت النقد كما قرأت الرحلة فوافقت الناقد فى تخطئته لكثير من أحكام كاتب الرحلة ، ولكننى عدت إلى نفسى أسألها : من الحق أن الأمم لا تعرف من سياحة أسابيع بين ربوعها ؟ وهل إقامة السنين تكفى من ليس لديه مقياس صحيح للعلم بأحوال الأمة التى قام فيها ؟ .

وظلت هذه الخاطرة تشغلنى زمناً طويلاً حتى انتهيت منها إلى الرأى الذى أعتقده اليوم وهو : أن العبرة بالمقياس ولمن يقيس ، وليست العبرة بطول الوقت أو قصره عند فقدان المقياس الصحيح ، ومع عنايتى أن شيئين اثنين قد يعينان الناظر على العلم بنصيب الأمة وتفرد فلا يصعب الوصول إلى تقدير هذا النصيب فى بضعة أيام ، فضلاً عن الأسابيع .

هذان الشيئان هما : تقدير الكلمة وتقدير الوقت . فلا شك فى تقدم الأمة التى تعرف للكلمة قيمتها وتعرف للوقت قيمته ، ولن تكون الأمة التى تستخف بالكلمة أو تستخف بالوقت على نصيب من التقدم أو من قوة الخلق وسلامة الفطرة ، ولو أعجبتك جميع ظواهرها الأخرى .

وليس من الصعب أن تعرف نصيب الأمة من تقدير الكلمة وتقدير الوقت بعد يومين تقضيهما بين أبنائها ، فى عناوين المذاكرين ونداءات الباعة ومواعيد المواصلات ومواعيد الزيارات ودة كافية للقياس الصحيح فى جميع الحالات

وقد درجت - منذ وقرت فى نفسى هذه العقيدة - على قياس العظماء وغير العظماء بهذين المقياسين : ما قيمة الكلمة عند هذا العظيم أو عند هذا الأديب أو عند هذا الإنسان كائناً من كان ؟ وما نسبة الوقت عنده فيما يحب ؟ ولا أعرف أننى أخطأت تقدير إنسان أمكننى أن أعرف قدره بهذين المقياسين .

وكذلك تعرف قيمة الكلمة على حسب معدنها المأثور عند من يجاورها ويحرص عليها ، فإذا كان هناك تفاوت بين عظيمين يقدران الكلمة ويحرصان عليها فمعدن الكلمة هو موضع التفاوت بين ذينك العظيمين .

ولقد خطر لى يوماً أن أقابل بين « لطفى السيد » وبين أناس ممن عرفتهم من أبناء جيله وهم : « سعد زغلول » و« عبد العزيز فهمى » و« محمد محمود » ، فظهر لى مرة أخرى أن الكلمة هى الرجل كما قيل ..

كانت الكلمة عند « سعد زغلول » كائناً عضوياً يكاد ينصبغ بالدورة الدموية ، وكان هو يفهمها هكذا من كلام غيره كما كان يفوه بها من كلامه على غير تعمد منه . فلا يسمعها

السامع إلا أحس أنه يستحضر معها أثرها « الحيوى » انفعالاً نابضاً فى نفس الغاضب بها فرداً كان أو جماعة .

وكانت الكلمة عند « عبد العزيز فهمى » « حيثية » فى حكم قضائى ، يعنيه منه قبل كل شىء ماذا تقرر من الحكم وماذا تدفع من وجوه الأشكال أو الاعتراض ، وقد يسمع الكلمة فلا يستريح إليها لأنه يحس أن هناك اعتراضاً قد يرد عليها ، وأن يتضح له هذا الاعتراض لأول وهلة ، ثم يعرف السبب فلا يلبث أن يبدل الكلمة المقبولة بالكلمة المعترض عليها ، وله على ذلك قدرة المرانة على التمييز بين النصوص وقدرة الاطلاع على كتب الأدب والقانون .

وكانت الكلمة عند « محمد محمود » ، بل كانت كلمات اللغة كلها ، تصريفاً لكلمة واحدة هى كلمة « الكرامة » أو الوجاهة ، وربما التقى فى هذا التصريف قاموس السيد الصعيدى وقاموس « الجنتلمان » .

أما « لطفى السيد » فالكلمة عنده « حد منطقى » فى قضية كاملة ، ولا التباس عنده بين حد وحد من الوجهة العقلية الصميمة ، وإنما يعرض لها اللبس حين تتعرض للنزاع بين المنطق العقلى والمنطق « السيكولوجى » أو منطق الوعى الخفى والوجدان الباطنى ؛ لأنه — على تسميه الدائم بجوانب الضعف الإنسانى — لم يكن من طبيعة عقله أن يسمح لمضعف أن ينتقل إلى كفة الميزان فى موازنته بين الحقائق الفكرية ، وربما جاء من هذا العزل بين منطق الفكر ومنطق النفس أو روح الفكاهة فى كتابته تختفى وراء الرأى المحصن والتقدير المحكم بالقياس الصحيح .

• • •

ولقد كان يستطيب « التفنن الحلو » كما سماه فى بعض مقالاته . ولكنه لم يكن مرتبطاً إلى « لفظ » النكتة ، ولم يكن له تلك الضحكة الصيتة التى تملأ الأفواه كما تملأ الصدور .. وقد يشترك المجلس كله فى الضحك ولا يشاركهم فيه ، فيحيل الخطأ على نفسه ويقول معتذراً . لا مؤاخذة ! حتى يعنى فهم النكتة ! ..

ربما أذكره نماذج شتى من النكات « البلدية » التى كانت تضحك جلساءه ولا تضحكه ، ومنها حديث أطرفنا به الأستاذ « عبد الوهاب خلاف » — رحمه الله — عن صاحب له ولنا من الشيوخ المعممين الملتحين الذين لا يعطون الشيخة ولا اللحية كل حقها من التزمت والحشمة ، وكانت مناسبة الحديث « دردشة » عارضة عن حد تعبير رئيسنا فيما يقال قبل

انعقاد جلسات اللجان الخاصة بالمباحث اللغوية فى موضوع من الموضوعات ، وكان موضوع الجلسة تعريب المصطلحات الموسيقية أو تهذيبها .

وقال الأستاذ « عبد الوهاب » عن ذلك الشيخ المرح أنه شوهد وهو يتأبط ذراع الموسيقى المعروف « سامى الشوا » فسئل

— ما الذى يجمع هذا على ذاك ؟ وما الذى يفرق بين زمرة الأولياء وزمرة الطرب والغناء ؟

قال الشيخ غير متلعثم :

— ولِمَ لا ؟ ... هذا شيخ « كمان » !

وشوهد الشيخ فى إحدى سهراته وأمامه كأس من الويسكى فسأله الزائر الطارئ مستنكراً :

— أما تستحى لهذه العمامة فوق هذه اللحية التى وخطها الشيب !

فقال كذلك غير متلعثم :

— وماله : هذه أيضاً (بلاك آند هوايت !)

وكان يقول للمازحين من أصحابه كلما ذكّروه بوقار اللحية :

— إنها لا تربينى ... أنا الذى أربيها !

وقد كان الرئيس — خلال هذه الدردشة — يبتسم ولا يضحك ، ويعود فيلوم نفسه على تقصيره هو فى هذا المجال .

وعلينا أن ننصفه من نفسه فى هذا اللوم ، لأن النكتة الجنسية فى الواقع ليست من أجود النكات ولا من أصدق ألوان الفكاهة ، وليس بالمستغرب من العقل المنطقى ولا من صاحب القلم الحريص على « ألفاظ الخصوص » ألا يأنس إلى لعب « الجناس » اللفظى وألا يشغل باله بعد استيفاء شروط العقل بحواشى المتشابهات فى الآذان ، وقد مرت بنا فيما نقلناه من تقريظه لأسلوب « المنفلوطى » كلمة من الكلمات الجنسية يتحاشاها فى مكانها من يتوق باله إلى مشابهاتها ، ولكنها لم تكن مما يتحاشاه « أرسطو المصرى » فى لغة الجد والتحقيق ..

إنه يقول عن كُتّاب الخصوص :

« إن كتابتهم — على قلتها — هى المرقى الوحيد للأمم والعين الأولى التى تدفعهم إلى الأخذ بكل نوع من أنواع الرقى والنجاح »

وكم من نكتة جانبية فى هذه «الظلل» لمن يشاء أن يحكم «غائبة» فى لغة التفكير والتعبير؟

إلا أن الإنصاف الذى يعفى فيلسوفنا من اتهام نفسه بالتقصير فى مجال النكتة : لا يمنع المنصف أن يلاحظ أن نصيب الروح الفكاهية فى كتاباته قليل، يشكو الحرمان من جور الجد المطبق عليه.

* * *

وبعد .. فإن الكلمة عند «لطفى السيد» هى موضوع مقالنا. ولكننا ذكرنا فى عرض المقال مقياساً آخر للأمم وللرجال غير مقياس الكلمة وهو مقياس الوقت، فلا ننسى أن نضيف هذا المقياس إلى ذلك المقياس، ولا نرانا بحاجة إلى كلمات كثيرة لنقرر أن الكفة ستبقى على رجحانها فى الحالتين :

لقد تولى «لطفى السيد» رئاسة مجمع اللغة وهو يقارب التسعين. فلم يتخلف عن المجمع يوماً واحداً وهو قادر على الخروج من داره. ولم تأت الساعة الحادية عشرة فى يوم من أيام حضوره وهو بعيد من كرسيه بقاعة الجلسة. ولا تمر الدقيقة الخامسة والخمسون ويده بعيدة من جرس التنبيه!

ميرزا محمد مهدى خان

ميرزا محمد مهدي خان

زعيم الدولة ورئيس الحكماء

□ نشرت في صحيفة «الدستور» سلسلة من الفصول عن شعراء الفرس الناسي معتمداً فيها على قصائدهم وأخبارهم المترجمة إلى اللغة الإنجليزية .. وحدث في صيف سنة ١٩٠٩ أن شاه الفرس أراد أن يلغي الحياة النيابية فنشبت الثورة في البلاد، واضطر إلى النجاة منها بنفسه فبايعت الأمة ولي عهده .. وهو في نحو الحادية عشرة من عمره. ونقلت الأنباء البرقية عنه أنه بكى حين بويع بالملك بين تلك الزعازع المرهوبة، فكتبت يومئذ مقالاً في صحيفتي «الدستور» و«مصر الفتاة» وجهت فيه الخطاب إلى الشاه الصغير. وقلت في مفتتحه «أنت في الشرق .. بين أمة الشعر والشعور» .. ثم قلت: «إنك بريء لم تضمر لهم سوءاً ولم تحمل عليهم ضغناً. فالعرش أوثر من المهد، وحجر الأمة ألين مسّاً من حجر الأم، وأنت مع ذلك أسعد أسلافك، لأنك أول من رفعته إيران إلى عرشها بيدها، وأيمن شاه لأنك وليت الحكم في العهد الذي سيذكر التاريخ أنه أول عهد وافق نهضة الإسلام من جديد».

ولقيني غير واحد من صحبي بعد نشر هذا المقال وهم يقولون لي: «إن هذا قد أعجب الدكتور «مهدي خان» وهو يحب أن يراك».

فمن هو هذا الدكتور «مهدي خان»؟

لقد كانت القاهرة يومئذ تموج بالتيارات السياسية، بين ظاهرة وخفية .. كانت كأنها مرصد الحوادث في الشرق الإسلامي كله، فكان فيها دعاة من العرب، ودعاة من الترك، ودعاة من الفرس، ومن آسيا الوسطى على اختلاف شعوبها، ومنهم من يعمل للحرية والتجديد، ومنهم من يعمل في خدمة المستبدين، بل في خدمة الاستعمار.

وكان الدكتور «مهدي خان» في ذلك الحين علماً من الأعلام المشهورة بين أولئك الدعاة.

كان يعرف في بلاده باسم «الدكتور ميرزا محمد مهدي خان زعيم الدولة ورئيس الحكماء»، وكان مولده في أوائل القرن التاسع عشر، وكان قد ناهز التسعين حين لقيته. وكان نموذجاً صادقاً لثقافة القرن التاسع عشر في زمنه وفي وطنه، لأنه تعلم الطب في فارس ثم

حضر دروساً مختلفة
أحياناً ، ويكتب
بالفرنسية .. ولهذا

ولست على يقـ
كانت تصادر أحيا
الدولة العثمانية تنقل
القيصرية .

وكان شديد لـ
إيران ..

ولم ألفه على أ
وعرفني إليه صديقنا

كان من أسباب
خاصة ، وقد تحقق
وغيره من شعراء الـ
تارة ، وعن رغبة
وكان للرجل فضـ
ميسوراً لكل راغب
رشدى باشا » ولا
شوقى » ، والأستاذ

على أنى مدين ا

فى أيامها ، وهى مسألة المطبعة العثمانية التى يتوقف على العلم بها تقدير أناس يحسبون الآن من أبطال الحرية والدعوة الوطنية .

فقد كنت أرى الرجل كلما زرته فى مكتبه شديد الحذر على أوراق صحيفته ، وعلى أسماء المشتركين فيها من المقيمين فى إيران وروسيا على الخصوص ..

وكنت أعيب عليه هذا الحذر ، وكان يقول لى : إنك يا بنى لا تعلم أنها مسألة خطرة على حياة المئات .. ومن يدرى ؟ فقد تتعرض لما تعرض له أصحاب المطبعة العثمانية من حيث لا نعلم وذلك غاية ما نخشاه .

أحمد فؤاد

فـــؤاد " الصَّــاعِقَة "

□ إذا كان سبب من أسباب السمعة مانعاً للكتابة عن أحد، فهذا الكاتب الصحفي أولى الناس بالسكوت عنه..

ولكنه أحق الصحفيين بالكتابة عنه إذا كان تاريخ «الأدوار الكتابية» في حياة الصحافة عندنا موجباً للكتابة عن صاحب الدور..

فقد كان «أحمد فؤاد» صاحب صحيفة «الصاعقة» الأسبوعية أشهر الصحفيين من أبناء جيله في تمثيل ذلك الدور الذي عرفناه في صحافتنا بعد ظهور الصحف السيارة عندنا وانتشارها في أواسط القرن التاسع عشر.. فإذا وجب أن نختصر أسماء الصحف التي يصح أن نطلق عليها عنوان «صحافة الهجاء الاجتماعي» في اسم واحد — فاسم «فؤاد الصاعقة» هو ذلك الاسم الذي لا يزاحمه شريك مثله في هذه الصناعة..

كان الناس يعرفون اسم «فؤاد الصاعقة» ولا يعرفون اسم «أحمد فؤاد» إذا تجرد بغير هذه القرينة.. وقد يكتفون باسم «الصاعقة» ولا يزيدون، فيعرف قراء الصحافة من يريدون..

وقد كان «فؤاد الصاعقة» ممثلاً في المجتمع المصري لدور واحد على صورتين: صورة تظهر في محيط الأدب الشعبي وهي صورة «الأدباتي» المتجول بين بلاد الريف والحضر..

وصورة «مفصحة» من هذا الأدباتي وهي صورة الأديب «الأريب» المحتال لعيشه في لغة المقامات، واسم «أبو زيد السروجي» في مقامات «الحريري» عنوان عليه.

وإذا أردنا أن نترجم هذه الصناعة بالأسلوب الاقتصادي لتفسير الأدب والتاريخ، فالصحفيون من طائفة «أحمد فؤاد» هم «محصلو ضريبة الوجاهة والهيبة» في المجتمع الجديد.

ولنا أن نتخيل أن هذا المجتمع سلطان من السلاطين الأقدمين كان له خدامه على طريقته، وكان لهؤلاء الخدام نصيب من التزاماته وجباياته المقررة على رعاياه، فإن هؤلاء الأدباتية «يخدمونه» بالرقابة على أصحاب الجاه والهيبة فيحملهم بتحصيل الضريبة لحسابه أو لحسابهم من جميع هؤلاء؛ هرباً من تكلف المغارم والوقاية من الجزاء الصريح.. لأن المجتمع نفسه

وأصحاب الجاه والهيبة فيه : أولئك الجباة المسلطون عليهم ، كلهم جميعاً غير مرحاء .

على أن « الوظيفة » هذه لم تكن مخجلة لأصحابها ، ولا كان أصحابها يكتمونها ويدورون حولها ..

جلس أحدهم بين زمرة من الكتاب والفضلاء يتحدث عن صديقه السرى الذى يستدنيه منه ويسومه أن يجاريه بتعاطى المخدرات رشم « الكوكايين » وكان يومئذ بدعة « أولاد الذوات » المتبطلين من رواد السهرات .

قال الأدباتى « السروجى » الحديث : « ولكن من ذقنه فتل له .. كان – بسلامته – يريد منى أن أشم له الكوكايين لأعينه على السهر . ولكننى كنت أسهر بغير كوكايين وأجمعه عندى إلى ساعة الحاجة فى آخر الليل .. تلك الساعة التى توصد فيها أبواب الصيدليات ومخابئ العقاقير الممنوعة ، وتحلو فيها الشمة الواحدة بأضعاف سعرها فى جميع الأسواق السوداء وأبدى لصاحبنا الغيرة على خدمته والتحرق على شمة أو شمتين معه قبل انقضاء السهرة ، فلا يقنعنى فى الجرام الواحد أقل من ثمن عشرة جرامات ، وأخرج من هنا وفى جيبى حصيلة الأسبوع من الكوكايين المدخر لتلك الساعة ، ثم أعود إليه ببقية « العشرة الجنيهات » قروشاً معدودات .. ولم أصرف من الورقة نصف مليم » !

وتحدث صحفى آخر عن كلمة غمز بها بعض الوجهاء وفهمها ذلك الوجيه وفهم المقصود منها ، فأرسل إليه خمسة جنيهات ولمح هو من الوسيط أن الحكاية قابلة للمساومة والزيادة جنيهين أو ثلاثة جنيهات ..

ثم اعتدل الصحفى الأدباتى ، وهو يغرق فى زهو وخيلاء : ولكن فشر . ! عسويكن « برى فكس » .. كلمته واحدة لا يقبل المساومة عشرون جنيهاً على دابر المليم ، وإلا فالذى قرأه الباشا غمزاً يقرأه الناس جميعاً تصريحاً على المكشوف .. وعينك ما تشوف إلا النور .. لقد جاءتنى الجنيهات العشرون قبل مغيب الشمس فى ذلك المساء .

كان هذا الصحفى يلقب بيننا « بالزبرا » أى حمار الوحش ، وكان بعضهم يتلطف فيسميه الفنان لأنه من أحناء الحمر الوحشية : فلما سمعت منه هذه القصة صاح الأستاذ « أحمد صبرى » المصور المعروف متهكماً متبرماً وهو يلوح له بيديه فى وجهه : لا « والله » .. من الآن فصاعداً .. حمار وكنى .. ولا زبرا : ولا فنان ، ولا يحزنون !

على هذا المثال كان « الصحفى الأدباتى السروجى » يؤدى وظيفته فى بقايا المجتمع من القرن

التاسع عشر . وكان محصوله من هذه الوظيفة ضريبة المجتمع على الوجاهة والهيبة بحسب براعته فى التحصيل .

وكان « فؤاد الصاعقة » أبرع هؤلاء الجباة فى استغلال وجاهة الوجيه وهيبة المهيب شفوياً وتحريرياً بغير عنته ، وهو عالم بحدود العرف والقانون مع كل طبقة من تلك الطبقات ..

كان له جعل من المصروفات السرية يصيبه حيناً ويفقده حيناً ويطلبه فى جميع الأحيان ، وكان « عبد الخالق ثروت باشا » و « حسين رشدى باشا » ممن عودوه المنحة بعد المنحة من هذه المصروفات .

وانقطعت عنه منحة « ثروت باشا » ، وهو لا يزال رئيساً للوزارة ، فتربص به فى ساعة اجتيازه ببار اللواء مشياً على قدميه كعادته فى أكثر الأوقات ، وتعمد أن يجلس ذلك اليوم بين رهط من كبار رجال وزارتى العدل والداخلية ، فما هو إلا أن مر « الباشا » بهم وهو يعرفهم جميعاً حتى وثب « فؤاد الصاعقة » وراءه ، ووقف على قارعة الطريق يناديه : يا سى « عبد الخالق » .. يا سى « عبد الخالق » !

فهرول أولئك العلية إلى داخل البار ، وعاد إليهم متهفاً وهو يقول : ليس بينى وبينه تكليف ! ..

وقال أحدهم وهو يطمه على فمه : ولا بينى وبينك تكليف يا ابن ..

ولمح « رشدى باشا » عند محطة الرمل بالإسكندرية بعد اعتزاله الوزارة . فوضع ذراعه تحت إبطه ونظر إليه فى غبة من الهدوء والتبسيط وهو يمازحه قائلاً : لا صاحب دولة الآن ولا صاحب عطوفة .. ولا حجَّاب على الباب ولا حرَّاس فى الطريق .. كلانا سواء يا « حسين » ! .. فدفعه الباشا عنه بتلك البساطة الظريفة التى عرفت عنه .. وقال له كأنه يرد المزاح بمثله : لكن أنا عندى فلوس يا ابن ...

وكانت صحيفة « الصاعقة » أسبوعية كما تقول رخصتها أو يقول عنوانها ..

ولكنها فى الواقع لم تكن أسبوعية ولا يومية ولا شهرية ولا سنوية ، إذ كان لابد من تحديد الموعد بوقت معلوم .

وإنما تصدر كلما وجدت « الضحية » التى تؤدى ضريبة الجاه والهيبة : سواء من هذه الضريبة ثمن الثناء أو ثمن الهجاء أو ثمن النجاة من التهديد والوعيد .

ويحدث كثيراً أن تقع المعاملة مع هؤلاء الضحايا بالجملة ، كما حدث فى رثاء بعض الأعلام

من المشاهير .. فإن رثاء العلم المشهور لم يستغرق غير كلمات في بضعة أسطر ، ثم عقب « فؤاد » بعد هذه الكلمات متسائلا : أيجوز في شرعة القدر أن يموت مثل هذا ويعيش أمثال فلان وفلان وفلان .. إلى آخر القائمة المطولة من أسماء المغضوب عليهم والمطالبين بسداد الاشتراك » عن عددين في السنة ، أو بضعة أعداد !

وقد يصدر العدد من أجل عنوان واحد يتكرر على الصفحة بجميع البنوط :

لا تبيعوا أقطانكم إلا بماتي ريال !

لا تبيعوا أقطانكم إلا بماتي ..

لا تبيعوا أقطانكم ..

لا تبيعوا ..

لا . لا ..

ويبلغ من يعنيه الأمر ثمن الأعلان سجاه وجاه مع مضاعفة الأجور في كل مرة .. فيسرع من يعنيه الأمر إلى السداد ..

أما من كان يعنيه الأمر في قصة بيع القطن ، فهو رجل من أصحاب المزارع والمحاصيل كانت له مساهمة في صناعة القلم على أسلوب المقامات وما جرى مجراها ، وكانت مدفعة « الصاعقة » له سبباً مضاعفاً إلى سبب الطمع في ماله ، أو في ضريبة الجاه والسمعة من يديه ، فحسب عليه تلك النصيحة الفاشلة التي ضيعت على الفلاحين محصول العام زلة يهدده بها كلما نقم منه واحتاج إلى جدواه .

وقد يؤجر « فؤاد الصاعقة » على التحرش بالأدباء والكتّاب ممن لا مال لهم ولا جاه ، فيعرف قراء « الصاعقة » ذلك كلما طلعت لهم الصحيفة بفصل من فصول الكاتب المغضوب عليه .. يتبعه تهديد للمشتركين المتلقين برخصة النشر والإعادة من أمثال هذه الفصول !

وربما أخذ التوقيع الذي يوقع به الكاتب مقالاته فترجمه من عنده على هواه .. فتوقيع « ك . ك » هو توقيع « كامل كيلاني » بالحرفين الأولين من اسمه ، ولكنه عند « فؤاد الصاعقة » إما « كلب كليب » .. وما كاهن كذاب .

ولم تبلغ الجرأة بأحد مبلغ هذا « الأدباتي السروجي » في مخاطبة الأمراء والرؤساء .. فقد انقطعت عنه المعونة الشهرية من ديوان المبية الخديوية ، فكتب إلى الأمير ، مباشرة ، خطاباً يقول فيه : إن كان بعضهم يظفر بعطايا الأمير لأنه ينظم فهو حقيق بهذه العطايا لأنه ينثر..

وإن كان لعيب من العيوب ، فهو – أي « فؤاد الصاعقة » – يضم إلى « حمد » الله » على تلك العيوب ، وعلى مرمنها ، وزيادة عليها .. ثم يمضي في تعداد عيوبه عن مقتصد فيها ، كأنه عيوب ضحية من ضحاياه ..

واسم « الصاعقة » نفسه مثل من أمثلة الشهادة على نفسه في مقام المقابلة بينه وبين غيره ..

كان « فؤاد الصاعقة » يدين بالأستاذية للمويلحيين الكبير والصغير ..

وكان المويلحيان أستاذين في ذلك الجيل للكتّاب من مدرسة النقد الاجتماعي أو الأسلوب المهذب في لفظه ومعناه ..

فأخذ تلميذهما اسم « المصباح » وحوله إلى « الصاعقة » .

وأخذ أسلوب « النقد » وحوله إلى أسلوب « الهجاء » .

وارتد على الأستاذين بالتهديد والوعيد ، وحاول أن يتقاضى منهما ضريبة الابتزاز والأتاوة .. فعلّمه المويلحي درساً قال له فيما بعد أنه قد فاته أن يتعلمه مع الهجاء .. هجاء الألف والباء ..

أرسله إلى الأستانة برسالة يغنم فيها «نيل والخيلان ، من سعدن وآل عثمان » ..

فلما وصل إلى الميناء كان في استقباله مدير الشحنة السرية ... لا من مدير التشريفات بالمابين ، وقضى في السجن ما شاء المويلحي الكبير أن يقضيه هناك . قبل أن يشفع له ويدفع الشبهة عنه ..

ولقد سمعت من هذا « الأدباتي السروجي » وصية تدل على طريقته في تقاليد هذه الصناعة ..

كان يترك لي كلما لقيني بدار البلاغ أو الأهرام : أنا أعلم أنك لا تخافني كما يخافني فلان وفلان .. وكل ما أرجوه منك ألا تجهر بذلك أمام هؤلاء .. ودعنا . كل عيشنا معهم ، يرزقنا « الله » وإياك ..

ومرة واحدة لقيني جالساً إلى بعض زملائنا الصحفيين على قهوة بجوار البنك الأهلي ، فهتف بي كالمعاتب الناصح : كله إلا هذا يا أستاذ .. أن الكاتب الذي يلقبه « سعد زغلول » بالجبار لا يجلس على القهوات .. دعهم يحسبونك من مردة الأساطير ، يتلو أحدهم الطلسم كلما خطر له أن يراك .

الفهرس

تقديم ٥
على يوسف ٩
مصطفى كامل ٢٩
محمد فريد ٣٩
مصطفى لطفي المنفلوطي ٤٥
محمد المويلحي ٥٧
وراء التراجم والسير ٦٥
الدكتور يعقوب صروف ٨٥
جميل صدقي الزهاوي ٩٥
محمد فريد وجدي ١١٥
الشيخ رشيد رضا ١٢٥
عبد العزيز جاويش ١٣١
ابراهيم المازني ١٣٧
جرجي زيدان ١٤٥
فرح أنطون ١٥٣
رحلة حول مي ١٦١
أحمد لطفي السيد ١٧٣
ميرزا محمد مهدي خان ١٩٩
فؤاد (الصاعقة) ٢٠٥